كتابي

حلمي مراد



سحر صامت .. بين الجفنين والشفتين !
لوحة فوتوغرافية من روائع الفنان "چان"

كتابي

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل

الكتاب الحادى والثمانون (السنة السابعة) : ديسمبر ١٩٥٨
الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل
الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الان واحد وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد اول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجرة البريدالمسجل ، ماعدا العدد : العاشر وثمنه عشرون قرشاوالأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا . اما الاعداد الستة الاولى والعددالعشرون فقد نفدت ، والادارة مستعدةلشرائها

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا ((عن سنة)) خالصة اجر البريد المسجل ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى

• ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه .

واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بان الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امراة (جزءان) الخطيئة الاولى ، أوديب ، مدام بوفارى ، (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأللحب ، جين اير (ثلاثة أجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثأر للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (ثلاثة اجزاء) بوشكين ، اعترافات جان جاك روسو (٥ أجزاء) ، قصص من الصين ، نزالى بلزاك ، الالياذة (٣ اجزاء) ، قصص من روما ، المسبحة (جزءان) ، سفينة الملذات ، ودم .. وخمر !

وثمن النسخة ١٠قروش ، عدا الاعداد : ١و٤و٧و١٩و٢٢و٣٤ فثمن النسخة ٢٠ قرشا ، و ١٢ و ٢٨ و ٣٢ - ١٢ قرشا ، والاعداد ٣ و ٥ و ٦- ٨ قروش . ويضاف قرشان مقابل أجر البريد المسجل عن كل عدد .

محتويات الكتاب

رأيت وقرأت لك .. فى ستوكهلم !

عزيزى القارىء ..

• **بعد أن** تركتك فى الفصـــل السابق من باب ((**رأيت وسمعت لك**)) ونحن نرتاد معا مدينة (كانتون) بالصين ، شاءت ظروف ــ بعضها يتعلق بأعمال تخص هذه المجلة ، وبعضها يرجع الى أسباب شخصية ، هدفها العلاج من صداع مزمن ينغص نصف أيامى ــ أن أسافر الى بعض بلاد أوروبا .. ولم أستطع أن أحمل معى بالطبع كراساتى ومراجعى عن رحلة الصين واليابان ، كى أواصل الكتابة لك عنها من هذا البلد أو ذاك ، (فأنت تعلم ولا شك أن متاع المسافر بالطائرة يوزن بالجرام وكسور الجرام ، ويحاسب عليه حساب الملكين !) .. ومن جهة أخرى ، حال تنقلى المستمر ، ومشاغل السفر ومشكلاته ، بينى وبين أن أوافيك برسائلى عن رحلتى الحالية ، قبل أن أعود الى القاهرة وأرتب أوراقى ومراجعى الجديدة ، التى أتخفف من حملها ــ أولا بأول ــ فى مكاتب شركات الطيران ومخازن أماناتها فى كل بلد ، وكل مطار ..

وهكذا احتجبت عنك مرغما فى العددين الســابقين .. **حتى اذا اقترب موعد طبع هذا العدد ، وجدتنى أحن حنينا ممتعا الى أن ألتقى بك من جديد فى هذا المكان، من أى سبيل ، متحدثا اليك أى حديث ، فى أى موضوع .. المهم أن ألتقى بك والسلام !**

فهلا تقبلت منى هذا الحديث المرتجل ، غير المرتب ..

الذى لم يسبقه طول تفكير ، أو تدبير ، أو اعداد ؟

انها مجرد خواطر .. وتأملات .. ومطالعات .. بعضها له مناسبات .. وبعضها الآخر لا مناسبة له على الاطلاق !

رأيت الشمس تشرق فى ستوكهولم .. فى الشتاء !

• **وأنا أكتب** اليك هذه السطور من (ستوكهولم) .. (فينيسيا) الشمال .. المدينة المعلقة فوق الماء ، أشبه بـ « غربال » من الجزر العديدة المتناثرة بين بحر البلطيق وبحيرة (مولارين) الفاتنة .. أكتب اليك والشمس الساطعة تتراقص فوق قنوات المدينة الجميلة ، فى غير أوانها ، فتبعث البسمات السعيدة الى الثغور ، والضحكات الطليقة الى الصدور .. **ان أهل المدينة لفى ذهول من هذا الطقس المشرق غير المألوف ، الذى جعلهم يرون الشمس فى فصل الفوا – فى تاريخهم الطويل – ألا يروا فيه غير الضباب ، والمطر ، والثلج يكسو الطرقات !** .. وهم لا يملكون أنفسهم من أن يتهموننى بأننى « **الساحر الفرعونى** » الذى جلب اليهم الشمس من بلده فى آخر « نوفمبر » ، بعد أن احتجبت عن بلدهم منذ أسابيع طويلة !

وأهل ستوكهولم حين يتحدثون عن الشمس ، يتطرقون حتما الى ذكر مصر .. وحين تدعوهم مناسبة الى الحديث عن مصر ، يقرنون اسمها – دون وعى – بالشمس المشرقة !.. ان اللفظين عندهم مترادفان لمعنى واحد ، يمثل الحلم الذى يراود كل سويدى ، والامل الذى لا ينى يداعب خياله . ما من شخص قابلته هنا الا ووجدته ساخطا على طقس بلاده ، يحلم – وعيناه تلمعان ببريق اللهفة الصادقة – باليوم الذى تتاح له فيه الفرصة ، لا لكى يزور مصر مجرد زيارة فحسب ، وانما لكى يستوطنها ويعيش طيلة العمر !

لكن اشراق الشمس هنا الآن ، لبضع ساعات من اليوم ،



دار بلدية (ستوكهولم) ، وهى — فى هندستها من الخارج ، وزخرفتها الرائعة من الداخل — من أجمل المبانى الحديثة فى العالم !

لا يعنى أن الشتاء قد انقلب صيفا ، فالبرد رغم ذلك شديد **للغاية ، والنهار جد قصير ــ بصورة مفجعة ! ــ فأنت اذا خرجت الى الطريق فى الثامنة صباحا ، وجدت الليل ما زال سائدا ، والظلام حالكا ! .. ولا تكاد الساعة تتجاوز الثالثة والنصف بعد الظهر ، حتى يهبط الليل من جديد ، ويسود الظلام !** .. والبرد خلال النهار أو الليل لا تفتر حدته ، والرياح اللاذعة لا يهن نشاطها ! .. والاشجار فى كل مكان مجرد هياكل سوداء عارية الاغصان ، وكأنها خيوط أو خطوط رسمت بالحبر الصينى على صفحة الافق .. لكنها فى نظرى أجمل وأبلغ تعبيرا عن « الطبيعة الصامتة » منها حين يكسوها الربيع بحلة وارفة من الاوراق الخضراء والازهار !

مدينة المفارقات !

• **وستوكهولم** مزيج غريب من المفارقات ، فهى تجمع بين القديم الموغل فى القدم ، والحديث المتطرف فى الجدة . ففى الجانب العتيق منها ، أو « المدينة القديمة » ــ التى يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر ــ يصعب عليك أن تصدق أنك تعيش حقا فى القرن العشرين .. **فان الطرقات الضيقة الملتوية ، المرصوفة بالاحجار الصغيرة ، والحوانيت العتيقة العجيبة التى تبيع عاديات وتحفا أثرية من جميع البلاد ، وجميع الانواع .. لا تملك الا أن تذكرك بحى من الاحياء التقليدية فى روايات « تشارلس ديكنز » !**

ومن الناحية المقابلة ، فى المدينة الحديثة ، تخلبك الشوارع ذات المتاجر الانيقة ، والمبانى التى تمثل أحدث وأجمل ما وصل اليه فن المعمار العصرى .. ولعل أجمل أمثلة هذه المبانى ، « دار البلدية » المطلة على بحيرة (مولارين) ، ببرجها الرباعى ، وقمتها المذهبة ، وقبابها الرائعة التى شيدت احداها على طراز بيزنطى ، والاخرى على طراز عصر النهضة الايطالى ، وثالثة

على طراز منارة شرقية ـ رمزا لصداقة السويد لجميع شعوب الغرب والشرق ـ وهكذا .. الخ

ومن أعجب مظاهر الطابع الذى تتميز به ستوكهولم ، مدى اختلاف مستوى شوارعها من حيث الارتفاع والانخفاض ، الى درجة أنك ـ فى عشرات من المواضع ـ تصعد ، من شارع الى شارع ، سلما طويلا شديد الانحدار ، يتألف من نحو خمسين درجة ! .. واذا سرت فى شارع من أكبر شوارعها الرئيسية ـ هو شارع (كونجز) ـ ألفيت فى منتصفه شارعا مقاطعا يرتكز على قنطرة تعلو عن أرض الشارع الاول بنحو عشرة أو خمسة عشر مترا ، وعلى جانبى الشارع سلمان تؤديان الى الشارع العلوى. والعجيب أن الشارعين المتقاطعين ينتهان الى ميادين مستوية دون أن تلحظ فى أيهما انحدارا ظاهرا ، سواء الى أسفل أو الى أعلى ! .. وأنت تجد هذه السلالم التى تصل بين الشوارع ، سواء فى المدينة القديمة أو الحديثة .. كل الاختلاف بينها فى المنطقتين أن درجات السلم فى الأحياء الحديثة عريضة فسيحة ، تبلغ أحيانا سبعة أو عشرة أمتار ، **بينما هى فى شوارع المدينة القديمة لا تزيد أحيانا على نصف متر ، بحيث لا تتسع لغير شخص واحد ! وكأنها مجرد ((شق)) أو أخدود نشأ من تصدع جدارى منزلين عتيقين متجاورين !**

والشيء الوحيد المزعج حقا فى شوارع ستوكهولم ، هو .. حركة المرور ! ذلك أن جميع السيارات وعربات الترام والاتوبيس تسير فى الناحية اليسرى من الطرقات ، بحيث يتعذر على الغريب أن يتفاداها اذا شرد ذهنه عن مراقبة الطريق لحظة واحدة !

ارتفاع ((مثالى)) لمستوى المعيشة !

• **والسويد** اليوم تعتبر فى طليعة دول أوربا ـ وربما العالم ـ من حيث التقدم الاجتماعى ، وارتفاع مستوى العناية بالمسنين والعجزة ، ورعاية العمال الى درجة تكفل لهم أحسن الشروط عند التشغيل ، وتعطيهم أسخى الحقوق .. كما أنها فى طليعة الدول من حيث ارتفاع مستوى معيشة أفرادها عموما ، ارتفاعا تحسد عليه .. **فأنت تجد الحمال فى المحطة ، وسائق التاكسى ، وعامل البناء فى الشوارع ، على درجة من النظافة ـ بل ((الاناقة)) والرقى ـ لا تكاد تصدق** .. فما بالك بأفراد الطبقة المتوسطة كالموظفين والمدرسات ومستخدمات المحال التجارية والمطاعم أو المقاهى ، وسائر المارة فى الطرقات ! ؟ .. انهم جميعا يختالون فى أجمل زى وأبهى منظر ، والنساء منهم على درجة من أناقة الثياب واكتمال الزينة ونصاعة المظهر ، بحيث تخال أبسطهن عملا ، ثرية من عميلات « كريستان ديور » ملك الازياء !

وعلى ذكر المرأة السكندنافية ، **((لم يعجبنى)) فيها شىء واحدا : ((مرض)) التدخين ! .. فانى لم أر امرأة أو فتاة واحدة ، فوق الخامسة عشرة ، لا تدخن .. وبافراط ! وأكثر ما تتفشى هذه الظاهرة فى الدانمرك ، وتليها النرويج . أما فى السويد فقد توجد قلة ضئيلة ((شاذة)) من النساء ، لا تدمن التدخين !**

وثمة ظاهرة أخرى هامة ، فى نساء هذه البلاد ، هى أنهن «جميعا» ـ وبلا استثناء ـ يعملن بمجرد تخرجهن من المدارس ، كالرجال سواء بسواء ، وهذا من أسباب زيادة دخل الاسرة وارتفاع مستوى المعيشة الى حد توافر مقومات الترف الحديثة فى أبسط بيت من بيوت عامة الشعب !

على أن الذى أعجبنى فى المرأة السكندنافية على وجه

العموم ، أنها رغم نزولها الى معترك العمل كالرجال ، ورغم استمتاعها بحرية شخصية كاملة لا تقل عن حرية الرجل بحال ، فانها أستطاعت مع ذلك أن تحتفظ بطابع شخصيتها الانثوية كاملا ، فلم « تسترجل » ، أو تهمل فى مظاهر زينتها وأناقتها ، أو تخلط بين حدود دورها فى الحياة والاسرة ، ودور الرجل – (كما تفعل المرأة التى تعمل ، فى بعض البلاد الحديثة العهد بحرية المرأة !)

وعلى ذكر ارتفاع مستوى المعيشة فى السويد بصفة خاصة ، فان من أسبابه الهامة – بالاضافة الى مشاركة المرأة فى زيادة دخل الاسرة – **اعتناق الشعب لفكرة تحديد النسل ، فان المتوسط المألوف لعدد أبناء الاسرة الواحدة هنا يتراوح بين طفل واحد وطفلين، ولا يزيد عن اثنين الا فى حالات نادرة !**

(ولنا عودة الى بحث هذا الموضوع وسواه ، فى الفصول التالية باذن الله .)

* * *

اكتفى من استرسالى بهذا القدر ، فأنا لم أقصد اليوم أن أحدثك عن السويد أو (ستوكهولم) ، لان موضع هذا الحديث مفروض أن يأتى فى دوره ، بعد الحديث عن تركيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا ، التى سبقت زيارة (سكندينافيا) فى الترتيب الزمنى .. وما هذه الخواطر التى أوردتها – فيما سبق – الا مجرد أفكار غير مرتبة ، من وحى الساعة ، فرضت نفسها على قلمى وأنا أتهيأ للكتابة اليك ، بحكم أننى أعيش فى جوها وتحت تأثيرها فى هذه اللحظات ..

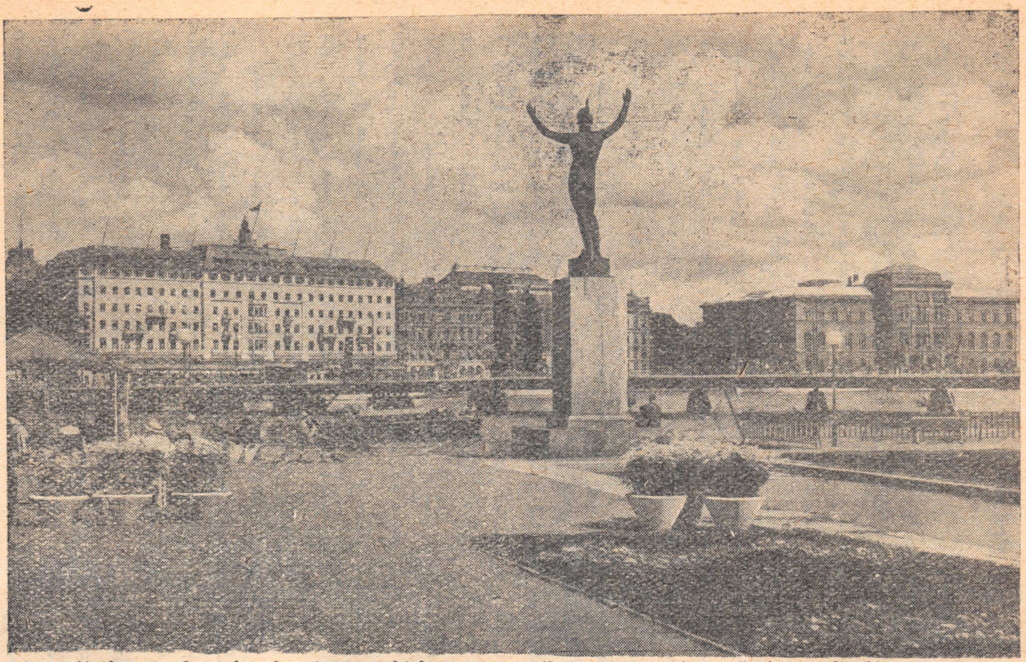
وانما الذى أردت أن أحدثك عنه فى هذه الرسالة ، حدثان أدبيان هامان تعتبر (ستوكهولم) بالنسبة اليهما مركز « اشعاع ذهنى » فى هذه الايام :

أما الحدث الاول فهو منح جائزة « نوبل » السويدية فى

الآداب لهذا العام ، للأديب والشاعر الروسي المعاصر « بوريس باسترناك » . وأنا لا تهمنى هذه الضجة السياسية التى أثارها هذا الحدث الادبى المحض ، ولا العوامل التى دفعت هذا الاديب الى الاعتذار عن قبول الجائزة ، بعد أن رحب بها فى البداية وأبرق بهذا المعنى الى اللجنة الاكاديمية التى قررت استحقاقه لهذه الجائزة .. فمن وجهة نظر هذه اللجنة يعتبر «باسترناك» حاصلا على هذا الشرف،حاملا لهذا «اللقب» — سواء قبل أو رفض — وأغلب الظن أنك حين تقرأ هذه السطور ستكون اللجنة قد قالت كلمتها النهائية فى هذا الموضوع ، فى اجتماعها التقليدى الذى ينتظر أن يعقد فى الاسبوع الاول من ديسمبر ..

أقول أننى لن أحدثك عن هذه الضجة وملابساتها ، وانما الذى يعنينى من الامر كله هو « أدب » هذا الاديب الذى استحق أكبر تقدير أدبى عالمى ، يضعه — الى مدى الدهر — فى مصاف الخالدين ! .. **وسأحاول هنا أن أنقل اليك مقتطفات من أدبه عثرت عليها — مترجمة الى الانجليزية — فى احدى مكتبات ستوكهولم ..** (وفيما عدا هذا الكتاب ، لم أجد طبعة انجليزية لغير كتاب واحد آخر من كتبه ، هو قصة طويلة ضخمة فى نحو أربعمائة صفحة ، لم أقرأها بعد ، وقد أقدمها لك فى عدد قادم) . ولمناسبة منح جائزة « نوبل » لهذا الاديب ، سارعت مكتبات السويد الى وضع صورة مكبرة له فى واجهاتها ، كما أحاطت جميع كتبه المطبوعة بمختلف اللغات ، بحزام عريض سجلت عليه لقبه الجديد : **« الحائز لجائزة نوبل فى الادب لعام ١٩٥٨ »** !

أما الحدث الثانى الذى أثار اهتمام المحافل الادبية فى ستوكهولم ، فهو الاحتفال منذ أيام — يوم ٢٠ نوفمبر الجارى — فى « دار الكتب » الملكية بالمدينة ، بالذكرى المئوية لمولد الاديبة السويدية ذائعة الصيت « سلما لاجرلوف » — التى فازت



متحف (ستوكهولم) وفندق جراند هوتيل ، يطلان على بحر البلطيق ، وفى الوسط ، أحد التماثيل الرائعة التى تزين كل ميادين ستوكهولم

هى الاخرى بجائزة نوبل فى الآداب لعام ١٩٠٩ ـ وقد أقيم فى الدار لهذه المناسبة معرض كبير لمؤلفاتها ، بجميع اللغات الحية ، الى جانب نماذج من مخطوطاتها ، وصور لها فى مختلف مراحل حياتها ، وصور للبيئات والمنازل التى قضت حياتها فى محيطها .. ونماذج من قصاصات الصحف التى تحدثت عنها ، واعلانات المسارح التى مثلت رواياتها على خشبتها ـ ومنها دار أوبرا (ميلانو) الايطالية ـ ومناظر من الافلام السينمائية التى اقتبست من قصصها، (وأشهرها قصة « جوستا برلنج » التى صنعت مجدها الادبى ، والتى ترجمت الى مختلف اللغات ، واقتبست للمسرح والسينما فى مختلف البلاد) .. **وقد كانت مفاجأة لى أن رأيت بين الصور المعروضة فى هذا المعرض ، صورتان من مصر ، احداهما تمثل معبد الكرنك ، والاخرى تمثل النيل كما يبدو من شرفة فندق (كاتاراكت) فى أسوان** . واستنتجت من الصورتين انهما لابد قد التقطتا أثناء زيارة الاديبة السويدية للأقصر وأسوان ، لكننى لم أستطع التأكد من صحة هذا الاستنتاج، لاننى لم أجد فى المعرض شخصا يتكلم الانجليزية ، لاسأله ويجيبنى .. وهى صعوبة يصادفها الغريب فى ستوكهولم ، فى كثير من المناسبات، على العكس مما تؤكده نشرات شركات السياحة من أن اللغة الانجليزية « اجبارية » فى جميع مدارس السويد !

ولمناسبة مشكلة اللغة ، أذكر أنى صادفت صعوبة كبيرة فى تفهم محتويات المعرض ، فان شرح جميع الصور مكتوب باللغة السويدية وحدها ، وحتى النشرة التى تباع لزائرى المعرض عن محتوياته، والتى تحوى بعض المعلومات عن الاديبة الكبيرة ، مكتوبة باللغة السويدية فحسب ! .. وقد اضطرنى ذلك ـ حين أردت الكتابة عن « سلما لاجرلوف » ـ الى البحث فى جميع مكتبات ستوكهولم عن كتاب بالانجليزية عن حياتها ، لكننى لم أجد بغيتى الا فى مكتبة جامعة (أوبسالا)

العريقة ، التى تبعد عن العاصمة السويدية أكثر من ساعة بالقطار !

شاعر روسيا الاول

• **والآن**،تعال معى نحاول ارتياد أدب «بوريس باسترناك»، ثم معرفة شىء عن حياته .. و « باسترناك » شاعر قبل أن يكون ناثرا ، وهو فى نظر أكثر النقاد الاوربيين شاعر روسيا الاول فى هذا القرن ! .. فلنستمع اليه يصدح فى قصيدة قصيرة كتبها فى عام ١٩١٨ تحت عنوان :

القطيعة !

ان البيانو ، وهو يرتجف ، سوف يلفظ الزبد من شفتيه
والجنون،الخبل، سوف يصرعك !.. وأنت، خائر الاوصال،
سوف تهمس : « يا حبيبى ! » ، لكنى سأصرخ فيك :
« كلا ، ماهذا ؟ أفى حضرة الموسيقى ؟ ! »
لم يعد بيننا من القربى شىء .. البتة !
وكما يحدث حين يخبو ضوء النهار فى الغسق ..
وحين تلقى أوتار القيثارة الى النار المتلظية فى المدفأة ..
أو تخفق الذكريات من قلب مفكرة عام،وعامين،وثلاثة ..
أواه أيها الروح الخارق للطبيعة ، أومىء ، أومىء برأسك الى أسفل
انك سوف تدهش . أنظر ! .. انك حر !
اننى لا أمسكك . اذهب ، نعم ، اذهب الى أى مكان
انك حسنا تفعل لو ذهبت .
فان قصة « فرتر » لا يمكن أن تكتب ثانية
وفى أيامنا هذه تفوح رائحة الموت فى الهواء
وان تفتح نافذة ، فكأنك تقطع شريانا !

يعشق الموسيقى والقانون .. ثم الفلسفة !

• **وبعد** هذا النموذج من شعر الشاعر ، فلنتعرف على الشاعر نفسه :

ولد « بوريس باسترناك » فى موسكو عام ١٨٩٠ ، وكان الابن الاكبر للرسام « ليونيد باسترناك » والموسيقية « روزا كوفمان » ــ **وهكذا نرى انه ورث الفن فى دمه من كل من أبيه وأمه !** ــ وبعد أن أتم دراسته الاعدادية التحق بجامعة موسكو ليدرس القانون . وكان فى تلك المرحلة الباكرة من حياته قد شغف بالموسيقى والتلحين ، لكنه ــ رغم محاولات أستاذه « سكريابين » ــ لم يلبث أن تمرد على دراسة كل من الموسيقى والقانون ، ليشرع فى دراسة الفلسفة !.. وبالفعل ، اتخذ الخطوات الايجابية لتنفيذ قراره فسافر الى ألمانيا حيث التحق بجامعة (ماربورج) ، وتتلمذ على البروفيسور « كوهين » . وبقى فى ألمانيا الى ماقبل نشوب الحرب العالمية الاولى بفترة وجيزة . وقبل عودته الى روسيا زار ايطاليا ، وأعجب بها .

وحين نشبت الحرب العالمية الاولى ، عمل فى مصنع بمنطقة جبال (الاورال) .. فلما قامت الثورة واستولى البلاشفة على الحكم عين موظفا فى مكتبة قوميسيرية التربية والتعليم . ومنذ ذلك التاريخ عاش أكثر أعوامه فى موسكو .

« باسترناك » الشاعر

• **وقد** بدأ « باسترناك » نشاطه الادبى فى عام ١٩١٢ . وخلال الاعوام الثلاثة التالية نظم ديوانه الاول : « توأمان بين السحب » . وفى المدة من عام ١٩١٤ ــ ١٩١٦ أصدر ديوانه الثانى : « فوق الحواجز » . وكل من الديوانين ــ اللذين نظمافى العهد القيصرى ــ يظهر بوضوح أنه كان قد انفصل ذهنيا عن ذلك العهد القيصرى قبل أن تنشب الثورة الشيوعية .



بوريس باسترناك
الاديب الذى استحق أكبر تقدير أدبى عالمى يضعه فى مصاف الخالدين

وفى عام ١٩١٧ نظم « باسترناك » أهم دواوينه : « أختى، الحياة » ، لكنه لم ينشر الا فى عام ١٩٢٢ . وفى عام ١٩٢٣ تلاه ديوان « بحوث وفروق » .. وفى عام ١٩٢٧ : « الملازم شميدت » و « سنة ١٩٠٥ » .. وفى عام ١٩٣٢ : « سبكتورسكى » و « الميلاد الثانى » . وفى عام ١٩٤٢ أصدر ديوانا بعنوان « فى القطارات الباكرة » ، جمع فيه قصائده التى نظمها خلال الاعوام من ١٩٣٦ الى ١٩٤١ . وكان آخر عهده بنظم الشعر فى عام ١٩٤٣ ، حين نشرت آخر قصائده. ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية أخلد الى شبه عزلة أو اعتزال ، بحكم فتور العلاقات بينه وبين السلطات الحاكمة..

« باسترناك » الناثر

• **أما** فى ميدان النثر فقد بدأ « باسترناك » محاولاته فى عام ١٩١٥ ، لكن المجموعة الاولى من قصصه لم تنشر الا بعد عشرة أعوام ، (فى عام ١٩٢٥) . وفى عام ١٩٢٢ كتب بحثا عن آرائه فى الفن . وفى عام ١٩٣١ نشر قصة حياته بقلمه ، وقد أطلق عليها : « مسلك آمن » .

أما قصته الكبرى الطويلة التى أشرت اليها فى بداية حديثى عنه ، فلم يعرف بعد متى كتبها – لانها لم تنشر بالروسية حتى اليوم ، بسبب انتقادها لبعض أحداث الثورة البلشفية – ولكنها ترجمت الى الانجليزية فى الصيف الماضى ، كما تحتل طبعاتها السويدية والنرويجية واجهات المكتبات هنا فى كل مكان . وهم ينطقون اسمها هنا : « دكتور شيفاجو » ، ولو انها تكتب بالحروف اللاتينية هكذا Zhivago ، أى « زيفاجو » ، ولا أدرى كيف تنطق بالروسية . وبطلها طبيب وشاعر ، متزوج ورب أسرة ، كانت أحلام اصلاح المجتمع الروسى تضطرم فى نفسه قبل نشوب ثورة عام ١٩١٧ .. فلما نشبت ، باركها ، وراح يرقبها معجبا وهى تجتث جذور الفساد من المجتمع الذى نخره سوس القيصرية .. لكن الطبيب الشاعر لم يلبث أن اختلف مع السلطات الحاكمة فى بعض وجهات النظر ، فأخذ أسرته وهاجر من موسكو فى طريقه الى جبال الاورال .. **وهنا تقع حوادث كثيرة متشعبة تفرق بينه وبين زوجته وأولاده ، فيواجه المستقبل بعيدا عنهم ، قلقا عليهم . ويزيد حالته النفسية سوءا وقوعه فى هوى حسناء شابة .. وهكذا ، تحت وطأة جميع هذه الاحداث مجتمعة ، يصاب الرجل بانهيار نفسانى !**

على أن هذا ليس تلخيصا ولا عرضا للقصة ، فهى كما أشرت تقع فى نحو أربعمائة وسبعين صفحة من القطع الكبير ،

(أى نحو ثمانمائة صفحة من حجم كتابى) ؛ وأحداثها تدور فى نطاق واسع — من حيث الزمان والمكان — بحيث تشغل مساحات شاسعة من روسيا ، وتستغرق فترة طويلة من الزمان تبلغ نحو خمسين عاما .. ويشبهها النقاد من هذه الناحية ، ومن حيث تعدد شخصياتها ، وكثرة أبطالها ، بقصة تولستوى الخالدة : « الحرب والسلام » . التى تدور حوادثها فى عصر غزو نابليون لروسيا (وقد سبق أن قدمت لك عرضا لها فى العدد ٦١ من « كتابى »)

خير من ترجم « شكسبير » !

• **على** أن نشاط « باسترناك » الادبى لم يقتصر على شعره ونثره الاصيلين ، بل تعداهما الى ترجمة الكثير من الاعمال الادبية الاجنبية الى اللغة الروسية ؛ فلقد كرس باسترناك جانبا كبيرا من وقته وموهبته الادبية لترجمة شعر « جوته » الالمانى ، و « فيرلين » الفرنسى ، كما ترجم قصائد لشعراء المدرسة « التعبيرية » الالمان — أمثال « كلايست » ، و « هارفيخ » — وفى عام ١٩٣٥ ظهرت له ترجمة رائعة لاشعار غنائية قوقازية من نظم « جروشيا » .. وحين هجر « باسترناك » موسكو الى معتزله فى (الاورال) ، حيث وصف نفسه بأنه عاش « مقطوع الصلة بالعالم الخارجى » ، عكف على ترجمة بعض مسرحيات شكسبير ، فأنجز منها : « هاملت » ، و « روميو وجولييت » ، و « أنطونى وكليوباترة » . وقد وصف ناقد الملحق الادبى لجريدة (التايمز) الانجليزية هذه الترجمات بأنها « **أروع ترجمات لشكسبير — على كثرة ما ترجم من أعماله — فلقد أفلح « باسترناك » فى أن ينقل الى الروسية عمق ونعومة لغة شكسبير الاصلية !** » .. كما وصفها البروفيسور « موروزوف » — الحجة فى فن الترجمة — بقوله : « ان ترجمة باسترناك لـ « روميو وجولييت » لهى عمل خارق ،

من حيث نفاذه الى أعماق شعر شكسبير من جهة ،واحتفاظه بالطابع العاطفى المثير للمسرحية من الجهة الاخرى ! »

وفى عام ١٩٤٤ نشر باسترناك فى صحيفة (زناميا) أول ترجمات له من شعر « شيللى » ، مع تعليق صرح فيه بأنه اكتشف تشابها بين شعر كل من « شيللى » و « بلوك » !

أسرة (كتابى) ساهرة على ملاحقة ركب الثقافة !

• (**بعد** أن كتبت القسم السابق من هذا المقال وأرسلته للطبع ، اطلعت على المقال الذى كتبه الزميل الاستاذ فرج جبران عن « باسترناك » للعدد السابق من كتابى ، ومن حسن الحظ أن كلانا تعرض للأديب الكبير من ناحية مختلفة ،وهكذا ترى أن أسرة (كتابى) تتعاون ـ وتتنافس ! ـ على امدادك بأحدث أصداء الحركة الثقافية والادبية فى العالم ، سواء من القاهرة .. أو ستوكهولم ! .. وسأراعى فيما يلى من حديثى عن « باسترناك » ان ابتعد عن النواحى التى تعرض لها الزميل العزيز .)

ومن ثم ، دعنى أقدم لك فيما يلى نماذج ومقتطفات من أدب « باسترناك » النثرى التحليلى ، فى قصته الرائعة« طفولة لوفرز » .. وهو يتابع فيها تحليل نفسية بطلة القصة « زينيا لوفرز » منذ صباها حتى طرقت عتبة طور المراهقة ، كما يصور تأثر نفسية الابناء والبنات بتصرفات والديهم ، وانعكاسات مسلك الاخرين على هذه النفسية ، تصويرا يبلغ حد الاعجاز .. تصويرا لم يرتفع الى مستواه حتى « تشارلس ديكنز » نفسه فى « دافيد كوبرفيلد » .. كما سترى :

— ١ —

ولدت « زينيا لوفرز » وشبت فى مدينة (بيرم) . وكما

كانت لعبها ودماها فى البداية ، كذلك صارت ذكرياتها فيما بعد، غارقة فى جو جلود الدببة الخشنة التى تملأ البيت .. فقد كان والدها مديرا لاحد المناجم ، فكان له عملاء كثيرون من أصحاب المدابغ وتجار الجلود .

وكانت الاسرة تقضى أشهر الصيف فى منزل ريفى على الضفة البعيدة لنهر (كاما) . وفى تلك الايام كانت« زينيا » ترسل الى فراشها فى ساعة مبكرة ، فلم يكن يتاح لها أن ترى أنوار مصانع (موتوفيليخا) ، ولكن أحيانا كانت القطة التى تلازمها فى مخدعها تفزع أثناء نومها فتنتفض بحدة ، لسبب ما ، فكانت توقظ « زينيا » . عندئذ كانت الصبية ترى « الكبار » فى الشرفة ، وقد ظللتهم شجرة الجوز الكثيفةالتى تنعكس عليها أضواء قوس قزح فتكسبها لون الحبر . **وكان « الشاى » الذى فى أقداح الكبار أحمر اللون .. والاوراق التى يتداولونها فى أيديهم صفراء .. والمائدة التى يجلسون اليها خضراء . انه كان أشبه ب « كابوس » بالنسبة للصبية، لكنه كابوس له اسم عرفته «زينيا» ..انهم كانوا يلعبون الورق!**

. . . . . .

. . . . . .

وفى الصباح كفت « زينيا » عن أن تكون الطفلة التى كانتها فى الليلة الماضية . فللمرة الاولى فى حياتها خطر لها أن هناك أشياء تخفيها الطبيعة فلا تبوح بها الا لاولئك الذين يعرفون كيف يصيحون ويفرضون العقاب.. يدخنون ويغلقون الابواب بالمفاتيح ! .. وللمرة الاولى لم تصرح الصبية بكل أفكارها ، بل احتفظت لنفسها بكل ماحسبته جوهريا، ضروريا، ومزعجا!

★ ★ ★

ومرت الاعوام ..

وكان الاطفال منذ مولدهم قد ألفوا غياب أبيهم ، فترات

متعـددة وطويلة ، بحيث أصبحت الابوة فى نظرهم مرادفة للاستمتاع بهذا النوع الخاص من الحقوق : الحق فى الحضور للغداء ، فيما ندر .. وعدم حضـور العشاء على الاطلاق ! وهكذا كثرت وتعاقبت المرات التى صار الصبية فيها يأكلون ويتشاجرون ، ويشربون ويأكلون ، فى حجـرات خالية تماما من الاهل ! .. ولم تستطع الدروس الفاترة التى تلقنهم اياها مربيتهم الانجليزية ، أن تملأ فراغ الام التى كان وجودها يملأ البيت بذلك العذاب العذب الذى تفرضه حدتها وعنادها ، الشبيهين بتيار الكهرباء !

وفى هذه المناسبات كان ضوء النهار الهادىء يفيض من خلال الستائر ، لكنه لا يبتسم !.. وخزانة أدوات المائدة المصنوعة من خشب البلوط تزداد شيخوخة .. وأدوات المائدة الفضية ترقد فى أماكنهـا أكواما ثقيلة ، صـارمة .. ويدا المربيـة الانجليزية ، المغسولتان بماء « اللافندر » المعطر ، تتحركان فوق غطاء المائدة . انهـا لم تعط أحـدا من الصبية يوما أقل من نصيبه المألوف ، وكان لها رصيد من الصبر لاينفد ، كما كانت شرعة الانصاف فيها طبيعية لاريب فيها ، مثلما كانت غرفتها وكتبها على الدوام نظيفة ومرتبة . وكانت الخادم ـ اذا ما أحضرت طبقا من الاطعمة ـ تنتظر فى حجرة المائدة ، فلا تمضى الى المطبخ الا لتحضر الطبق التالى . وهكذا كان كل شىء مريحا ، داعيا للسرور والبهجة .. لكن كل شىء كان مع ذلك كئيبا ، حزينا !

وكانت الصبية قد عانت سنوات من الشك والوحشة .. من الشعور بالاثم .. بحيث كان يبدو لها أحيانا أن لا شىء فى حياتها سوف ينصلح أو يتحسن ، بسبب سوء خلقها ، وعدم توبتها .. وانها تستحق كل مايصيبها ! .. وفى هذه الاثناء ـ ولو ان هذا لم ينفذ قط الى ادراك الاطفال ـ كان كيانهم كله ، على العكس ، يرتجف ويختمر فيه هياج الغضب

والحيرة من مسلك أبويهم معهم حين يـكونان فى البيت ، أو بالاحرى حين يدخلان «المنزل» ، لا حين يعودان الى «البيت»!

و نكات أبيهم النادرة ، كانت عادة تنتهى بالاسى ، وتجىء غير ملائمة .. فى غير محلها ! .. وكان هو يحس ذلك منهم، ويشعر أنهم يحسونه بدورهم ، ومن ثم كان تعبير من البلبلة الحزينة يقيم فى قسمات وجهه ، لايبرحها ! .. وحين يثور، أو يغدو حاد الطبع ، كان يمسى بمثـابة شخص غريب عن البيت تماما . والغريب لايحرك المشاعر ! .. أما الصبية فلم يجيبوه يوما جوابا وقحا !

على أن النقد الذى كان ينبعث من حجرة الصغار ، ويعبر عن نفسه فى عيونهم ، فى صمت ، لم يحدث أى صـدى فى نفسه . لقد فشل فى أن يلحظه ! .. وبقـدر ما كان الوالد الثائر ، الحاد الطبع ، يشـعرهم بأنه غريب .. فان هـذا الوالد بعينه ، فى أطوار شخصيته الاخرى ، غـير المفهومة ، غير المغلوبة على أمرها ، شخصيته المثـيرة للاشـفاق ، كان يبعث فى نفوسهم الرعب.. فى نفس الصبية أكثر من الصبى !

أما أمهما فكانت تحير الابن والابنة على السواء ! .. كانت تمطرهما بالقبلات ، وتهيل عليهما الهدايا ، وتقضى معهمـا الساعات ، فى الوقت الذى يكون وجودها أمرا غـير مرغوب فيه .. وفى الوقت الذى تسحق فيه ضمائرهما الصبيانية، باشعارهمـا أنهمـا لا يستحقـان النعم التى تغدقهما عليهما .. وهكذا كانا يعجزان عن التعرف على نفسيهما فى أسمـاء التدليل التى تريقها عليهما بغريزتها ، دون رعاية أو اهتمام ! .. وفى المرات التى يغمر فيها السلام النادر العذب نفسيهما، فيشعران انهما ليسا مجرمين البتة، ويزايلهما التكتم والسرية التى تأنف من أن يكتشف أمرها ، فى هذه اللحظات كانا يريان أمهما كأنها امرأة غريبة عنهما ، تتجنبهما ما وسعها ، وتغضب وتثور دون ماسبب !

ويصل ساعى البريد ، ويحمل الصبى والصبية الخطاب الى المرسل اليها ـ أمهما ـ فتتناوله منهما دون أن تشكرهما . « اذهبا الى حجرتكما ! » .. ويصفق الباب .. فيعودان مطأطئى الرأس الى غرفتهما ، مطلقين العنان ليأس حائر لا نهائى ، يغمر روحيهما !.. وفى البداية كانا يستسلمان على الاثر للبكاء .. ثم ، بعد شجار ضار يفوق المألوف ، كان يستولى عليهما لون من الخوف .. ولكن بمرور الاعوام، تطور هذا الخوف الى بغض ، بل عداء محرق صارت جذوره تزداد عمقا فى نفسيهما يوما بعد يوم !

تلك كانت ظروف نشأة الصبيين . على أن والديهما لم يلحظا ذلك ، **فان هناك قليلين ـ حتى بين الكبار ! ـ من يفهمون العوامل التى تربط بين القلوب . وكما تجف أغصان الشجرة التى يهمل أمرها ، كذلك النفس البشرية .. فلكى لا تتخلف فى النفس أغصان ميتة ، أو يعوق نموها عائق ، ولكى يصبح الانسان عاجزا عن أن يخلط عقله الضيق بثمرات ذاته الخالدة ، توجد اشياء لابد منها كى تبعد فضوله الرخيص عن طريق الحياة ، التى لاتحب أن تعمل وتؤدى رسالتها فى حضوره ، وعلى مرأى منه ! .. ومن هنا جاءت جميع الاديان الموقرة .. ومن هنا جاء ذلك العلم الطريف الذكى المتألق : علم النفس !**

ولم يعد الصبيان بعد فى مرحلة الصبا . وكانت أفكار العقاب والثواب ، والجزاء والعدالة ، قد نفذت الى نفسيهما وشتتت حواسهما ، تاركة للحياة أن تفعل فيهما كل ما تراه ضروريا ، جوهريا ، وجميلا .

— ٢ —

• **وذات** يوم ، فى نوبة رقة عاطفية حمقاء من جانب « مدام لوفرز » نحو أولادها ، وبخت المربية فى حدة ، من أجل مسألة تافهة لا أهمية لها البتة . وعلى الاثر اختفت المربية ! .. ولم

يمض وقت حتى استعيض عنها بأخرى فرنسية ، نحيلة مريضة ــ أشبه بالذبابة ــ ومكروهة من الجميع .

(ثم يمضي « باسترناك » فيروى كيف بدأ العداء بين الفتاة ومربيتها الفرنسية بحادث سخيف تافه ، حين نسيت « زينيا » اسم المربية فى البداية ، فعنفتها هذه بشدة ، وعاقبتها بتصرف صبياني ! .. ثم يصل بعد صفحات الى تحليل مشاعر الفتاة المراهقة حين فعلت بها الطبيعة ما رأته « ضروريا ، وجوهريا ، وجميلا » ، قبل أن تتنبه أمها الى واجبها فتكاشف ابنتها بأولى حقائق الانوثة الباكرة) :

وبدا للفتاة أن كل الناس سوف يصيحون فى وجهها ، وانها لابد ستعانى صداعا مستمرا ، ولن تستطيع أن تفهم بعد الآن تلك الصفحة من كتاب حياتها الرائع التى اختلطت معالمها أمام ناظريها فى غباء ، كما تختلط سطور كتاب مدرسى أمام ناظرى التلميذ بعد العشاء !

ومد اليوم رواق ساعاته الطويلة الرهيبة . وكانت أمها فى الخارج ، لكنها لم تحس أسفا لذلك ، بل لعلها تصورت أنها سعيدة لغياب أمها ! .. ومضت زينيا الى فراشها ، وفى البداية فكرت فى أن تتناول المقص فتقص به المواضع التى لوثتها بقع الدم .. لكنها قررت أخيرا أن تستخدم مسحوق « بودرة » المربية الفرنسية كى تبيض به البقع ! .. وكانت ما تزال ممسكة بعلبة المسحوق فى يدها حين دخلت المربية ، فصفعتها .. وصاحت بأعلى صوتها : « انها تدهن وجهها بالمساحيق . لم يكن ينقصها الا هذا ! الآن فهمت كل شىء ، بعد أن لاحظته وارتبت فيه طويلا ! »

وانخرطت « زينيا » فى البكاء ، لانها قد صفعت ، ووبخت ، وأهينت .. ولانها ، وهى تعلم أنها بريئة من الجريمة التى نسبتها اليها المربية ، **تعلم أيضا ــ وتحس ــ أنها مذنبة ، ذنبا آخر يفوق كل شكوك المربية ! .. وأنها لتحس أيضا**

احساسا حثيثا ، فى شىء من الذهول - (تحسه فى صدغيها، وفى ركبتيها !) - ان من الضرورى ، المحتوم ، اخفاء هذا الذنب .. دون أن تدرى كيف ، أو لماذا .. كل ماتدريه ان لا بد من هذا الاخفاء ، من أى سبيل ، وبأى ثمن !

وأحست فى مفاصلها بحركة موجعة ، كالتى يعانيها المنوم مغناطيسيا حين يعترض تنويمه عائق يوقظه ! وكان هذا الشعور المضنى ، الشبيه بآلام النزع ، من فعل تلك العملية العضوية التى أخفت عن الفتاة مغزى ماحدث لها . وبينما هى ذاتها المذنبة الحقيقية ، جعلتها ترى فى نزيفها خطيئة مزرية بغيضة !

وعادت المربية تصرخ فى وجهها ، اذ أنكرت التهمة الاولى التى واجهتها بها : « كاذبة ! » .. لكنها قنعت - مضطرة - بمجرد الانكار ، كى تخفى - فى عناد - ماهو أمر وأنكى . انها لتقف فى منتصف الطريق بين عار الجهل وعار التعرض لفضيحة شائنة فى الطرقات !

وارتجفت وصكت أسنانها، وهى تختنق نشيجها، وضغطت جسمها ازاء الحائط . انها لا تقوى على أن تقذف بنفسها الى النهر ، لان مياهه مازالت باردة ، وبقايا الثلوج العائمة ماتزال تسبح على صفحته ..

ولم تسمع الفتاة ولا المربية جرس الباب فى الوقت المناسب، لفرط انفعالهما المتبادل .. فلما دخلت الام ، كان أوان التراجع قد فات .. فقد وجدت ابنتها غارقة فى دموعها ، والمربية متوردة الوجه بحمرة الخجل والارتباك ! .. وطلبت الام ايضاحا ، فأوضحت المربية فى خشونة : « ان ابنتك تدهن وجهها بالمساحيق ، ولقد لاحظت ذلك وارتبت فيه منذ وقت طويل .. ! »

ولم تدعها الام تتم عبارتها .. **وكان ذعرها صادقا ، فان الفتاة لم تكمل الثالثة عشرة بعد ! .. وهتفت بابنتها :**

« زينيا ! .. أنت ؟ .. يا الهى ، الى أية هاوية انحدرت ؟ ! .. زينيا ، كاشفينى بالحقيقة : ماذا كنت تفعلين بهذا ؟ »..
وأمسكت بـ « هذا الشيء » ولوحت به فى الهواء ..

ـ ماما ، لاتصدقى الآنسة . انى قط لم ..

وانخرطت فى البكاء .. لكن الام سمعت من خلال الدموع أصداء شريرة ـ لم يكن لها فى الحقيقة وجود ـ فقد أحست انها هى الملومة ، وعانت ذعرا داخليا أليما ، فحدثت نفسهـا بأن من المحتوم أن تعالج كل شيء ، حتى لو كان مما يتعارض مع غريزة الامومة أن « تلجأ الى اجراءات تعليمية وعملية ! » .. وقررت أن لا تستسلم لنداء الرأفة ، فآثرت أن تنتظر حتى يجف معين هذه الدموع التى جرحتها جرحا عميقا ...

وجلست على حافة الفراش ، تحدق فى هدوء ـ وبنصرات جوفاء ـ فى حافة رف الكتب ، وقد انبعثت من اعطافهارائحة عطر غال نفاذ .. فلما هدأ انفعال الفتاة ، بدأت تستجوبها ثانية . وكانت « زينيـــا » ترنو الى خارج النـــافذة بعينين خضلهما الدمع ، وتنشج بين الحين والحين نشيجا مكتوما .. والجليد فى الخارج يتساقط ، محدثا فى ســقوطه أصـــواتا خافتة .. ونجمة تتوامض فى صفحة السماء . وكانت هناك الظلمة الوعرة لليلة الباردة ، الخاوية ، اليتيمة من النجوم ..

أطلت « زينيا » من النافذة الى بعيد .. وفى نبرات صوت أمها سمعت تهديد من قد نفد صبرها ، بينما وقفت المربية الفرنسية بازاء الحائط فى صرامة المعلمة ، وقد استقرت يدها على شريط ساعتها . ومرة أخرى استدارت « زينيا » نحو النجوم .. والنهر ! **واستقر عزمها على قرار .. وبرغم البرد ، وبرغم الثلج ، ألقت بنفسها الى الخضم . باحت لامها بكل شيء ! فقدت نفسها فى خضم كلماتها ، الرهيبة ، المرتبكة ..!**

وتركتها أمها تتكلم الى النهاية ، من فرط دهشتهاللحرارة التى لونت بها الصبية « اعترافها » ! وغدا كل شيء واضحا

من الكلمة الاولى . كلا ، من اللحظة التى نهلت فيها الصبية جرعة عميقة من الهواء قبل أن تستهل قصتها . وأصغت الام، وقد اختلج كيانها بانفعال من الحب والحنان نحو الجسد الرقيق . ودت لو تلقى بنفسها على عنق ابنتها وتترك لدموعها العنان . ولكن .. هل نسيت رسالتها التعليمية ؟.. **ونهضت من على الفراش ، ودعت ابنتها الى أحضانها ، وبدأت تربت على رأسها فى بطء ، ورقة .. وانهمرت الكلمات من فمها كالسيل** : « لقد كنت دائما طفلة طيبة.. » . ودون ماضجيج اتجهت الى النافذة وأعطت ظهرها لابنتها وللمربية . لكن « زينيا » لم تر المربية ، فان دموعها غامت على عينيها . وسمعت أمها تسأل : « من التى ترتب الفراش ؟ » . وبدا السؤال غير ذى معنى . لكن الفتاة ارتجفت . ثم صافح سمعها سيل من الكلمات الفرنسية ، غير المفهومة لها . كانت المرأتان تتراشقان الكلمات فى حدة وغضب .. ثم استدارت الام مرة أخرى تخاطب ابنتها بلهجة مغايرة : « زينيا ، يا طفلتى ، اذهبى الى غرفة المائدة ، وسأوافيك فيها بعد لحظات . سوف أحدثك عن البيت الريفى الجميل الذى استأجرناه لك خلال فترة الصيف .. لك ولابيك ! »

وفى الصباح التالى صارحتها أمها بما ينبغى أن تفعل حين يحدث لها ((هذا الشىء)) مرة أخرى . انه لا شىء . ينبغى أن لاتنزعج منه البتة ، فانه سوف يتكرر كثيرا !

ثم أضافت الام انها منذ اليوم سوف تعد دروس ابنتها بنفسها ، لانها لن تبتعد عن أسرتها مرة أخرى !

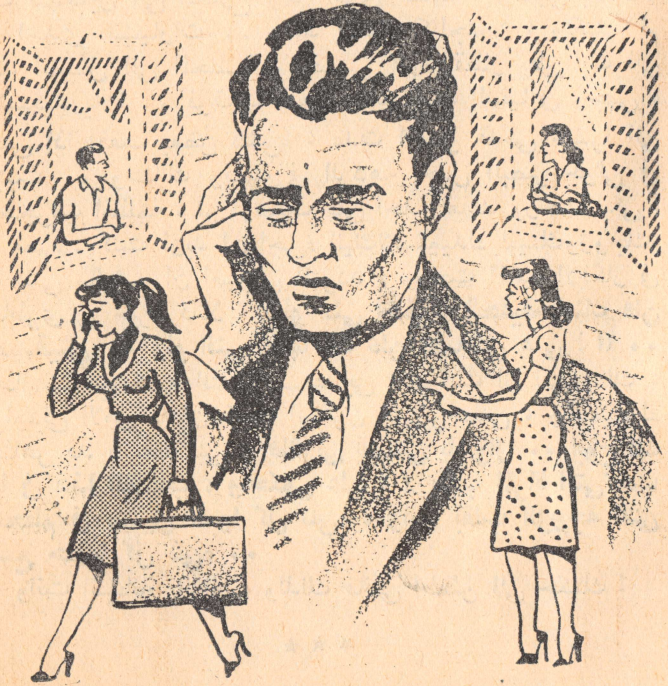
وبعد ، فانى أحسب حديثى عن « باسترناك » قد طال أكثر مما قدرت .. فلندع حديث « سلما لاجرلوف » الى الرسالة التالية باذن الله .

ستوكهولم فى ٢٥ نوفمبر **حلمى مراد**

دعى لى .. حبى الأول !

قصة مصرية بقلم:

زكى شنودة المحامى



كنت أريد أن أجيء اليك يا «نوال» ، كى أزيل من نفسك ذلك الغضب الذى عبثا حاولت أن أكبح جماحه فى تلك الليلة التعيسة ، وأنا أحاول أن أبرىء نفسى أمامك .. لكم كنت عنيفة معى ، فلم تتركى لى فرصة أوضح لك فيها أمر ذلك الخطاب ـ الذى عثرت عليه فى جيبى ـ ورحت ترميننى بأقسى نعوت الخيانة والغدر ، وتصرخين فى وجهى وتبكين .. ويداك تخرجان ملابسك وتدفعان بها الى الحقيبة . ثم اذا بك تندفعين الى الخارج وأنا أجرى خلفك ، وتلقين بنفسك فى احدى السيارات .. ولقد تبعتك كالمجنون ، ولكننى لم أكد أصل الى المحطة ، حتى كان القطار يطير بك الى الاسكندرية ! .. فوقفت ذاهلا وقد غامت الدنيا فى وجهى ، حتى اذا أفقت بعض الشىء ، عدت أجر قدمى جرا الى البيت .. وهنالك وقفت فى الردهة أجيل البصر حولى فى الحجرات المظلمة ، ثم ارتميت على أحد المقاعد ورحت أبكى !

نعم .. كنت أريد أن أجيء اليك لاستعيدك لبيتك وزوجك ، الا أننى مالبثت أن أصابنى التردد ، ورحت أقلب الافكار فى خاطرى فى حيرة قائلا : **((لو أننى أخفيت الحقيقة عنك فلن تصدقينى .. ولو أننى قلتها لك فلن تصفحى عنى !)) ..** وطال ـ مع كثرة التفكير ـ عذابى ، فرأيت أن أكتب لك ، يراودنى الامل فى أن قلبك الحنون قد يرحمنى ، وضميرك الطاهر قد يصفح عنى . **فاقرئى قصتى يا نوال .. أبوح لك بها فى هذا الخطاب ، واحكمى على ، لا بقلب المرأة التى تحب وتحطم فى سبيل حبها كل شىء ، وانما بقلب الزوجة التى يسع حلمها كل شىء ..**

وأنت انسانة يانوال ، ولذلك فاننى أطمئن الى حكمك !

* * *

كان ذلك يا « نوال » منذ سنوات ، حين كنت أقيم مع أهلى فى (حلوان) ، وكنت ما أزال طالبا فى كلية الطب . ومع أننى كنت نحيف البنية ، أعانى ضعفا مستمرا ، الا أننى كنت طالبا مجتهدا ، أقصر وقتى كله على الدرس .. وقد أفردت لى حجرة ، كنت أقضى فيها كل أوقاتى . وكانت حياتى تسير على منوال واحد لاتغيير فيه .. حتى كان يوم من أيام أبريل التى تهب فيها أنفاس الربيع ، وقد استيقظت مع الفجر الباكر لابدأ استذكارى ، فما ان فتحت النافذة المطلة على الشارع ، حتى فوجئت بشيء جديد اضطربت له نفسى .. **اذ طالعنى فى النافذة المقابلة لنافذتى ، وجه فتاة جميلة الصورة ، غضة العود ، لا تتجاوز السابعة عشرة من عمرها .. فما لمحتنى حتى شاعت حمرة الخجل فى محياها الناصع البياض ، وانطلقت الى الداخل مسرعة !** .. وما لبثت أن عرفت أنها الساكنة الجديدة للمنزل المقابل ، وأنها وفدت مع أمها الى (حلوان) بعد فجيعتها فى أبيها . وكان فى وجهها مخايل براءة ودلائل نعمة ، فلا يحسبها الناظر اليها الا طفلة مدللة .

وأنت تعلمين يا نوال ما يحدث بين شاب فى مقتبل العمر وفتاة صغيرة نافذتها تواجه نافذته .. فقد استيقظ القلبان الصغيران ، وغرقت أنا فى تلك النشوة السحرية التى سرت فى كيانى ، فجعلتنى أهيم فى عالم آخر كأنه الفردوس . ولم أطق أن تكون فاتنتى بعيدة عن ناظرى لحظة واحدة ، فجعلت مكتبى تجاه نافذتها ، ورحت أستمد من عينيها الضاحكتين قوة عجيبة أواصل بها دراستى .

أما هى فقد هزتها هذه التجربة الاولى فى حياتها هزا عنيفا ، وكأنها مستها يد سحرية جعلت كيانها كله يستحيل الى نور وهناء . وكم كان قلبى يختلج فى عجب ممتزج

بالبهجة حين أفتح نافذتى مع أول خيط من خيوط الفجر فأراها واقفة تنتظرنى ، حتى اذا رأتنى تهللت عيناها بالفرح، وتراقصت على فمها ابتسامة سعادة غامرة ، كأنها كانت تنبثق من ينبوع صدرها الذى كان يروح ينخفض ويعلو .. ثم اذا بها تنفلت الى الداخل، كأنما تذكرت شيئا .. ثم لاتلبث أن تعود .. وهكذا تظل اليوم كله لا عمل لها ، ولا شاغل يشغلها ، الا ذلك الفتى الذى كان يسعدها النظر اليه وتراه سعيدا بالنظر اليها !

وظللنا هكذا يا نوال ، نتبادل هذا الحب البرىء الطاهر الذى يجد أقصى سعادته فيه،فى نظرة حالمة أو بسمة حانية ، فلا يطمع فى مزيد ! .. وظلت هكذا حالنا سنة كاملة ، لم نتبادل فيها كلمة ، ولا اتفقنا فيها على لقاء .. بل أننا كنا نتقابل بعض الاحيان عفوا فى الطريق ، فكان يبدو عليها الارتباك ، وكنت أبادر أنا — كى أعفيها من ارتباكها — الى الابتعاد عنها ، وان راح قلبى يرفرف كالطائر الحبيس يريد أن ينطلق اليها !

ولو لم يحدث ما حدث ، لكان حبى لكوثر قد مر فى حياتى دون أن يترك أكثر من ذكرى لطيفة ناعمة ، كتلك التى يتركها فى نفوس الناس ما يمر بهم من العواطف البكر فى مطلع شبابهم ! .. ولكن تعاسة حظى أبت الا أن تخلق من هذه الذكرى اللطيفة مأساة فاجعة ، ظللت حياتى بسحابة قاتمة من الشقاء .. ذلك الشقاء الذى حاولت أن أخفيه عنك يا نوال ، وحاولت أن أجعل حبك لى يدفعه عن حياتى كما تدفع نسمات الفجر كتل الضباب ..

وكانت الفاجعة فى شهر أبريل .. فى ذات الشهر الذى سعدت فيه برؤية « كوثر » ، قبل عام ..

كنا نقف فى نافذتينا كعادتنا ، وكل منا غارق فى عينى الآخر . واذا بنا نسمع جلبة فى شرفة المنزل المجاور لمنزلها ،

حتى اذا التفتنا ناحيتها ، وجدنا رجلا كهلا يتفحص ما حواليه ، شأن الساكن وهو يتفحص منزله الجديد . ثم ما لبثت أن تبعته سيدة ممتلئة الجسم ، بدا واضحا أنها زوجته . وقد راحت هي الاخرى تتطلع حواليها وتبدى سرورها ، ثم ارتدا الى الداخل . **وما أن تواريا ، حتى اندفعت الى الشرفة – فى حركة صاخبة – فتاة هيفاء العود ، سمراء البشرة ، فى نحو العشرين من عمرها ، ذات شعر حالك السواد مسترسل – فى ثورة – على كتفيها ، وعينين دعجاوين راحت تتفرس بهما كل ما حولها فى جرأة ونهم عجيبين ، وعلى فمها ابتسامة ظافرة ! ..**

ووقعت عيناها أول ما وقعتا على كوثر ، ثم اذا بهما تتحولان – فى لمحة سريعة – الى ناحيتى . وظلت تحدق فى عينى فترة طويلة ، وقد ازدادت ابتسامتها اتساعا . فما أدارت وجهها الى الناحية الاخرى ، حتى وجدتنى أحول بصرى سريعا الى كوثر ، لارى وجهها أبيض مثل الثلج . وما أن التقت عيوننا حتى استدارت فجأة ، وانطلقت الى الداخل مسرعة ، وكأنما أصابها سهم قاتل ! .. ولست أدرى لماذا شعرت اذ ذاك برغبة مفاجئة فى البكاء .. وران على قلبى شىء ثقيل آلمنى ، مع أننى لم أكن قد أدركت بعد – فى وضوح – حقيقة ما حدث . ثم ألقيت نفسى على مقعد بجانبى .. **وما لبث الامر أن اتضح لذهنى .. كانت الغيرة قد فتحت نافذتها فجأة ، وأغمدت سهمها فى قلب صغيرتى ، التى لم تكن قد عرفت الحب حتى الآن الا بريئا صافيا ! ..** وحينئذ شعرت بالكراهية نحو تلك الجارة الجديدة التى اقتحمت دنيانا السعيدة وأرادت أن تعكر صفو حبى .

وقمت على الفور – كأنما يدفعنى مارد غاضب فى داخلى – فأغلقت النافذة فى عنف أمام السمراء الجريئة ، وجلست الى مكتبى ، وتناولت كتابا من كتب الدراسة ، ورحت أحملق

فى سطوره بعينين زائغتين . الا أننى ما لبثت أن طويته فى ضيق ، وقمت فاستلقيت على السرير ، ورحت أتقلب عليه كأنما أصابتنى الحمى . وان هى الا دقائق حتى ضقت بالسرير كذلك ، وشعرت بالرغبة فى مغادرة البيت والانطلاق فى الصحراء ، كى أهرب من هذا الشعور بالضيق ، الذى كان يضغط على صدرى .. غير أننى لم أكد أرتدى ملابسى ، حتى سمعت أبى ينادينى .. **وأسقط فى يدى ، وشعرت بقبضة تضغط على قلبى ، اذ كنت أعلم أن والدى كان يجلس — فى تلك اللحظة — فى الشرفة المقابلة لشرفة الساكنة الجديدة ، وخفت أن ترانى كوثر هناك فيزداد ألمها ، بل ربمـا تسرب الشك اليها فى اخلاصى لحبها** . ولكنى لم أجد مندوحة عن أن ألبى نداء والدى ، فلما ذهبت اليه ، طلب منى أن أقرأ له موضوعا فى احدى الصحف ، لان القراءة كانت تتعب عينيه فى ذلك الحين . فتناولت الصحيفة من يده فى سكون .

وكان يجلس موليا ظهره شطر البيت المقابل ، فاضطررت الى أن أجلس ووجهى نحو شرفة الجارة الطائشة . وكانت هى — فى ذلك الوقت — قد أغاظها ما حدث منى ، حين أغلقت النافذة فى وجهها ، فاذا الغيظ قد ألهب رغبتها فى أن تغزو قلبى وتنتصر على عنادى ، وقد أدركت بغريزة المرأة أن الفتاة التى رأتها تناجينى بعينيها فى المنزل المجاور ، كانت غريمة لها ، فأبت — من أول ساعة لسكناها — الا أن تعلن الحرب عليها وتنتزع منها فتاها .. **ورحت — وأنا منهمك فى قراءة الصحيفة لأبى — أردد النظر الواجف نحوها ، وهى جالسة فى مواجهتى ، ثم أعود فأرد الطرف نحو نافذة حبيبتى ، وقلبى ينتفض خوفا من أن تعود فترانا على هذا الحال** .. ورحت أسرع فى القراءة عسى أن ينتهى الموضوع الذى أراده أبى ، الا أن الوقت راح يمضى ويمضى .. وأثناء ذلك ، سمعت طرقة عالية فى الشرفة المقـابلة ، فالتفت الى هناك ، فاذا السـمراء

اللعوب تتصنع الوقوع عن مقعدها .. حتى اذا رأتنى أنظر ناحيتها ، اعتدلت فجأة ، وراحت تضحك ضحكا عاليا . **وفى هذه اللحظة رأيت كوثر فى نافذتها تنظر الينا ، وترى السمراء تضحك لى عندما سمعت ضجتها . وأدرت بصرى اليها !** .. وحينئذ كدت من غير وعى أنتصب على قدمى وأصيح قائلا : « كوثر .. ! » . ولكنها كانت قد أغلقت النافذة فى عنف ! .. وشعرت بدوار ينتابنى ، فكدت أسقط من على المقعد ، بينما سمعت ضحكة مجلجلة تخترق أذنى ، وتطعننى فى قلبى .. وكانت هذه ضحكة السمراء القاسية !

وشعرت كأنما الدم الذى فى عروقى هرب كله ، وأسدلت على عينى سحابة كالليل ، فما عدت أرى الاسطر ولا الكلمات التى أقرأها فى الصحيفة .. وشعر أبى — فى هذه اللحظة — بأن شيئا ما قد طرأ على ، فنظر الى وجهى ، ثم هتف منزعجا : « مالك يا بنى ؟ .. ان وجهك أصفر ، فهل تكون القراءة قد أتعبتك ؟ » . ثم نهض فى اضطراب قائلا : « قم استرح فى فراشك ، فانى لاخشى أن تكون علة القلب قد اشتدت عليك ! »

ولكنى لم أسترح فى فراشى ، بل غادرت البيت منطلقا الى كثبان الرمل الممتدة خلف المدينة ، حيث همت على وجهى ، وفى صدرى عاصفة هوجاء ، اذ احتدم فيه الجزع من الالم الذى تعانيه حبيبتى ، مختلطا بالغيظ من تلك الماجنة التى أساءت اليها ووخزت بنصل الغيرة قلبها .. **وشعرت بذلك الحب الناعم اللذيذ — الذى كان يعيش مطمئنا فى قلبى — وقد استحال فجأة الى حب عاصف يهدر بالالم المرير !** .. وتوقفت عن السير وسط الرمال ، ورحت أهتف باسم حبيبتى .. ثم انطلقت راجعا أجرى فى ذهول !

* * *

وجلست فى تلك الليلة الى مكتبى تجاه نافذتها المغلقة ،

أحملق فى الظلام الذى يكتنفها ، والامل يراود قلبى — فى كل لحظة — أن تدفع جبيبتى مصراعى النافذة ، فترد الى جسدى الروح التى سلبتها منى .. ولكن انتظارى طال دون جدوى ، فقضيت الليل كله لم أغادر مكانى ، ولم أغلق نافذتى، ولم تطف بى سنة من النوم حتى الصباح .. **فلما رأيت أول خيط من خيوطه ، راح الامل يتجدد فى قلبى ، وقلت لعلها لا تطيل غضبها منى وخصامها لى ، فتفاجئنى فى الفجر كعادتها بطلعتها الفاتنة وابتسامتها التى أسعدت أيامى** .. ولكن ساعات النهار مضت ، دون أن تفتح النافذة .. بل مضت الايام وعيناى لا تبارحان تلك النافذة الحبيبة ، وهى مغلقة فى وجهى ، وقد استحال ألمى وبكائى الى ذهول صامت لم أعد أدرى معه شيئا مما يدور حولى ، وقد هجرت كتبى وعلومى.

حتى كانت صبيحة يوم من الايام التالية ، اذ فتحت نافذة غرفتى ، فأذهلتنى مفاجأة جديدة .. **رأيت نافذة كوثر مفتوحة !** .. ولكنها لم تكن واقفة بجوارها . فدق قلبى دقا عنيفا ، وكدت أصيح من الفرح ، وشعرت بدمائى تنساب فى عروقى بعد أن كانت هاربة ، وكأنما أشرقت الشمس لاول مرة أمام عينى بعد ليل طويل .. ورحت أنتظر حبيبتى فى قلق يكاد يحطم أعصابى ، وقد اعتزمت هذه المرة أن أخاطبها باسمها ، وأن أكلمها ، وأن أثبت لها براءتى من كل ما حدث .. بل أن أبعث اليها بقبلة فى الهواء تمسح على قلبها المجروح ، وتزيل كل أثر من الغضب فى نفسها ! .. **وفيما أنا غارق فى تلك الخواطر ، اذا بى أراها مقبلة من الداخل ، ومتجهة نحو النافذة ، فكاد قلبى أن يقفز من مكانه . واندفعت الى النافذة لابدأ فى تنفيذ الخطة التى رسمتها للقائها** .. فما كدت أفتح فمى لاهتف باسمها حتى رأيتها تغلق مصراعا واحدا من النافذة وتقف خلفه . وحينئذ جمد الصوت فى حلقى ، ووقفت مبهور الانفاس ، حائرا ، لا أدرى ماذا أفعل .

وفى هذه اللحظة شاءت لى تعاسة حظى أن التفت الى شرفة البيت المحاذى لبيتنا ، فرأيت شابا فى مقتبل العمر ، جميل الطلعة ، بادى الفتوة ، ينظر الى ناحية نافذتها ويبتسم .. فلم أدر ما حدث لى ، وكل ما شعرت به فى تلك اللحظة ، أن شيئا فى داخلى قد تحطم وتهاوى ! .. فما دار بخلدى يوما ما أن تخـون كوثر حبى ، وان تطردنى من جنة حبها !

وأدركت أنها فعلت ذلك لتنتقم منى ، ولكننى كنت بريئا فهى اذن قد ظلمتنى ، فهى اذن التى تستحق الانتقام ولست أنا . ولكن ، واعجبى ! .. لقد حاولت أن أوحى الي قلبى بأن يكرهها ، فرفض كل الرفض ، وأبى الا أن يحترق وهو يهتف بحبها .. واذا بى أجدنى أتسلل الى السرير وأتهاوى عليه ، وأنا أزفر قائلا : « آه يا كوثر.. ؟ » . وهنالك رقدت فريسة الحمى عدة أيام وقد اشتدت بى علة القلب ، حتى اذا تنبهت ـ فى مرة من المرات ـ شعرت بباب حجرتى يفتح .. **واذا بأختى تدخل ـ ومعها الجارة الســمراء ـ قائلة لى : « لقد سمعت صديقتى سلوى أنك مريض ، فجاءت لتطمئن عليك » . فأدركت أن الماكرة عرفت كيف توثق الروابط بينها وبين أختى !**

ولم تكن ضاحكة فى هذه المرة ، وانما كان فى عينيها بريق غريب ، يمتزج فيه الاشفاق بالتشفى ، وكأنما كانت عالمة بكل ماحدث لى وبكل مايدور فى رأسى ، ثم قالت لى بلهجة خلتها تنطوى على سخرية لاذعة : **« لقد سمعت من أختك أن قلبك مريض فلماذا تكلفه بما لا يطيق ؟ »** . فقلت لهـا أرد على سخريتها : « ليس الذنب ذنبه ! » . فأجابتنى وقد استعادت ابتسامتها الجريئة : « اذن لماذا تظلمه وتجرى وراء الذى يتعبه ؟ » . ولم أجد ردا أرد به عليها .. اذ اختلط الامر فى رأسى ، فلم أعد أدرى من هو المذنب فى هذا الامر كله : أهى

سلوى بجرأتها ، أم كوثر بقسوتها ، أم أنا بهذه الثورة العاتية عليهما كليهما ؟

وراحت سلوى تزورنى كل يوم – بعد ذلك – وتملأ جو غرفتى بمرحها ومزاحها ، وهى ما تفتأ تصوب نحوى نظراتها الجريئة ، وتداعبنى بعباراتها الساخرة ، ثم تنشر حولى عبير عاطفة فيها حرارة وفيها حنان . **ومع ذلك فانها ما كانت تخرج من عندى ، حتى كنت أتسلل الى النافذة ، فأرى كوثر واقفة وراء مصراع النافذة ، وأرى الشاب جالسا قبالتها ، فتعتصر قلبى يد قاسية .. وأعود الى السرير مهموما محزونا !**

وقد حدث أن كانت سلوى فى حجرتى ذات يوم ، وطلبت منى كتابا تقرأه ، فقمت أنتقى لها أحد كتبى .. واذ لاحظت هى وهنى وتضعضعى ، أمسكت باحدى يديها يدى ، ووضعت الاخرى على ظهرى .. فلما أصبحنا أمام النافذة ، لمحت كوثر مقبلة .. وما أن رأتنا على هذا الحال ، حتى امتقع لونها واستدارت – فى الحال – وعادت مسرعة . وحينئذ شعرت بشىء غريب .. شعرت بسعادة تغمر قلبى دفعة واحدة ، وبلذة تسيطر على كيانى كله وتدغدغه .. وأدركت أن هذه هى لذة الانتقام أو لذة التعذيب ! .. **كان قلبى لا يزال على حبه لها ، ولكنه وجد لذته – مع ذلك – فى أن يعذبها !**

ومن ذلك اليوم بدأت أجلس مع سلوى الى جانب النافذة ، وأبهج قلبى بايلام كوثر وادماء قلبها ! .. الا أنها أدركت – فيما يبدو – غايتى ، فأغلقت نافذتها مرة أخرى ولم تعد تفتحها ، فحرمتنى حتى من هذه اللذة التى كانت تنبثق كينبوع ماء فى صحراء محرقة ! .. وعادت النار تلهب قلبى مرة أخرى . وعبثا حاولت أن أحول عاطفته الى سلوى ، لارحمه من هذا الجحيم الذى يتلظى فيه . ولكنه كان كالمؤمن المتعصب الذى يتحمل أقسى ألوان العذاب ولا يتحول عن ايمانه ! .. ومضت بضعة أيام أخرى .. واذ كنت فى احدى



الامسيات جالسا فى الشرفة ومعى سلوى ، وقد انصرفت أختى الى بعض شأنها فى المنزل ، رأيت النور من خلال نافذة كوثر ، ثم اذا بها تفتح النافذة وتلتفت الى ناحيتنا .. ولمحت بريق عينيها خلال ظلمة الشارع . **وفى هذه اللحظة ، قفزت الى ذهنى فكرة جنونية ، فجذبت سلوى الى الجزء الذى يسطع فيه نور الحجرة من الشرفة ، وضممتها بشدة الى صدرى وقبلتها ! ..** وعندئذ رن فى أذنى صوت غلق النافذة بشدة ، فتركت سلوى - وهى ذاهلة مما حدث - والتفت ناحية النافذة المغلقة ، وقد اختفت كوثر خلفها . فغمرت قلبى لذة وحشية وشعرت بالنار المشتعلة فيه تنطفىء كلها ويحل محلها احساس الارض العطشى حين تنسكب فجأة فوقها السيول

ومرت دقيقة واحدة .. واذا بصرخة تمزق الليل . وحدثنى قلبى ، فاذا بى أندفع كالمجنون - حافى القدمين - الى باب المنزل ، أطوى درجات السلم فى طرفة عين ، ثم أجرى - فى الشارع - الى باب المنزل المقابل ، وأصعد درجاته ، وأهجم هجوما على المسكن الواقع فى الدور الثانى . **وهنالك فى الردهة ، رأيت كوثر تقف ذاهلة ، والنار تشتعل فى كل جسمها .. وأمها تخرج من احدى الحجرات منفوشة الشعر ، وفى يدها رداء ثقيل تلقيه عليها وتلفها به ، فلم يبق باديا الا وجهها وهى تنظر ناحيتى بعينين زائغتين ! ..** ولكن النار امتدت الى شعرها ، فاندفعت الام الى أقرب غطاء منها ،

ولفت به الرأس أيضا .. وقد حدث كل ذلك في لحظة خاطفة ، وقفت فيها جامدا ، كمن نزلت عليه صاعقة ، ثم ما لبثت أن صرخت : « كوثر .. ! »

وفطنت أمها - اذ ذاك - الى وجودى ، فالتفتت نحوى . وقبل أن تنطق بكلمة واحدة كنت قد اندفعت الى داخل البيت ، فعرفت في الحال قصدى ، وجرت خلفى فلم تلحق بي الا في المطبخ وعلبة الكبريت في يدى ، فقبضت على جسمى بذراعين قويتين ، وقالت لى : « ماذا تريد أن تفعل بنفسك أنت الآخر ؟ » .. ثم دفعتنى الى الردهة وقالت لى : «أطلب الاسعاف ! » . فانطلقت الى الخارج ، وكان السكان الآخرون في هذه اللحظة قد أقبلوا مهرولين ، ولكننى كنت قد عميت، فلم أميز منهم أحدا ، لولا أن والدى وأخى حملانى حملا الى البيت . حتى اذا وصلا اليه ، أرقدانى على السرير . **فقفزت منه واندفعت الى المطبخ ، وأمسكت مرة أخرى بعلبة الكبريت ، لولا أن لحقا بى مع أمى وبقية اخوتى ، فرحت احاول - بكل قوتى وأعصابى - أن أفلت منهم ، وهم بين الاشفاق على ضعفى ، والخوف مما أريد أن أصنع بنفسى !**

وظللنا على هذه الحال طويلا ، حتى اذا عرفوا أن قوتى قد انهارت ابتعدوا عنى ، وحينئذ سقطت على الارض كما يسقط المقتول ، وغبت عن الدنيا ! .. ومضى الليل كله ، حتى اذا أفقت مع الصباح ، وجدت أهلى كلهم بجوارى ، والطبيب يحدق في وجهى، وزجاجات الحقن منثورة حولى. وحينئذ بذلت بعض الجهد في استعادة انتباهى وذاكرتى . وما لبثت أن صرخت وأنا أهم بالنهوض قائلا : « كوثر ! كوثر ! » . فانحنى أبى على وهو يقول في ضراعة وحنان : **« أرجوك يابنى أن تهدأ ، فانك في خطر ، واقل حركة ستقتلك .. وكن مطمئنا على كوثر ، فقد أخذوها الى دار الاسعاف ، ولا بد أنها ستعود بعد أيام ! »**

وقال الطبيب لابى ، وهو يتأهب للانصراف ، وعلى وجهه أمارات الخطورة : « ان حالته تستدعى الراحه التامة عدة شهور ، فان القلب يعانى أزمة لا ينجيه منها الا الله ! » .

وخرج ، فرحت أقول لابى : « **أتوسل اليكم أن تأخذونى اليها . فلم يعد الامر سرا ، ولم أعد أخجل أمامكم منه .. اننى أحبها ، وأنا الذى قتلتها ، فهل تكونون قساة على لدرجة أنكم تمنعوننى من رؤيتها ؟!»** .. فقال لى أبى : « نحن لا نمنعك قسوة عليك يابنى ، وانما رحمة بشبابك . فان ذهابك معناه موتك .. أيرضيك يابنى أن تقتل نفسك وتقتلنا معك ؟ »

وعند ذلك دفنت رأسى فى الوسادة ، ورحت أبكى بكاء مرا وأتوسل . وكنت اذا أخذ منى الجهد ، أغفيت قليلا .. **واذا بى أتخيل صرخة تمزق الليل ، ونارا مشتعلة ، وكوثر تنظر ناحيتى بعينين زائغتين ، فأصحو صارخا ، وأروح ويداى ممدودتان الى الامام أهتف قائلا : « كوثر !.. كوثر ! »**

فلما جاء المساء ، كنت قد فقدت كل قوتى ، ونمت نوما طويلا ، حتى اذا صحوت وجدت ظلام الليل حالكا ، وما من أحد بجانبى .. فتسللت من السرير ، وفتحت النافذة فى سكون . وحدقت البصر فى ساعتى – على ضوء القمر – فوجدتها الحادية عشرة ، فقلت فى نفسى ان آخر قطار يغادر (حلوان) الى (القاهرة) فى الساعة الثانية عشرة ، فهنالك اذن متسع من الوقت . وأسرعت أرتدي ملابسى على ضوء القمر ، وتسللت من المنزل الى محطة حلوان .. وكان القطار خاليا من الناس ، فوضعت رأسى بين كفى ورحت أبكى ، وأناجي حبيبتى بصوت مرتفع : « قتلتك .. قتلتك ياحبيبتى ! .. أنا مجرم .. أنا قاتل ! .. »

وظللت على هذا الحال، حتى وصل القطار الى القاهرة ، فاندفعت مهرولا .. ولا أدرى كيف وصلت الى دار الاسعاف، انما الذى أدريه هو اننى دخلتها فوجدت موظفا واقفا فى

احدى الحجرات ، فتقدمت اليه وقلت له : « أين المحترقة التي جاءت بالامس من حلوان ؟ » . فأجابني بعدم اكتراث : « لقد ماتت ! »

وعميت عيناي ، وشعرت بطنين في أذني ، وكأنما انطلقت عاصفة من حولي تهدر ، وريحها تطوحني كقصبة منفردة في الصحراء .. وخرجت أتلمس الطريق في ظلمة الليل الحالكة ، وقد شل عقلي ، فلم أدر ما أفعل والى أين أذهب . وانطلقت أسير على غير هدى - كأنما تدفعني ارادة مغناطيسية - ورأسي بينذاك فريسة الحمى ، وقلبي يدق بضربات متقطعة متهافتة ، ولم يعد حولي الا سكون الساعات الاخيرة من الليل .. **واذا بي - بعد حين من الوقت - أبصر النيل أمامي ، وعندئذ هبت كل المشاعر المغمى عليها في داخلي ، وصحت قائلا : « كوثر ! كوثر .. ها أنذا أكفر عن جريمتي ، وأتبعك يا حبيبتي ! .. » . واندفعت الى النيل والقيت بنفسي في مائه !**

ولكن الموت راحة ، وقد كان مكتوبا لي في لوح القدر أيام اخرى من التعاسة والشقاء ، فما لبثت أن فتحت عيني أخيرا ، فرأيت أبي وأمي وأخوتي يحيطون بي ، وعيونهم شديدة الحمرة من كثرة البكاء . ولكنهم لم يكادوا يرونني أعود الى الوعي حتى انفرجت أساريرهم بالفرح ، وقالوا في وقت واحد : « نشكرك يارب ! » .. ولاول مرة في حياتي ، رأيت أبي يبكي ، وهو يقول لي : « ماذا فعلت بنفسك يابني ؟ .. اذا كنت قاسيا الى هذا الحد على نفسك ، فهل يهون عليك أن تقسو على أولئك الذين يحبونك ؟ » .. فقلت له : **« لم أعد أستحق دموعك ياأبي ، ولا حبكم جميعا ، فقد قتلت فتاة بريئة ، وأنا الآن في عداد المجرمين ، وأستحق القصاص .. وقد وقعته على نفسي ! »** . فقال لي : « لاتقل ذلك يابني ، فانني لا أعرف قصتك مع هذه الفتاة ، ولا ما حدث بينكما ،

ولكنك لا تملك ان تحكم على نفسك ، وانما عليك أن تترك ذلك لله الذى هو الحاكم العادل ! .. ولولا ذلك الرجل الشهم الذى أنقذك من الغرق ، لكنت قد ارتكبت جريمة أخرى بقتل نفسك .. آه ، لو تعلم يا بنى ما كابدناه فى هذين اليومين ! .. وها قد لطف الله بنا وبك فأنقذك .. **الا أن الطبيب قد قرر عدم خروجك من هذا المستشفى قبل أسبوعين ، لان حالة القلب أصبحت فى غاية الخطورة وأى حركة تعرضك للموت .. »**

وبعد برهة ، ودعونى وقبلونى جميعا وذهبوا .. وفى هذه اللحظة وحدها ، أدركت أننى حقا فى مستشفى ، وقد قدر لى أن أقضى أسبوعين كاملين فى هذا السكون المخيف .. الا أننى ما طاف هذا الخاطر فى ذهنى حتى دوت فى الحجرة المجاورة صرخة ملتاع روعه موت عزيز له ، فقفز قلبى ، وكاد ينخلع من ضلوعى ، وانحدر سيل دموعى ، ورحت أولول فى صوت مكبوت ، وأنا أهتف قائلا : « كوثر ! .. كوثر ! » . وظللت أردد اسمها وأنا بين الاغماء والافاقة .. ومنذ تلك الساعة ، راحت الايام والليالى تتوالى ، وأنا لا أحس الا أطيافا تقبل نحوى ثم تغيب ، ولهيب الحمى بينذاك يحرق جسمى وروحى ، فما أفيق لحظة حتى ترتسم أمامى صورة النار تلتهم حبيبتى ، وظللت أتعذب ، حتى نقلت الى دارى أخيرا !

* * *

وما **ان** بلغت حجرتى — فى دارنا — وخطوت فيها خطوتين مستندا الى كتف والدى ، حتى تحول بصرى — خلال النافذة — الى نافذة حبيبتى . **ووجدتها مفتوحة ، وأم كوثر واقفة فى وسط الحجرة . ثم مالبثت أن استدارت ودلفت الى الداخل ، فنظرت لابى ، وقلت له : « أرجو — ان كنت تريد أن تريح قلبى بعض الشىء — أن تذهب بى الى أم كوثر ، وتتركنى عندها دقائق قليلة ! »** . واستجاب والدى لرغبتى ،

فتقدم أهلى وأعانونى على بلوغ الدور الثانى من بيتها ثم تركونى لاطرق الباب وحدى . وما لبثت أم كوثر أن فتحت الباب لى ، فما رأتنى حتى تولتها الدهشة قليلا ، ثم دعتنى الى الدخول . وجلست أمامها فى الردهة .. وانعقد لسانى فلم أدر ماذا أقول لها ، ولكنها مالبثت ان أعفتنى من حيرتى وارتباكى . وقالت لى فى صوت هادىء رصين : **((أعرف أنك كنت تحب كوثر ، وأعرف أنها كانت تبادلك هذا الحب ، وقد ظلت سعيدة به سنة كاملة . ولكنى لا ادرى ما الذى حدث ـ فى الشهر الاخير ـ فجعلها دائمة البكاء ، لا تكاد تنام بالليل، ولا تكاد تأكل أو تشرب بالنهار ، ثم ما لبثت أن أشعلت فى نفسها النار . وقد حاولت ألف مرة أن أعرف منها السبب ، ولكنها لاتريد أن تصرح لى به حتى اليوم ! ..))**

فصرخت قائلا : **((حتى اليوم .. اذن فهى حية ؟))**

فقالت : **((نعم .. حية !)) .**

وعندئذ أحسست فيضا جارفا من الشعور ينهمر فى صدرى ، واجتاحتنى موجة عاتية من الفرح القاتل ، وتملكتنى ـ وياللعجب ! ـ نوبة عنيفة من البكاء ، واندفعت الى السيدة الفاضلة أقبل يديها وأقول لها فى ضراعة : ((خذينى اليها الآن .. خذينى اليها !)) .. ثم اندفعت الى باب المسكن صائحا : ((أبى .. أبى .. ان كوثر حية .. انها حية ! ..))

وسرعان ما كنا فى سيارة انطلقت بنا الى المستشفى . **وهنالك ـ فى حجرة بيضاء ـ رأيت حبيبة الروح مستلقية على السرير ، وقد التف جسمها كله بالاربطة البيضاء ، ماعدا عينيها اللتين كانتا تبدوان كعينى راهبة فى براءتهما وأساهما !** فجريت نحوها ، ورحت فاقد الشعور أقبلها وأبلل بدموعى وجهها ، وأصيح باكيا : ((آه يا كوثر ، يا حبيبتى ! .. سامحينى ! اغفرى لى ! أصفحى عنى .. لم أكن أريد من دنياى الا أن أحتفظ بحبك ، فأخطأت ، وها أنذا أعود تائبا



مستغفرا !.. وقد كنت أحسب أنى فقدتك ، فصممت على أن أتبعك .. ولكن ها أنذا بعدطول العذاب أجيء اليك ، فأجدك ، وأستعيدك ، وأحبك وأعبدك !.. أنت حبيبتى يا كوثر .. بل منذ اليوم زوجتى ! .. » .

وهنا نظر الى أبى ، وقلت له: «أليس كذلك يا أبى ؟»، فقال: « نعم يابنى » .. ونظرت الى السيدة ، وقلت لها : « أتقبلين ياسيدتى أن أكون زوجا لابنتك ؟ » . فقالت لى : « انى أترك هذا لكوثر »

واذ ذاك ، جثوت على قدمى الى جانب سرير حبيبتى وقلت لها : « قولى يا كوثر أنك مازلت تحبيننى ، وأنك صفحت عنى .. كوثر ، أما زلت غاضبة منى ؟ .. آه ياحبيبتى لو تعلمين كم قاسيت ، وكم بكيت . وكم تمنيت أن أحترق بالنار التى أحرقتك ! .. بل لقد كنت أشعر بهذه النار بالفعل تشوى جسمى ، وتكوى بلهيبها قلبى .. آه ، يا كوثر ! لو أن الله ينقل الاوجاع من جسدك الى جسدى، اذن لكنت أسعد السعداء ، مادمت الى جانبى وحبك بالهناء يغمرنى .. فقولى لى ياحبيبتى ان قلبك صفح عنى .. لا بل ابتسمى فقط لاعرف ذلك ! .. ابتسمى ياكوثر ! أرجوك! أتوسل اليك ! .. »

ومن خلال دموعى ، رأيت عينيها تتألقان ، وقد انبعث منهما بريق ابتسامة وديعة ، فكاد قلبى يطير من الفرح .. ورحت أمطر ضماداتها بقبلاتى ، وأبكى كطفل صغير..وبدت السعادة فى عينيها ، وراح كل منا يرنو الى الاخر كما كنا

نفعل فى أيام حبنا الماضية !

حتى اذا انتهى ميعاد الزيارة ، قمت أودع حبيبتى – وقد غدت الآن خطيبتى – وقلبى يرقص من فرط السعادة !

وظللت أعود كوثر كل يوم ، وهى تلقانى كما كانت تفعل فى أيام صفونا بابتسامتها الحلوة . وما نفتأ نتناجى كعصفورين ضمهما العش بعد طول اشتياق ، ونرسم المستقبل بخيال عروسين سعيدين هائمين فى دنيا الامل والهناء .. وكانت أمها – بينذاك – تضفى علينا حنانها ، وتشاركنا فى نسج خيوط أحلامنا .. **حتى جاء يوم كنا فيه جالسين الى جانب كوثر ، فأقبل الطبيب باسما ، وقال أنه سيرفع الاربطة عنها ، ولها – بعد ذلك – أن تغادر المستشفى . ففرحنا بهذه البشرى أشد الفرح .**

وفى اليوم التالى ، ذهبت الى المستشفى – فى موعد الزيارة – فعلمت أن كوثر نقلت الى منزلها . فعدت مسرعا .. وفى طريقى اشتريت باقة من الزهر الناصع البياض ، واتجهت خافق القلب الى بيت كوثر ، وكأنى عريس يستعد للقاء عروسه . وطرقت الباب .. **وبعد هنيهة ، فتحته لى أم كوثر ، فما نظرت اليها حتى انتابنى الذهول ، اذ رأيت وجهها شديد الاحتقان ، والدموع تجرى من عينيها ، وقد وقفت أمامى مطرقة لاتتكلم لحظة ..** وما لبثت أن قالت لى فى صوت خافت : « تفضل ! » . ولكنها لم تنتقل من مكانها . فغمغمت فى جزع قائلا : « أين كوثر ؟ » .. فقالت لى ، وهى تشير الى أحد المقاعد : « اجلس ! » .. وازداد جزعى ، فقلت لها مرة أخرى : « أين كوثر ؟ » .. واذ ذاك ، انطلقت باكية بصوت مرتفع ، ثم أشارت الى باب مغلق وقالت : **« فى داخل الحجرة .. ولن تراها ! »**

فصحت قائلا : « بأى حق تمنعيننى عن رؤية خطيبتى ؟ »

فقالت فى تخاذل : **« لست أنا الذى أمنعك يابنى .. وانما**

هى التى قررت ألا تراها بعد اليوم ! »

جنون ، ودفعته دفعة قوية ، فاذا به مغلق من الداخل ..

فألقيت طاقة الزهر جانبا ، وهجمت على الباب المغلق فى وصرخت — وأنا أدق الباب بكلتا يدى — قائلا : « كوثر ! كوثر ! .. أحقا هذا ؟ .. ألا تريدين أن أراك بعد اليوم ؟.. أجيبينى يا كوثر ! أحقا ماتقول أمك ؟ ! » .. فلم أتلق جوابا، وانما سمعت صوت بكاء مكبوت . فرحت أدق الباب بجنون وأتضرع اليها ، حتى اذا تضعضعت قواى ، سمعت آخر الامر صوتها فى الناحية الاخرى من الباب تقول لى : « **اذهب .. رافقتك السلامة ! »** .. واذ ذاك ، استدرت الى أمها وقد طار صوابى ، وقلت لها : « ماذا حدث ؟ .. لماذا تغلق الباب على نفسها ، ولماذا تبكى ، ولماذا تريدنى أن أذهب ؟ »

فأخذتنى أمها من يدى وأنا أرتجف من الدهشة والالم ، وأجلستنى الى جانبها على الاريكة — وقد استعادت بعض الشىء هدوءها ووقارها — وقالت لى : « **انها تحبك يابنى اليوم أكثر من كل يوم أحبتك فيه ، ولكنها .. »** . وصمتت مرة أخرى ، ثم انفجرت باكية ، وهى تمسح بكفيها على ركبتيها فى عصبية ويأس .. واصلت حديثها فى أسى :

— ولكنها لم تعد كوثر التى أحببتها ، وانما هى اليوم مخلوقة مشوهة .. وقد أغمى عليها حين صدمتها الحقيقة المروعة ، بعد أن رفع الطبيب الاربطة عنها . حتى اذا أفاقت بعض الشىء ، كان أول ما قالته لى ألا أدعك تراها ، وأنها لن تدع عين انسان تقع عليها بعد اليوم ، وأنها ستعيش بقية عمرها على ذكرى أيام حبك .. !

فحملقت فى وجه السيدة مذهولا ، وقد جمدت أطرافى ، وتوقف تفكيرى ، وهرب الدم من عروقى ، وكأنما صعقنى تيار كهرباء .. واذا السيدة يتولاها الفزع وهى تحملق بدورها فى وجهى ، واذا هى تنطلق مسرعة الى داخل المنزل ..

وبلغنى صوتها ــ وكأنما كان يأتى من عالم آخر ــ وهى تنادى أهلى من النافذة التى شهدت أيام سعادتى وشقائى . وان هى الا لحظات ، حتى أقبل أخى ، ثم تبعه أبى ، وحملانى وأنا بين الحياة والموت الى المنزل .. وسرعان ما كان الطبيب يقف على رأسى ، ويدفع بالحقنة فى ذراعى ، فما سرى ترياقها فى دمى حتى شعرت بانتفاضة يختلج لها جسمى ، واذا بى أصرخ بكل قوتى قائلا : « خذنى يارب ! » . ثم انفجرت فى نوبة بكاء جنونى ، والكل من حولى حيارى !

ومال الطبيب على أبى ، وقال له بضع كلمات ، ثم انصرف . وشعرت بالحمى تفترسنى من جديد ، وراحت أصابع مجنونة تعصر قلبى عصرا وهو يتلوى بينها ويختنق . وغصت فى لجة عميقة من الهذيان ، فما عدت أحس بالحياة من حولى الا كحلم غامض أو كأطياف تتراءى لى بين الغمام . وفى احدى الامسيات فتحت عينى ، فاذا أم كوثر واقفة بجانبى تحدق فى وجهى ، فحسبتنى أحلم وأغمضت عينى .. ولكن كم كانت دهشتى حين أحسست بيدها تمسح على جبينى وسمعت صوتها تقول لى : « كيف حالك الآن يابنى ؟ لقد شغلتنا عليك كل هذه الايام ! .. وكوثر ماتفتأ تصلى من أجلك .. »

فانتفضت جالسا ، كأنما دفعتنى قوة هائلة ، وصرخت قائلا : « كوثر ، كوثر ! .. أتصلين من أجل قاتلك ؟ » .. فأحاطتنى أمها بذراعيها فى حنان وقالت : « لاتقل ذلك يابنى ، فانها ارادة الله ، وقد روت لى كوثر كل شىء .. فليرعكما الله أيها الطفلان ، وليرحم قلبيكما الطاهرين ! .. لقد علمت كوثر بمرضك فجزعت أشد الجزع ، وأرسلتنى لاطمئن عليك قبل انتقالنا من (حلوان) .. » . وصرخت فى جزع : « ماذا ؟ »

فقالت : « نعم يابنى ، فقد استقر عزم كوثر على أن تقضى بقية عمرها فى عزبة المرحوم والدها بالقرب من طنطا ..

وتأكد يابنى أنها تحبك الآن أضعاف ماكانت تحبك من قبل .. الا أننى أتوسل اليك أن تحترم رغبتها فى هجر العالم كله ، فان فى ذلك رحمة بها من الآلام التى لابد أن تعانيها لو أنها عاشت بين الناس بالصورة التى تركتها النار عليها ! »

فأجهشت بالبكاء قائلا : « وكيف أعيش بدونها ؟ .. انها روحى وحياتى ! قولى لها .. أرجوك أن تقولى لها اننى أريدها كما هى .. أريدها بكل مافعلته النار بها .. ان آثار النار فيها هى بصمات حبها ودليل اخلاصها ! »

* * *

وبعد ساعة ، جاءتنى ورقة مطوية من كوثر ، فجلست أقرأها فى لهفة ، فاذا بها تقول لى فيها : **« اذا حاولت أن ترانى فسأقتل نفسى .. وداعا ! »**

وفى اليوم التالى ، علمت أن كوثر قد رحلت مع أمها ، فانطفأت البقية الباقية من الرجاء الذى كان يضىء قلبى ، وانهار جسدى على الفراش كفلول جيش مهزوم ، ولم يعد فى مقدورى أن أفعل شيئا سوى البكاء ، وقد اتشحت نفسى بالسواد ، ولبست روحى ثوب الحداد ، وخفتت دقات قلبى من فرط الوهن حتى خلته سيتوقف .. **ورحت مرة أخرى فى تلك الغيبوبة التى لم يكن يعلم مداها غير الله ، فما كنت أفيق منها وأدرك أن كوثر قد ذهبت الى الابد ، وأننى لم أعد أعرف مكان وجودها ، حتى ينتابنى اليأس ويقتلنى الاسى .**

وانقضت أسابيع لم أعرف فيها طعم النوم ، وأنا أتقلب على فراش المرض كمن يتقلب على الجمر ، وقد اشتد هزالى ، وخبت جذوة روحى ، فأصبحت كالطيف الذى يتراءى للناس فى ظلمة الليل .. وفى صبيحة يوم من أيام الصيف ، جاءنى عامل البريد بخطاب ، ماكدت أفضه حتى رقص قلبى بين جنبى ، اذ تبينت أنه من كوثر .. كانت

تسألنى عن صحتى ، وتقول أنها لم تستطع أن تقاوم شوقها الى رؤيتى ، فلم تجد وسيلة الى تخفيف هذا الشوق الا ان تكتب لى ، وان ترسل عنوانها كي أوافيها بالرد .. فكأنما أعاد هذا الخطاب الروح الى جسدى وأرجع السعادة الى قلبى ، فقمت من سريرى فى نشوة ونشاط . **ورحت أكتب الى حبيبتى والدموع تهطل من عينى ، أصف لها آلامى ، وأبثها أشواقى ، وأعاتبها على هذا القرار الذى اتخذته بأن تدفن نفسها حية وتقتلنى معها ، مؤكدا لها أنها ستظل زوجتى مهما أمعنت فى البعد عنى ، وأننى سأظل وفيا لحبها حتى الموت ! ..** فما انقضى يومان حتى جاءنى منها الرد قائلة لى أن خطابى كان بلسما لجراحها ، وأنه الغذاء الذى عاشت عليه أسعد ساعاتها .. وتوسلت أن أوالى الكتابة لها !

★ ★ ★

وظللنا يا « نوال » نتراسل عشر سنوات .. كم ألححت عليها — فى خلالها — أن ترجع عن قرارها ، وأن تخرج من سجنها ، وأن تأتى لنعيش معا زوجين سعيدين ، لاسيما وأننى كنت — فى هذه الفترة — قد كافحت كفاحا مستميتا كى أتم دراستى ، حتى غدوت طبيبا ، وغدت الحياة مفتوحة الابواب أمامى . **ولكنها رفضت كل الرفض ، وقالت لى انه لم يعد لها فى الدنيا عزاء ولا غذاء غير هذه الخطابات التى تصلها منى ، وهى نصيبها الوحيد فى الحياة !**

وظهرت أنت — بعد ذلك — فى حياتى يا نوال ، وأثرفى قلبك الرحيم ما كنت غارقا فيه من تعاسة وشقاء ، فرحت تشملينني بعطفك ، وتغمرينني بحنانك ، بل أكثر من ذلك يا نوال ، فقد بدأت أرى دلائل الحب فى عينيك ، فلم أجرؤ على البوح لك بمأساة حياتى ، بل لقد رحت أستشعر الراحة بقربك ، والعزاء فى حنانك .. **فتزوجتك ، دون أن أحس بأى تعارض بين**

الاخلاص لكوثر والاخلاص لك ، بل كان اخلاصى لكليكما كلا لا يتجزأ ، ولو جازت عليه التجزئة لقتلنى الشـقاء ! .. وقد كان من دواعى الولاء لهذه العاطفة المزدوجة ، أننى ظللت أكتم عنك الاسى الذى أعانيه يا نوال ، حتى بعد أن تقاسمنا الحياة وأصبحت شريكة أحزانى وأفـراحى . وكنت أنت سمحة الروح فلم تلحى على فى السؤال عن سر ذلك الالم الذى يرتسم على جبينى ، وتنضح به عيناى ، ويفيض على جوانب نفسى .. ولا عن ذلك القلق الذى يجثم فى أعماقى ، وتصـدر عنه كل طبائعى وأخـلاقى .. وانما كنت دائما ــ يا نوال ــ تمسحين بيدك الرفيقة على آلامى ، فى رقة وصمت ، شأن المرأة الكبيرة النفس . حتى كانت تلك الليلة التى ما زلت أذكرها ، اذ كنت جالسا فى غرفة مكتبى ، وقد أغلقت الباب على نفسى أقرأ خطابا من كوثر ، واذا بك تدخلين فجأة ، فأسرعت باخفاء الخطاب فى درج من أدراج المكتب .. واذا بمظاهر الدهشة والتساؤل تتجلى فى عينيك على الفور . **ولكنك أسرعت تخفين تلك الصدمة التى أصابتك ، وتظاهرت بأنك لم تلاحظى شيئا ، وتكلمت معى فى شؤون أخرى ، ثم انصرفت وأنا مدرك كل الادراك أن بذرة الشك قد انغرست فى نفسك ، فقضيت تلك الليلة مؤرقا لا يعرف النوم سبيلا الى جفنى.** وقد كدت أصارحك بالحقيقة كاملة . ولكننى ما لبثت أن ترددت ، ثم أحجمت اشـفاقا عليك من تلك العواطف العنيفة العاصـفة التى شاءت المقادير أن تحرقنى بلهيبها ، والتى آثرت أن أبعد بك عن نارها المحرقة ، لاتلظى بجحيمها وحدى .. ولكنك يا نوال تغيرت بعد ذلك ، ورحت ألحظ أنك كنت تعانين ــ فى سكون ــ من سموم ذلك الشك الذى ما فتىء يترعرع فى نفسك ، وانك كنت تراقبيننى فى الخفاء ، بعينين تغشاهما الريبة ، وتقابليننى بقلق دفين ، حين أعود متأخرا من عيادتى ، أو أغلق على نفسى باب مكتبى . ويعلم

الله أننى كنت أتألم لالمك ، وأتعذب لعذابك . وكان صمتك أقسى على نفسى من أقسى كلامك لو أنك صرخت فى وجهى وألقيت بالتهمة صريحة على مسمعى .. **حتى شاء الله أن تعثرى أخيرا على ذلك الخطاب الاخير فى جيبى ، فاذا بك تنفجرين ذلك الانفجار الذى لم أستطع له دفعا ، واذا بك تفاجئيننى بتلك الثورة العارمة بعد ذلك الصبر الطويل ، ولم تتركى لى فرصة الايضاح أو الافصاح عما طالما أعددته بينى وبين نفسى من قول أدافع به عن نفسى ..**

أما وقد فعلت هذا يا نوال ، فها أنذا قد قصصت لك القصة بحذافيرها ، ورسمت لك كل ألوان العواطف التى أحاطت بمأساتى ، وصبغت بسوادها القاتم حياتى .. فهل ترينني أخطأت يا نوال ، اذ أخفيت عنك حتى اليوم خبر هذا الحب الذى أحرق بلهيبه قلبى ؟ .. وهل أخطأت اذ استمررت أتبادل مع كوثر هذه الخطابات ، التى تقول عنها انها عزاؤها وغذاؤها الوحيدان فى الحياة ؟

قدرى موقفى يا نوال ، واحكمى على ــ كما قلت لك فى أول هذا الخطاب ــ لا بقلب المرأة التى تحب وتحطم فى سبيل حبها كل شىء ، وانما بقلب الزوجة التى يسع حلمها كل شىء . وانا فى انتظار حكمك !



تلخيص : محمد بدر الدين خليل

قصة من الكاتب الذى يأبى أن يقلد سواه

• كان الوسط الذى نشأ فيه قد زعزع ثقته فى الدين والكنيسة، فبدأ يبحث عن اله جديد ·· وتمثله ـ بادىء الأمر ـ فى أبيه الرحيم الحكيم ، فلما مات الأب ، خيل اليه أن روح الاله تقمصت شجرة ·· ولكن الشجرة ماتت هى الأخرى ، فتصور الله فى الأرض ·· الأم الرؤوم التى تغذى الكائنات بخيرها ! ·· ولكن الأرض غلبت على أمرها لما أمسكت السماء عنها أمطارها · فتحول يتمثل الله فى صخرة كستها الأعشاب ، يفيض من حولها نبع فيجرى جدولا ·· ولكن النبع نضب ، وجفت أعشاب الصخرة ، وبدأ يدرك أن فوق كل هذه الآلهة ـ التى اقامها خياله ـ اله أقوى وأعظم ··

انها قصة الانسان الحائر ـ منذ خلقه ـ ازاء ظواهر الكون والقوى المسيطرة عليه ، عرضها « شتاينبك » ـ الذى قدمت لك « مطبوعات كتابى » فى العدد (٢٠) احدى روائعه ـ عرضا مشوقا ، مليئا بالمواقف العاطفية ، والتحليل البديع ·· فتعال نقرأ معا هذه القصة التى تعتبر نوعا فريدا ، مبتكرا ، من كاتب يأبى أن يقلد سواه !

ـــ« ١ »ـــ

• **عندما** نقل محصول الكروم ، والاخشاب الكافية لوقود الشتاء ، تحت وقاء يحميها من طلائع الجليد ، فى مزرعة « واين » القريبة من (بيتسفورد) ، بولاية (فيرمونت) الامريكية ، سار « جوزيف واين » نحو مقعد أبيه ، بجوار المدفأة ـ ذات أصيل ـ ووقف أمامه .. وكان الرجلان متشابهين، وكأنما صيغ وجهاهما من مادة أصلب وأبقى من اللحم .. مادة صخرية لاتتغير بسهولة . وكانت لحية « جوزيف » سوداء ، ناعمة ، لاتزال خفيفة الشعر ، فى حين كانت لحية الشيخ طويلة، بيضاء ، راح يتخللها بأصابعه ، ثم فطن الى وجود ابنه ، فرفع اليه عينين واهنتين ، ولكنهما كانتا خبيرتين ، هادئتين ، شديدتى الزرقة.. ولم تقو عينا الشاب الحادتان ـ اللتان بث فيهما الشباب استطلاعا وفضولا ـ على أن تصمدا

امامهما ، ففض جوزيف بصره وقال فى ذلة : « لن تعود الارض تتسع لنا ياسيدى ! »

وأحكم الشيخ دثاره حول كتفيه ، وقال بصوت رفيق ، خلق لينطق بالعدالة فى أبسط صورها : « ماالذى تبغى أن تشكوه يا جوزيف ؟ » . فأجاب الشاب : « ألم تسمع أن « بنجى » شرع يبحث عن زوجة يا سيدى ؟ .. لسوف يتزوج فى الربيع، فاذا جاء الخريف أنجب طفلا .. وفى الصيف التالى طفلا آخر .. والأرض لا تمتد من تلقاء ذاتها ياسيدى ، ومن ثم فهى لن تتسع لنا ! » .. ففض الشيخ بصره رويدا ، وقال : « لم ينبئنى بنجامين بهذا بعد ؟ .. أبدا لم يكن أهلا للاعتماد عليه . ومع ذلك ففى الارض متسع يا جوزيف . لقد أحضر بيرتون وتوماس زوجتيهما ، وظلت الارض تكفينا . وأنت التالى حسب سنك ، فلا بد لك من زوجة ! »

ـ لكل شيء طاقة ، ولن تطعم الارض كل هؤلاء .

ولمعت عينا الشيخ وسأله : « أفى نفسك حقد على أخوتك يا جوزيف ؟ » . فهتف جوزيف محتجا : « لا يا سيدى .. انما المزرعة صغيرة ، وبى ظمأ الى أن تكون لى أرضى الخاصة .. وقد قرأت عن الغرب ، ورخص أرضه وخصبها .. » . وتنهد الشيخ وهو يعبث بلحيته ، ثم قال : « ليتك تصبر عاما آخر أو اثنين ، فأنت لا تزال فى الخامسة والثلاثين .. انك لست أكبر أبنائى ، ولكنى دائما أميل اليك ، وأوثرك برضائى، فان فيك .. قوة تفوق ما لدى أخوتك .. شيئا غامضا يوحى بالثقة والاعتداد ! »

ـ ولكن الناس تتدفق على الغرب ، ولا يحتاج المرء الى أكثر من أن يقيم فى بقعة عاما ، ويشيد لنفسه دارا ، ويحرث حقلا ، فتصبح الارض له دون منازع .. واخشى أن تنفد الارض الجيدة ، وفى النفس ظمأ الى الارض .. الى أن تكون لى مزرعة خاصة !

وقرأ الشيخ فى عينى ابنه شوقا طاغيا ، فوضع يده على رأسه ، وأخذ يباركه متمتما : « اللهم اسبغ رضاءك ورضائى على هذا الولد ، ودعه يحيا فى فيض من ضياء وجهك ، وحبب اليه حياته ! »

— « ٢ » —

• ورحل جوزيف .. وظل يهيم على غير هدى ، حتى بلغ وادى (نيوسترا سينورا) — أى سيدتنا العذراء — فى كليفورنيا الوسطى ، فأعجب بخضرة الاعشاب، وصفرة القمح ، وصفاء السماء ، فعقد العزم على الاستقرار فيه .. وكان الوادى منخفضا ، ينساب فيه نهر (سان فرانسيسكو) صاخبا ، وتحف به تلال تحميه من البحر — من جانب — ومن الرياح العاتية ، من جانب آخر .. وقد تناثرت أكواخ الهنود الطينية حول كنيسة عتيقة ، متداعية .

وما أن سجل جوزيف ملكية الارض التى اختارها — وكانت مائة وستين فدانا فى أعالى الوادى — حتى انطلق اليها ليقيم جدران بيته عليها ، وهو متحفز مشوق، تومض عيناه ، وتتفتح طاقتا أنفه ليشم عبير التربة فى نهم .. وكانت طريقه تتخلل الغابة — التى كان النهر يجرى عبرها — فخيل اليه أن الافنان المتعانقة ، والخضرة اليانعة، والنهر اللامع وسط ظلمة الغابة .. خيل اليه أن هذه كلها أشياء أليفة لديه ، تحمل معانى التفاؤل .. بل كأنها رموز كتلك التى كان الاقدمون يعبدونها ! .. واذ خطر هذا ببال جوزيف ، غشيته رهبة غامضة ، أخرجه منها فرع شجرة أطاح بقبعته . فلما ترجل ليلتقط القبعة ، جثا على الارض وراح يربتها فى اعزاز .. وشعر بأنه يحبها حبا سيبقى ما بقى فى صدره نفس يتردد ! .. وخيل اليه أن هذه الارض توشك أن تطغى بسحرها على ماضيه ، فحاول أن يقاوم هذا الطغيان بالتفكير فى أبيه وما امتاز به من هدوء

وطمأنينة وتقوى أبدية .. وأدرك أن أباه وهذه الارض البكر سواء ، وهنا أجفل مذعورا ، وهمس لنفسه : « لقد مات .. لا بد أن أبى مات ! »

وخرج به الجواد من الغابة ، فتبع طريقا مهدتها أقدام الحيوانات ، فأفضت به الى ساحة معشوشبة قامت فيها أشجار البلوط .. ثم ضاقت الطريق مرة أخرى ، صاعدة سطح هضبة ، فلما بلغ القمة ، أطل جوزيف على أرضه الجديدة ، وقد أخذت الريح تداعب أعشابها الفطرية .. وعلى ميلين من الهضبة ، أبصر شجرة بلوط ضخمة استقرت خيمته فى ظلالها ، فأحس بحب دافق يسرى فى صدره ، اذ فكر فى أنه صاحب هذه الارض الشاسعة ! .. واشتدت الريح ، وقصف الرعد ، ثم تساقط المطر ، فاهتز قلب جوزيف طربا ، واستعذب القطرات التى انهمرت عليه ، وسار صوب خيمته .. **فلما داناها ، انقشعت السحب ، واطلت الشمس ، فابرقت عينا جوزيف جوعا وحنينا ، وجاشت عواطف السرور بمملكته الجديدة ، وانبطح على الارض فالصق خديه بالاعشاب المبتلة** .. ثم أفاق الى نفسه ، فهتف : « ما الذى دهانى ؟ » .. واستوى جالسا على الارض الموحلة ، وقد خيل اليه أن الارض كانت زوجة له خلال الفترة التى قضاها منبطحا فوقها ، فقال : « آه ، اننى بحاجة الى زوجة ! »

« ٣ »

• **وأقبلت** العربات من المدينة تحمل الاخشاب الى « جوزيف » ليبنى كوخه ، فلما أفرغت العربات الثلاث حمولاتها ، اجتمع « روماس » الحوذى الكهل ، ومساعداه « جوانيتو » و « ويلى » ، حول النار التى أعدها «جوزيف» ، وراحوا يسمرون . وفجاة ، قال جوزيف وهو يعد القهوة : « أرى أن الارض هنا خصبة ، فلم لم يستحوذ عليها أحد من

قبل ؟ » . فأجاب روماس الكهل : « ان سنى الجدب اقفرت البلاد زمنا .. بين سنتى ثمانين وتسعين من القرن الماضي ، جفت الارض ، ونضبت الآبار والعيون ، ونفقت الماشية ، فنزح عن هذه الاصقاع نصف سكانها » . وكان جوزيف ينصت مأخوذا ، فأسرع يقول ، وكأنه ينفر من هذا الحديث : « ولكن المطر عاد يروى الارض ويفيض ! »

ـ أجل ، عاد بعد عشر سنوات .. عاد مدرارا ، فاحتفل به القوم ، وشربوا حتى ثملوا ، ورقصوا حتى تمرغوا فى الوحل ، لولا أن منعهم الاب « أنجليو » من المضى الى أبعد من هذا .. **لقد ظلوا سكارى أسبوعا بأكمله ، وكانوا يخلعون الملابس عن أجسادهم ويأتون المنكرات جهارا .. وقال الاب أنجليو أن انقطاع المطر كان نقمة من الله ، ولكن الهنود قالوا انها ظاهرة تكررت مرتين فى الجيل الماضى ..**

وانصرف جوزيف فى الايام التالية الى انشاء داره .. وفى ذات صباح ، غادر خيمته مبكرا ، وأقبل على العمل ، واذا به يرى « جوانيتو » ـ مساعد الحوذى ـ مقبلا على صهوة جواد . وبادره الشاب الاسمر ، وهو يبسط يده مصافحا : « لقد جئت يا سنيور أرعى أبقارك .. أعلم أنك لاتملك الآن واحدة ، ولكنك لن تلبث أن تحرز قطيعا .. وبوسعى أن أساعدك فى بناء دارك .. لقد عملت راعيا من قبل ، ولكنهم كانوا يبخسوننى أجرى ، اذ كانوا يعتبروننى هنديا ، مع أننى أسبانى .. غير أننى لا أبتغى منك أجرا ، وانما أريدك صديقا ، وسأكتفى بمنحة منك كلما احتجت الى أن أزور المدينة .. وبهذه المناسبة ، أحضرت لك هذا من المدينة .. »

وكان هذا الشىء خطابا من « بيرتون » شقيق جوزيف .. وفض الشاب الخطاب وهو يحدس ما فيه ، فقد ظل طويلا يرتقب نعى أبيه .. وجاء بالخطاب : « **.. ولم يكن ذهنه صافيا فى الساعات الاخيرة ، ولم يتكلم عنك بقدر ما تكلم**

اليك .. قال أنه كان يرجو أن يمهله الاجل حتى يرى ارضك الجديدة .. وأنه سيظل عليك من الجو .. ويرى توماس وبنجى أن من الخير لنا أن نرحل الى الغرب اذا كانت ثمة أراضى لم يمتلكها أحد ! »

واذ رآه « جوانيتو » واجما ، سأله عما به ، فقال : « لقد مات أبى .. ولكنى لست حزينا ، لاننى أعتقد أنه هنا .. أنه هذه الشجرة .. هذه البلوطة بالذات ! .. انها فكرة سخيفة ، ولكنى أؤمن بها .. لقد أحسست ـ مذ وطأت قدماى هذه الارض ـ انها مليئة بالاشباح ، **ثم أدركت أن الاشباح ظلال باهتة للحقائق ، فهنا تعيش أشياء أقرب الى الحقائق منا معشر البشر ، وما نحن سوى أشباح تلك الاشياء .. أتراني اختبلت يا جوانيتو ؟ »** .. فتطلع اليه الاسمر ، وقال : «لقد كذبت اذ زعمت أننى أسبانى ، فالحق أن أمى كانت هندية ، وقد علمتنى أشياء لايقرها الاب أنجليو .. علمتنىأن الارض أمنا ، وأن كل حى يستمد حياته منها ، ثم يعود اليها ! » .. فتمتم جوزيف : « اننى لست هنديا ، ولكنى ألمس ذلك ! »

وفى المســاء ، كتب جوزيف الى أخوته يحبذ حضــورهم واستقرارهم فى الاراضى المجاورة له ، فما أقبل الصيف حتى كانوا قد استقروا حوله .

وكان « توماس » أكبرهم ، فى الثانية والاربعين ، شبيها ـ فى قوته وضخامة بنيانه ـ بالحيوانات التى كان يحبها ويحنو عليها ، حتى لقد كان يغادر فراشه فى جوف الليل ، فى أشد أيام القر ، ليساعد بقرة على الوضع اذا ما سمع أنينها .

وكانت الحيوانات تحبه ، اذ كان يفهمها وان لم يحاول أن يفهم بنى جلدته يوما ، وكان يأنس اليها ويرهب اجتماعات البشر ! .. أما زوجته « راما » ، فكانت امرأة قوية ، عالية الصدر ، ماهرة فى مساعدة بنات جنسها على الوضع اذا ما واتاهن المخاض .. وكانت مصدر ذعر لاى شرير من الاطفال .

ومع أنهـا لم تضرب قط بناتها الثـلاث ، الا أنهن كن يرهبن اغضـابها ، اذ كانت تبحث عن نقاط الضعف فى نفوسـهن فتعاقبهن خلالها . وقد فهمت زوجها فراحت تعامله كما لو كان حيوانا تنظفه وتغذيه وتدفئه .. وكان ابناء « بيرتون » — شقيق زوجها — يتعلقون بها ، ويتحاشون اغضابها ، حتى غدت المسئولة عن أطفال الاسرة كلهم

أما «بيرتون» ، فكان ممن فطروا على التقوى وحب العبادة ، واعتزال الناس . وكان شاحبا ، هزيلا ، تنطق عيناه بالظمأ الى اللهو ، ولكن .. لهو الآخرة وملذاتها !.. وقد أنجب غلامين ، وكان يمسك زمام زوجته بيد حديدية ، ويضع لها حدودا اذا تجاوزتها عنف فى زجرها ، فلا تلبث أن تعتل الفرط ما تكظم فى نفسها ! ..

وكان « بنجامين » — أصغر الاخوة الاربعة — عالة على الاسرة ، لا يجيد فى الحياة سوى الرقص ، وشرب الخمر ، والغناء ، والتغرير بالفتيات ، متوسلا — فى ذلك — بجماله وسـحر شبابه .. حتى زوجته كانت مفتونة به ، تصلى من أجله اذا أذنب ! .. كان فيه شىء خفى يجعل الجميع يحبونه رغم نقائصه . وقد ترك « جوزيف » و « توماس » يبنيان له داره — حين وفد على المكان — وراح يهيم فى وادى العذراء ، يرقص مع الهنود ، ويغافلهم فيسرق نساءهم !

— « ٤ » —

. اتفق الاخوة على أن يقيموا بيوتهم حول بيت « جوزيف » ، وأن تكون الاراضى والمراعى والحظائر ملكا للجميع ، عسى أن تحل بهم البركة التى استنزلها أبوهم على « جوزيف » .. فأصبح هذا زعيما لهم بلا منازع ، وآل اليه ما كان لابيه من سلطان ، فكان للضيعة الكبيرة أبا رحيما كريما .. **كان أبوه قد اندمج فى الارض حتى غدا رمزا حيا للوحدة .. وحدة**

الارض وسكانها . وهكذا أصـبح هو ! .. وكان ميله الى التكاثر يزداد ، حتى أنه كان يراقب الماشية والخيل ، ويبذل كل حيلة ليحملها على التناسل ، كما كان يعنى بكل شبر من الارض ليضاعف غلتها .. وهكذا كان كل ما حوله ـ من بشر وحيوان ونبات ـ فى ازدياد ، وهو المنبع .. مصدر الخصب والتكاثر والنمو . وما كان ليحجم عن عزل الحيوان العاقر ، أو اجتثاث النبتة العقيمة ، بوحى من حاسة فطرية تغلغلت فى دمائه . ولم يكن يحزنه سوى « بنجى » السادر فى غيه !

وفى ذات يوم ، خـرج مع « توماس » يتفقدان أطـراف الضيعة ، وجوانيتو يتبعهما عن كثب على جواد ثالث ، فساق اليه توماس ما سمعه فى المدينة عن سنين الجفاف .. وتخلل جوزيف شعر لحيته ، وراح يلويه كما كان أبوه يفعل ، ثم قال : « كانت ظاهرة طارئة ، ولن تتكرر ! » .. وهم أخوه بأن يجادله ، لولا أن لمحا قطيعا من الابقار الحمراء ، فر عند رؤية القادمين ، مخلفا عجلين صغيرين ، فأسرع توماس وقطع اذانهما بسكين ، محدثا العلامة التى كانت تميز أبقار الضيعة . ثم حمل جوانيتو العجلين على جواده وقبل أن يستأنفوا سيرهم ، انحنى جوزيف فالتقط القطع التى فصلت عن آذان العجلين . واذ ذاك سأله توماس : « لماذا تعلق ما تصيده من صقور على البلوطة المجاورة لبيتك ؟ »

ـ كى أرهب الصقور الاخرى ، فلا تعتدى على الدجاج .

ـ انها خرافة غير مجدية عمليا .. ثم أنك تثبت الى البلوطة القطع المجتزة من آذان الماشية .. أتراك تتعوذ من سنى الجدب ؟

ـ لا شأن لك بهذا ، فأنا نفسى لا أفهم السر .. لقد منحنى أبى بركته عندما جئت الى هنا .. باركنى كما كان الانبياء يفعلون فى الماضى .. وكنت أكن لابينا شعورا غريبا .. لم يكن كغيره من الآباء ، بل كان رمزا ثابتا سرمديا ، تستطيع أن أن تتعلق به .. وعندما نعاه بيرتون الى ، قال أن من كلماته

الاخيرة أنه سيطل على من الجو . وكنت أجلس على بعض الاخشاب أمام بيتى، الذى كان مجرد هيكل اذ ذاك ، فتطلعت، واذا البلوطة تطل على .. وبوسعك أن تفهم ما بقى .. **فلست أفعل هذه الامور الا لارضى نفسي ، اذ أن المرء فى حاجة الى شيء يؤمن ويتعلق به .. شيء يثق فى خلوده ، وبقائه ، وعدم تغيره !**

وافضت بهم الطريق الى بقعة فسيحة تتوسطها صخرة غريبة، كأنما صاغتها يد ماهرة فى قالب لامثيل له .. وكانت الاعشاب تكسوها بطبقة محكمة النسيج . والى أحد جوانبها، كان ثمة كهف صغير معتم ، يتدفق منه الماء فينطلق فى جدول يتخلل الدغل .. وجثم بجواره ثور أسود ضخم عديم القرون ، تطلع اليهم بعينين حمراوين ، وانبعث منه خوار رهيب ، وهو ينهض على سيقانه .. ثم عاد فأشاح عنهم واختفى فى الدغل الكثيف .. وصاح توماس : « ليس هذا من ثيراننا .. اننى لم أر هذا المكان من قبل ، ولا أرتاح اليه ! » .. وكان جوزيف يحملق فى المكان وقد توترت أعصابه وعضلاته .. وقال أخيرا : **« اهدأ يا توم ، فهنا شيء يرهبك ، ولكننى أشعر كما لو كنت أعرفه .. شد ما يخيل الى أننى رأيت هذا المكان من قبل .. ربما فى أحد الاحلام .. انه مقدس وعريق ؟ »** . فقال جوانيتو والعبرات تتدافع من مقلتيه : « لقد أحضرتنى أمى اليه يا سنيور وأنا صبى صغير .. كانت هندية ، وكانت حاملا توشك أن تضع حملها .. ويخيل الى أن فطرتى الهندية سيطرت على حين اقتربت من هذه البقعة ، ودفعتنى اليها .. فقدتكما معى ! »

وألح توماس فى الانصراف منفعلا ، فأطاعه جوزيف وهو يقول : « لا تخف ! .. فى هذا المكان سر قوى ، حبيب ، مفعم بالخير .. فيه شيء كأنه القوت والماء الزلال .. وقد نعود اليه اذا ألمت بنا ضائقة ، فنجد فيه زادا ! »

— ((٥)) —

• **كان** يعيش فى ((مونتيرى)) سروجى يدعى ((مكريجور)) وكان فيلسوفا متطرفا ، يعتنق المبادىء الماركسية الثورية ، ويحتد فى الدفاع عن آرائه ، مما أكسبه نفور جيرانه وسخريتهم ، فلما فشل فى اخضاع الناس لآرائه ، حاول أن يفرضها على ابنته ، فباء بالخيبة . اذ كانت ((اليزابيث)) جميلة ، تشع الفتنة من عينيها ، ذات طباع عصبية عنيدة . فلما ضاقت بفلسفة أبيها ، انكبت على الدرس ، حتى حصلت على اجازة التدريس ، وهى فى السابعة عشرة ، وعينت فى مدرسة بلدة (نيوسترا سينورا) . **وسرعان ما هام بها شباب البلدة ، ولكن جوزيف كان أجرأهم ، فقد اعترض طريقها يوما ، وبادرها فى صراحة : ((قد يعمد غيرى الى اللف والمداورة ، ولكنى غير خبير بهذه الاساليب ، ولا أرى لها نفعا .. اننى أريدك على أن تكونى زوجة لى ..))**

وتضرجت وجنتاها ، وتبدت عليها الحيرة ، فانصرف عنها .. ولم يكن ثمة عمل كثير فى الضيعة — فى فصل الشتاء — فأخذ يقضى أوقاته جالسا تحت البلوطة يفكر فى اليزابيث .. وأخبره جوانيتو ذات يوم — وهو فى جلسته هذه — بأنه خطب ((أليس جراشيا)) ، فتهلل جوزيف ، وقال له : ((سنبنى لك دارا ، وتقيم معنا .. وسأهديك بزة جديدة وساعة ذهبية !)) . واضطجع على جذع البلوطة ، وتطلع الى أغصانها وقد زايله المرح .. وهفا خاطره الى أشجار الصنوبر ، والصخرة المكسوة بالاعشاب ، والماء النمير المنساب من الكهف الى الجدول ، فصبت نفسه الى زيارة المكان ، وقد ألفى فيه كعبة يخلو فيها الى نفسه اذا ما ألم به أسى ، أو ألم ، أو خوف . ولكنه قال لنفسه : ((لست أعانى شيئا من هذا الآن ، ولكنى سألوذ به اذا طرأ طارىء !))

وفى اليوم التالى زار « اليزابيث » ، فأحست بأن كل تمرد عليه من عواطفها ينهار ، واشتد بها الارتباك ، وخطر لها أن لو أنه ألصق شفتيه بصدرها ، لابتهجت وانتشت وضمته بشوق .. وانقضى الشتاء ، وجاء شتاء آخر ، قبل أن يتم الزواج .. ودعا جوزيف يوما فتاته الى زيارة الضيعة ، وأراها بيته وشجرة البلوط العتيقة ، فاستندت الى جذع الشجرة ، وراحت تتحسس أغصانها فى رفق ، ثم سألته : « هل من بأس فى أن أتسلقها ؟ » . **والتفتت فاذا به يحدق فيها بنظرة غريبة ، وأسرع اليها فأمسك بيـدها قائلا : « بل يجب أن تتسلقيها ! » . وعندما جلست فوق أحد الأغصان ، قال : « ما أشد سرورى ! » .. ورأت فى عينيه وميضا لم تألفه ! ..** وحانت منها التفاتة ، فرأت ـ من عل ـ دغل الصنوبر الذى تتوسطه الصخرة ، فهتفت : « ان هذا الدغل يذكرنى بمسقط راسى .. سأرجوك أن تصحبنى اليه ـ بعد الزواج ـ كلما الح بى الحنين لمونتيرى ! »

وأخـيرا تم الزواج .. وكانت « اليزابيث » ـ خـلال الاحتفال فى الكنيسـة ـ ترقب وجـه جوزيف ، فاذا به جامد ، صلب .. وتمنت لو أن أمها كانت على قيد الحياة ، لتوصيه بها ، وقد أحست برهبة ازاء المستقبل المجهـول ، والحياة الغامضة التى كانت مقبلة عليها .. **واذغادرا الكنيسة ، خيل اليها أن وجه جوزيف كان صورة انعكست على صفحة مرآة ، لوجه المسيح ، فهمست لنفسها : « كأنما كنت أصلى لزوجى ، فهو .. المسيح نفسه ! »**

وحملها فى عربته الى وادى (نيوسترا سينورا) . وأشرفا على ممر ضيق امتـد بين تلين قاما ككتفى حسنـاء عارية ، والنهر يمتد بجواره كالنحر !.. وتوارت الشمس خلف جبل عال ، ولكن قبسا من ضوئها ظل يتراقص أمامهما . واستولت على « اليزابيث » رهبة لم تدر لها مبررا ، فأوقف « جوزيف »

العربة ، وقفز منها ، ثم أعان عروسه على الهبوط .. وكان يود أن يكاشفها بما فى نفسه ، ولكنه وجد المهمة عسيرة ، فاكتفى بأن راح يحدثها فى سره ، وقد اتسعت حدقتاه : ((ألم يخطر لك يا اليزابيث ان المسيح المصلوب رمز لشيء أكثر من مجرد الالم ؟)) .. وقطعت عليه أفكاره صرخة بدرت منها : ((جوزيف ، انني خائفة !)) .. وعاد يحاول ترتيب منطقه المرتبك : ((بنفسي فكرة لا أجد كلمات تعبر عنها .. أن هذا الممر هو الفراغ الفاصل بين الواقع والحقيقه المجردة ، الصادقة ، التى لم تشوهها الحواس .. انه حد فاصل ، فبالامس عقد قراننا ، ولكنه لم يكن زواجا ، وانما .. هاك زواجنا، خلال هذا الممر .. فان دخول الممر كاندماج الحيوان المنوى بالبويضة ليحدثا وحدة ، هى الجنين .. هذا رمز للحقيقة غير المشوبة . ان فى فؤادى لحظة تختلف فى شكلها ونسيجها ومداها عن أية لحظة أخرى .. هكذا كان الزواج دائما يا اليزابيث .. لا ألم ، فقد حمل المسيح فى جسده — فى الفترة القصيرة التى قضاها على الصليب — كل ما كان هناك من ألم ، وفيه لم تشب الالم أية شائبة !))

وفطن الى نفسه ، فخيل اليه أن ذراعيه ويديه ثقيلة ميتة ، وكأنه كان مصلوبا . ولمحت اليزابيث شفتيه تنفرجان فى قنوط ، وعينيه تفقدان تألقهما ، وهو عاجز عن أن يعبر عن أفكاره ، فقالت : ((ما الذى تبتغيه يا جوزيف ؟ .. انني خائفة وان لم أدر لخوفى سببا !)) .. فتغلب على وجومه وقال : ((أريد أن نجتاز هذا الممر .. ليس ثمة مايخيف ياعزيزتى .. لقد كنت وحيدا فى عالم بعيد ، وأحب أن أجتاز هذا الممر معك ، فان لذلك معنى كبيرا عندى !)) . فتشبثت به وهى ترتجف ، وقالت فى انكسار : ((سأرافقك ، ولكني سأترك نفسي خلفى ، وأتصور أننى واقفة هاهنا ، أتأمل تلك المخلوقة الجديدة التى ستخرج عند الطرف الآخر ! .. المرأة الناضجة

التى سأتحول اليها فى نهاية الممر ! » .. وتذكرت كيف كان يحلو لها ـ وهى صغيرة ـ أن تمثل دور المـرأة المتزوجة ، فكانت أمها تقول لها : « عندما تكبرين ياأليزابيث ، ستعرفين الالم .. ولكنه ليس كالالم الذى يخطر ببالك .. ألم لا تصل اليه القبلة المواسية ! »

وانزاح العبء عن صدر جوزيف ، فاحتواها بين ذراعيه ، وشدها اليه .. ومع أن رأسها كان منحنيا الى الوراء ، الا انها شعرت انه كان يحملق فيها فى لطف ورفق . وسـار وئيدا خلال الممر الذى يفصل بين الفتاة والمرأة .. وضحك جوزيف فى خفوت هامسا : **« قد تكون هناك أوجاع أقسى من اللذة ياأليزابيث .. أشبه بامتصاص حلوى النعنـاع التى تلذع اللسان . ان أوجاع التحول الى امرأة قد تكون نشوة ! »**
.. ولم تعد قدماها على الصخر . وحاولت أن تغلق فكرها ، وأن تغوص فى الظلام ، ولكنها كانت تسمع خرير النهـر ، وتحس برودة الهواء .. ثم اشـتد دفء الجـو ، واحتقن جفناها ، وغشيت عينيها غشاوة حمراء مشوبة بصفرة .. ثم ضمها جوزيف بقوة قائلا : « لقد اجتزنا الممر ياأليزابيث ! » . وفتحت عينيها فاذا الوادى مستلق فى أحضان أشعة الشمس ، والاشجار تتأود فى أحضان النسيم ، فهتفت فى ارتياح : « لقد رأيت حلما رهيبا ، نسيته الآن .. لا يبدو لى أن شيئـا ما قد تغير ! »

وتركها ليحضر العربة ، فبكت اذ رأت بعين الخيال طفلة فى ثياب قصيرة ، تقف عند أول الممر تتطلع فى فضول .. وكانت هذه الطفلة هى اليزابيث بعينها ، فى صغرها ! ومـا لبثت الطفـلة ان نكصت عائدة الى (مونتـيرى) فى أسى ، وبقيت هى .. اليزابيث ، المرأة الناضجة !

— « ٦ » —

• **وأخذ** الظلام يهبط .. وخشي جوزيف على عروسه من البرد ، ولكنها قالت : « لست مقرورة ، ولكنى فى فترة غريبة ، فترة تحول .. لشد ما يخيل الى أننى أوشك أن أفقد نفسي مع نور النهار الراحل ! .. **لكأننى سحابة انتشرواتفكك وأمتزج بكل ماحولى ، فلا أملك أن أعود كما كنت ! »**

وبدا لهما مصباح يتحرك على البعد ، ثم اختفى الضوء ، وأطبق الظلام ، وهبت ريح دافئة لافحة ، فهتف جوزيف : « ان هذا الليل يخفى عدوا أو شرا ! » . وحمل اليهما الهواء عواء طويلا ، عميقا ، فقال جوزيف ساخطا : « لقد حذرت بنجي من الذهاب الى البلدة ! .. هذا كلبه يعوى ، كعادته كلما غاب عن داره ! » .. وما لبثا أن سمعا وقع حوافر تقترب ، وصوتا ـ عرف فيه جوزيف صوت جوانيتو ـ يهتف : « سنيور ! .. دون جوزيف ، سأنتظرك عند الصخرة التى فى دغل الصنوبر ، فسوف تحتاج الى ! »

وكان الصوت متلعثما .. وابتعد جواد جوانيتو ، فتساءلت اليزابيث عما جرى ، ولكن جوزيف صمت حتى بلغا الضيعة . وقفز سائلا توماس الذى كان فى الانتظار : « ماذا جرى ؟ » . فقال توماس : « حدث ماكنا نتوقع ! » . وأقبلت « راما » فقادت اليزابيث الى دارها ، بينما استطرد توماس : « لقد مات بنجى .. منذ ساعتين ! » . فيمم جوزيف صوب دار بنجامين ، واذا هو جثة مسجاة ، وعنقه ملطخ بالدم .. وقال توماس : « طعنه بنجى اذ فاجأه دون أن يتعرف عليه فى الظلام .. وكيف كان بوسعه أن يعرفه وهو لم ير وجهه ؟ »

.. وسار جوزيف فى صمت الى البلوطة التى قامت كشبح ضخم فى الظلام ، فاستند الى جزعها ، وتطلع الى قمتها ، وقال باللهجة التى اعتاد أن يخاطب بها أباه : « لقد مات

بنجامين ياسيدى ! » . وأسند خده الى الجذع الرطب ، وقال : « الآن عرفت البركة التى اوثرت بها .. ان لتوماس وبيرتون أن يحبا وأن يكرها ، أما أنا فقد حرمت من هذا ، فلست أعرف سعدا ولا نحسا .. حتى التمييز بين السرور والالم حرمت منه ، فكل الاشياء ، وكل الاحوال سواء لدى .. الآن عرفت حقيقتك يا أبتى ! .. كنت فى عزلة رغم وجودك بين البشر ، وكان هدوؤك راجعا الى عدم اتصالك بظواهر حياة الناس .. لقد مات بنجى يا سيدى ! »

وامتطى جواده ، وانطلق ليوافى جوانيتو عند الصخرة ، فى دغل الصنوبر .. بينما جلست اليزابيث فى حجرة الجلوس الانيقة بدارها ، تعجب بالمكان ، وبجمال راما .. وأحست بأن لهذه المرأة قوة مسيطرة توشك أن تسيطر عليها ، فحاولت أن تقاوم ، بينما كانت راما تقول : **« انك لم تعرفى الميت ، ولن تفتقديه ، فلا حاجة بك الى الحزن .. يؤسفنى ان وصلت فى وقت عصيب ، والا لاحتفينا بمقدمك . لقد لقى بنجى جزاءه وفاقا ، فقد كان لصا يسرق الصبايا والنساء ، ولقد ثمل الليل ليسرق زوجة جوانيتو ! »** .. واعدت لها عشاء خفيفا ، التهمته اليزابيث بنهم ، بينما كانت راما تقول لها : « ماكنت أظن أن جوزيف يعرف كيف ينتقى زوجة مثلك .. ظننته سينتقى زوجة كما ينتقى بقرة حلوبا ، منتجة .. ولكنه أظهر ذوقا بشريا ماكنت أتوقعه فيه ! » .. فقالت اليزابيث : « انه ذو ذوق بلا شك ، ولا أدرى لماذا تقولين عنه ذلك . ثم هو معتد بنفسه ! »

ـ لا ، ليس معتدا بنفسه ، فأنت لاتعرفينه .. لست أقصد ان أزعجك ، ولكنى أراك تلتمسين له المعاذير ، والمعاذير كالاحراش تخفى الحقائق التى يهابها الانسان .. ولعلك تحسبينه طفلا يحلم .. ولكنه ليس بطفل ، وما أظنك قادرة على معرفة حقيقة أحلامه .. اننى لا أنفرك منه ، فهو ليس

بقاس، وبوسعك أن تعبديه دون أن تخشى أن تكونى قربانا له!
وتذكرت أليزابيث ما خالته من شبه بين جوزيف والمسيح، فقالت: « لم قلت « تعبديه » .. ماذا تقصدين ؟ » . فقالت راما: « اننا الليلة فى حال غريبة، وأخال أن قلبى مفتوح على غير عادته، تتسرب خلاله الافكار الدفينة والمكبوتة، ومن ثم فلا حرج فى أن أطلعك على سر كنت أكتمه .. اننى أعرف الرجال، وقد عرفت حقائق توماس وبيرتون وبنجى كما لو كانت قلوبهم مفتوحة أمامى .. أبدا لم تخطىء غريزتى، ومع ذلك فقد ظللت أجهل جوزيف كما كنت أجهل أباه .. ترى هل بين الناس من يخلق خارج نطاق البشر، أو من يكون من الانسانية بدرجة يبدو البشر معها الى جواره أنعاما ! .. **ولعل الرب يبعث ــ من آن لآخر ــ ربيبا له ليعيش بين الناس! .. ان لجوزيف قوة تجاوز الخيال، وهدوءا كهدوء الجبال الراسيات، وشعورا قويا حادا كالبرق والصواعق .. ومع ذلك فانه يبدو كما لو كان عديم الحجى !** .. فكرى فيه وأنت بعيدة عنه، تفهمى ما أراه فيه، فلسوف يتبدى لك هائلا كالجبال الشامخة، قويا أشد عتوا من الرياح الجائحة . ولن يخطر ببالك قط انه قد يموت يوما، فهو سرمدى ! .. لقد مات أبوه، ولكنه ــ فى الحق ــ لم يمت، بل انتقل الى حال أخرى، خيل لذهننا المحدود أنها الموت .. أؤكد لك أن هذا الرجل ليس انسانا، اللهم الا أن يكون كل البشر مجتمعين، ففيه قوتهم جميعا، وجلدهم، وتفكيرهم الطويل المتعثر .. **وفيه كل الفرح والالم كذلك، يطرد كل منهما الآخر، ومع ذلك فان كلا منهما يبقى فى أعماق نفسه ! .. كأنه مستودع لقطعة من روح كل انسان .. وأكثر من هذا، كأنه رمز لروح الارض ! »**

ومسحت « اليزابيث » أنفها بمنديل، وقد تندت عيناها ولمعتا، ثم قالت وهى لا تجسر على النظر الى راما: « انك

تحبين زوجى .. وتخافين هذا الحب ! » . فأجابت راما : « لست أحبه ، اذ أننى لا أملك النكوص عن المصير الذى أسير اليه ، ولكننى أعبده .. ولا داعى لان أبدأ حياتى من جديد ، من أجل هذا .. لقد أغلق قلبى ثانية ، فتذكرى ما قلت لوقت قد تحتاجين فيه اليه ، وتذكرى اننى هنا لكى أساعدك ! »

— « ٧ » —

• **كان** الليل قد اكتهل ، وجوزيف يتجه نحو دغل الصنوبر .. وكاد ينسى غايته ، فقد تبدت له الجبال والتلال فى غلالة من سحر الانوثة ، اذ تذكر « اليزابيث » فخفق قلبه من أجلها ! .. واذ هم أن يوجه فرسه الى جوف الدغل ، أبى الجواد وسمر أقدامه فى عناد ، فترجل عنه جوزيف ، وسار على قدميه بأعصاب متوترة ، وأخذ يتحسس طريقه فى الممر المظلم ، حتى لاحت له الساحة التى تتوسطها الصخرة .. **وأحس برهبة كتلك التى تعترى الطفل اذ يتقدم ـ فى كنيسة ـ صوب المذبح ، والوهم يصور له أن أحد القديسين لن يلبث أن يقفز من احدى الصور ، وأن تمثال المسيح على الصليب لن يلبث أن يتحول الى لحم ودم ، وينبعث منه أنين متوجع .. وقف شعر رأسه ، فهمس لنفسه وقد أدرك سر اجفال جواده : « الشر يكمن هنا الليلة ! »**

وقفز مذعورا اذ انبعث صوت « جوانيتو » فجأة ، الى جواره : « أنا هنا ياسنيور .. لقد دعوتك يا صديقى لاننى أحب أن تكون أنت الفاعل ، فهل أحضرت معك خنجرا ؟ .. أو اليك خنجرى ! »

ـ ماذا تعنى يا جوانيتو ؟ .. حسبك ! أتريدنى على أن أطعنك ؟

ـ بل هو واجبك يا صديقى ، فقد قتلت أخاك !

وخمدت الريح ، وران على الدغل صمت ثقيل ، رهيب ..

وقال جوزيف بصوت كالفحيح : « لا ، فقد كان الامر مجرد خطأ .. ثم أنه كان من حقك أن تقتله ، ولو تبينته .. أنك لم تفعل سوى ما أملته عليك غريزتك الفطرية ! »

– لئن تقتلني أهون من أعيش العمر نادما !

وبدا الفجر ينساب فى وهن ، وبدت أشباح الاشجار كشهود تطل عليهما . وتطلع جوزيف الى الصخرة يستمد منها العون ، وقال : « ليس لى من السلطان ما يوقفنى موقف الآخذ بالقصاص ، فافعل ما بدا لك .. وخير لك أن تعود معى ! » . فصاح جوانيتو : « لن أقوى على أن أطأ أرضا تضم رفات قتيل لم يثأر أحد لدمائه ، الى أن تبلى عظامه ! » . وهرع كالمجنون ، وانبعث وقع سنابك جواده ، ثم تلاشت مع الريح . **فسار جوزيف الى الصخرة ، وجس بيده طبقة العشب التى تكسوها ، ثم تراجع بظهره وكأنه فى حضرة عظيم مهيب ، حتى تجاوز الساحة .**

وكانت الشمس تطل على العالم ، حين يمم شطر الضيعة فداخله سرور اذ تبين أن طبيعته وطبيعة الارض سواء !

واقبل الشتاء مبكرا فى ذلك العام ، فانهمك أهل الضيعة فى الاستعداد له . وكانت « أليس » – زوجة « جوانيتو » – فى حزن مقيم على زوجها الحبيب ، وفى هم من أجل الجنين الذى ضمته أحشاؤها ذكرى لهذا الزوج .. وأشفقت عليها « اليزابيث » ، فأخذتها الى دارها ، لتساعدها فى الاعمال المنزلية ، فقد رفضت أن تعود لابيها ، وأبت ألا أن تنتظر جوانيتو ، موقنة من عودته . وكانت اليزابيث قد اندمجت فى حياتها الجديدة ، وأضفت على بيتها رواء جعله أبهى بيوت الضيعة ! .. **وكانت « راما » تلازمها فى أوقات الفراغ ، فتبصرها بما كانت تجهله عن الزوجية ، والامومة ، وطبائع المرأة ، وظواهر الحمل ، وعواطف الام ..**

وفى أوائل نوفمبر ، هبط المطر . وكان جوزيف قد ظل

يترقبه ، ويفضى بتقاريره الى « بلوطته » العتيقة . وفى ذات يوم ، اصطاد صقرا فذبحه وعلقه على الشجرة . وذبح خنزيرا عند جذعها .. وضحك « توماس » اذ خيل اليه أن أخاه كان يقدم القرابين الى اله مجهول يكمن فى الشجرة .. واعتكف « بيرتون » فى داره يصلى .. وكان جوزيف يقف تحت البلوطة يرقب آثار دماء الخنزير ، حين تساقط المطر . **ونادته اليزابيث ليدخل الدار ، فقال : « ان جلدى جاف ، ظامىء ، فدعيه يرتو ! » .. وتصاعدت من الارض رائحة البلل والرطوبة . ولم يعد جوزيف الى داره حتى رأى الماء يغسل جذع البلوطة وينساب الى جذورها .. ووضع يده على رأس اليزابيث ، كما يفعل القس حين يبارك شخصا ، فهتفت : « يدك باردة يا جوزيف .. لقد بعثت فى جسدى قشعريرة ، خلت معها أن الروح المقدسة قد تغلغلت فى بدنى ! »**

واستمر المطر أسبوعا ، حتى فاض الماء ، وأخذت الظواهر تبشر بمحصول وافر ، فلم يكد رأس السنة الجديدة يقبل ، حتى أقام جوزيف حفلة لجميع أهالى (نيوسترا سنيورا) ، من بيض وهنود حمر .. فتوافد على الضيعة عازفو « الجيتار » ، وأقبل الاب « أنجليو » — قس المدينة — فى أثرهم ، حاملا تماثيل بديعة من الخشب صنعها بيديه للمسيح والعذراء والصليب .. وأقبل الناس زرافات ، ومدت الموائد فى الساحة — أمام الدور — وذبحت الخنازير والابقار والخراف ، وأعد النبيذ بغير حساب .. وأقام الاب أنجليو الصلاة والقداس ، بينما اعتكف « بيرتون » فى داره يصلى ، اذ كان بروتستانتيا متطرفا ، يرى فى أعمال القس الكاثوليكى بدعا مكروهة .. ثم بدأت الحفلة بعادة قديمة طاب لجوزيف أن يحييها . فقد ملأ كأسا بالنبيذ ، ورفعها عاليا ، ثم أراقها على الارض وسقى بها التربة .. وعاد فملأ الكأس وجرعها دفعة واحدة . **ثم ملأها مرة ثالثة ، وسكبها على جذع البلوطة .**

فهمس القس : ((هذا العمل مكروه يا بنى .. احذر غواية الشيطان .. حذار من الرموز والاوثان !))

وأدرك جوزيف أن القس نفذ الى أعماق سره !

وأخذ العزف يشتد باشتداد النشوة ، حتى احتدم الرقص . وفجأة ، سمع توماس نحيبا ، واذا بيرتون جاثيا يصلى ويبكى . فلما سأله عن أمره ، قال ساخطا : ((هذا لون من عبادة الشيطان .. أنه كرقص الكفرة أمام أصنامهم ، فكيف تسمح به فى أرضنا ؟ !)) . وضحك توماس ، وأخذ يبحث ببصره عن جوزيف ، فاذا هو متكىء على جذع البلوطة ، يرقب غيوما أخذت تتجمع فى السماء . ثم قصف الرعد ، فأسرع القوم بالرحيل .. وكانت اليزابيث ترقب جوزيف صامتة واجمة ، وقد بقى وحيدا الى جوار بلوطته .. ولمحها ، فعاد الى الدار ، وحنا عليها قائلا فى قلق ((مالك يا اليزابيث ؟)) . وجثا الى جوارها والمطر ينهمر ، فقالت : ((مجرد انفعال .. الناس ، والوليمة ، والصلاة ، والرقص العنيف ، والموسيقى الصاخبة وهذه العاصفة .. **لست أدرى أية حماقة توحى الى بأن وراء هذه المناظر تكمن مناظر أخرى مفعمة بمعان خفية ، مبهمة !!))**

ـ أراك تنفذين ببصرك الى أعماق الامور ، وهذا يخفف من وطأة الوحدة التى أحس بها فى الحياة . فان بنفسى أمورا أعجز عن التعبير عنها .. اننى لا أرى هذه الظواهر انذارات من السماء ، وانما هى بشائر واحتفالات .. ما أظن السحب مجرد علامة الناس تنذر بالمطر .. أنك على حق ، ولا بد أن ثمة معانى كانت تستتر وراء أحداث اليوم ! .. هل تعلمين أن الرقص من الاشياء الخالدة التى تتخلل أحلام الحياة ؟ !

ومسحت على رأسه ، وتطلعت اليه فى شغف ، وفى نفسها سر تريد أن تفضى به ، ثم قالت : ((لقد كنت متوعكة فى هذا النهار .. ان راما تقول .. اننى حامل !)) . وظل صامتا يحملق فى نيران المدفأة ، وقد أمسكت السماء غيثها لحظة ،

فساد السكون . وأخيرا تساءلت اليزابيث : « امسرور أنت ؟ » . فقال : « بل أكثر من مسرور .. وأكثر من خائف ! .. ألا أعنى بنفسك يا اليزابيث ! » . وأسرع يدثرها من البرد ، فقالت : « لا تخش ، فسأعرف كيف أعنى بنفسى .. ان أبواب المعرفة تتفتح للمرأة اذا حملت .. أو ترى أن الطفل غال ! » . فأطرق لحظة حائرا ، ثم قال : **« أجل ، ولكنه لبس أغلى ممن تحمله .. انه وتد يربطنا بالارض ! »**

وأسلمها بنفسه الى فراشها ، فتناومت ، واذ ذاك خرج يسعى الى بلوطته ، فقالت اليزابيت لنفسها : « لقد قالت راما اننى لن أعرف أحلامه يوما ! » . وعصرت الوحدة قلبها ، فراحت تنتحب فى خفوت ، بينما كان جوزيف يقف تحت الشجرة ، متطلعا الى قمتها فى الظلام ، هامسا : « ان امرأتى حامل يا سيدى ، وأعدك بأن أسلم الطفل الى أحضانك عند مولده .. وهناك عاصفة مقبلة ، فأرجو أن تقينا شرها ! » .. ومس جذع الشجرة ، ثم قال لنفسه : « ان القس يدرك علاقتى بها .. ولعله يؤمن بها ولكنه هياب ! » . وعاد يمس الجذع فى انفعال ، وهو يحدث نفسه : **« ان هذا العمل يزداد سيطرة على .. لقد عمدت اليه فى البداية كوسيلة لتسرية حزنى ، عندما مات أبى ، ولكنه يتسلط على ، وان كان مصدر عزاء لى ! »**

وحمل بقية من الذبائح فعلقها بالشجرة وهتف فى ضراعة: « احمنا يا سيدى ، فهناك نذر بشر مقبل ، قد يقضى علينا ! » . واذ ذاك سمع صوتا خلفه : « أنا بيرتون يا جوزيف ، وقد جئت أنذرك عاقبة هذه الوثنية الذى تتغلغل فى أعماقك .. أرأيت غضب الله ممثلا فى رعد اليوم والعاصفة ؟ .. لقد تخليت عن الله ، وسيحق عليك غضبه ، فهلا أتيت معى وصليت ليقبل الله توبتك ! لنجتث الشجرة ونتخلص من شرها »

ـ انك تبالغ فى الوهم ، فلا تتدخل فى هواياتى !

— ((٨)) —

• **جاء** الربيع حافلا بمباهج الطبيعة .. ثم أقبل شهر مايو فبدأت المحصولات تجف ، وعكف الاخوة الثلاثة على حصدها . واقتربت آخر شهور حمل ((اليزابيث)) ، فأخذت ((راما)) تسرف فى العناية بها .. وكانت ((اليس)) - زوجة ((جوانيتو)) - قد رحلت الى (نيوسترا سينورا) فوضعت طفلها ، وعادت تحمله على كتفها .. وفى ذات يوم من أيام شهر يونيو - الذى أقبل ببواكير القيظ - سألت اليزابيث زوجها ((جوزيف)) ان يبتاع لها بعض حاجيات من بلدة (سان لويس أوبيسبو) ، فكان لزاما عليه أن يتغيب اياما ثلاثة . فما ان غادر الضيعة ، حتى تملك اليزابيث الخوف عليه من شر قد يصيبه فى غيابه عنها ، واستبدت بها الهواجس ، وتولاها حنين طاغ الى (مونتيرى) - مسقط راسها - فامتطت فرسا ذلولا ، وولت شطرها .. وكانت الشمس حامية ، والريح راكدة .. **وما ان بلغت ((اليزابيث)) الجدول الذى يجرى خلال الدغل ، حتى زايلتها الهواجس والضيق ، واوغلت - بعد ان ترجلت عن جوادها - حتى بلغت الساحة ، ووقعت عيناها على الصخرة المكسوة بالاعشاب ، وهتفت لنفسها : ((كنت اوقن من وجود شىء حبيب هنا !))** • وعلقت عيناها بالصخرة - فى غمرة الصمت الشامل - وراحت تحاول ان تتذكر كيف الفتها ، وكيف اطمأنت اليها ، وكيف كان يخيل اليها انها رأتها من قبل .. واتسعت حدقتاها وهى تتمثل ذكريات مبهمة لم تفقه لها معنى .. ذكريات مهرجان نظم لفتيات مدرستها فى صغرها - احتفالا بذكرى ((الروح المقدسة)) . ثم تراءت لها على صفحة الصخرة صورة لجنينها القابع فى أحشائها ، ورأته يتحرك .. واحست بالحركة فى جوفها ، فى الوقت ذاته !

وخيل اليها أن الاشجار السمراء تطبق عليها ، وانها وحيدة فى عالم بأسره ، ثم أوحى اليها ان كل رغبة تبديها ستلقى استجابة ، فجزعت اذ أحست بأن رغبتها الاولى هى أن تموت ، ورغبتها الثانية هى أن تفهم زوجها المغلق ، المبهم .. **ثم ارتد اليها وعيها فجأة ، فخيل اليها أن الصخرة شر يتحفز للانقضاض عليها ، فقفزت فى ذعر ، واندفعت تجرى الى خارج الدغل — وهى تحس بأن الحشائش تعرقلها والاشجار تطاردها — فلما تلقتها نسائم الاصيل خارجه ، جثت راكعة تصلى ..** وحاولت أن تتذكر ماحدث ، فبدت الصورة باهتة ، وكأنها قديمة العهد .. كأنها ذكرى خطيئة وكفر !.. وتذكرت ما كان أبوها يذكره من أن أجداده كانوا يعبدون الاوثان منذ ألف عام !

واطمأن خاطرها بعد الصلاة ، فعزت ما خامرها الى هواجس الحمل . بيد أن تغيرا أصابها بعد ذلك ، اذ أخذ جمالها يزداد تألقا ، وشعت عيناها بسعادة غامضة ، فكان جوزيف يتأملها فى صمت ، محدثا نفسه : « لابد انها تعرف شيئا خفى أمره علينا ، فان حرارة الله تسرى فى قلوب النساء كلما اقتربن من الوضع ! » .. على أن اليزابيث كانت تزداد تعلقا به كذلك — كلما اقترب موعد الوضع — وكانت تتشبث ببقائه الى جوارها ، اذ كان الوهم يصور لها انه قد يغادرها ، فلا يعود اليها !

وسألته يوما — وهما يجلسان عند عتبة دارهما — عن سر حبه للشجرة ، فروى لها كيف انه يرتاح الى أن يتصور ان أباه يتقمص هذه الشجرة . فرمقته بنظرة الام الحكيمة ، وقالت : « ليس الامر وهما ، وانما هى عادة لا بأس بها ! » .. **ونفذت لاول مرة الى أعماق ذهنه ، فقرأت أفكاره .. وشعر جوزيف بذلك ، فتدافعت العواطف فى صدره ، وانفجر ماكان يكتمه فى صدره فبكى !**



ووضعت اليزابيث وليدها أخيرا ، فأصر جوزيف على أن يتلقاه بيديه .. وكان ذكرا ، ففرح به كل الفرح . وفى المساء ، روت له « اليزابيث » كيف زارت الدغل ، وشهدت الصخرة ، وأردفت : « لقد أخافتنى الصخرة الخضراء ، وظلت بعد ذلك تتراءى لى فى الاحلام ، فبودى أن تصحبنى اليها ــ بعد أن استرد عافيتى ــ كى أراها وأستيقن من كذب مخاوفى! » ..

وجاء الخريف قائظا فى ذلك العام .. وكان جوزيف فرحا بابنه ــ الذى أسماه « جون » تيمنا بأبيه ــ فخطر له يوما أن يجلسه بين أغصان البلوطة العتيدة ، اذ لم يكن قد تم تعميده بعد .. **فقالت اليزابيث مداعبة : « الا تنفك عن ذكر شجرتك هذه ؟ .. كأنى بك تظن ان كل شىء يتحرك باذنها؟! » فقال وهو يتأمل أغصانها : « لقد عرفتها الآن تماما ، حتى اننى أستطيع أن أتعرف حال الجو من أوراقها ! .. سأمهد للطفل مجلسا بين الاغصان ، ولن أخاف ضرا ، فانى آمنها عليه ! »** .. ورآه بيرتون وهو يرفع الطفل الى البلوط ، فاشتد به الذعر ، وأمسك بذراعه يستحلفه ان لا يفعل ، مرددا : « انك تفتح الباب للشر والاثم ، ولن يفلتك الرب من العقاب ! » . فضحك جوزيف قائلا : « اذن ، دعنى أتلق العقاب ! » . فقال بيرتون : « ولكنه لن يحيق بك وحدك ، بل سينزل علينا جميعا ! » .. واتهمه بالكفر ، فاحتج جوزيف منكرا ، فصاح بيرتون : « وما قولك فى القرابين التى تعلقها

بالاغصان .. والدم الذى تريقه على الجذور ، وتسللك بالليل لمناجاة الشجرة ؟ .. وماقولك فى تقديم ابنك البكر اليها ؟ » .. وصاح جوزيف محتدا : « انما أمارس عملا يطيب لى ، فأى ضير فى ذلك ؟ »

وأشاح عنه بيرتون قائلا : « لقد حاولت أن أساعدك على الخلاص ، فما دمت مصرا ، فاننى أنبذك وأبرأ منك .. ولن أبقى هنا ، حتى لا أتحمل وزرك ! » .. وكانت اليزابيث تقف واجمة .. واستطرد بيرتون قائلا لاخيه ، وهو ينظر الى الطفل : « لقد كان الكفر مغروسا فى نفس أبينا من قبل ، وكانت آخر كلماته أبعد الاقوال عن تعاليم المسيحية .. وهذه الجبال مفعمة بالشر والخبث .. ان حب الارض قوى السلطان عليك يا جوزيف ، حتى انه ينسيك الآخرة ! » .. وسار الى داره ، بينما رفع جوزيف الطفل فأسلمه الى غصنين متعانقين .. والتفت بيرتون خلفه ، قبل أن يلج داره ، فرأى الاغصان تحنو على الطفل !

– « ٩ » –

• **ما ان** غاب آخر أثر للعربة التى رحل فيها بيرتون مع زوجته وولديه ، حتى سيطر على الاسرة وجوم حزين .. وقال جوزيف وهو منكس الرأس : « لقد كنت السبب فى رحيله .. أو – بالاحرى – كانت الشجرة هى السبب ، اذ قال اننى أعبدها ! » . وتطلع الى الشجرة ، ثم جمد فى مكانه لحظة ، وما لبث أن جرى اليها ، فتحسس جذعها ، وقال : « توهمت ان ضرا مسها .. ماكنت أحب أن يرحل بيرتون ، فلسوف يتمزق شمل الاسرة ! » . ونصحته اليزابيث – اذ رأته حزينا – بأن ينطلق على جواده الى البلدة ليسرى عن نفسه ، فتطلع الى الشجرة وقال : « اننى أخشى الرحيل .. بنفسى شعور بأن مكروها يوشك أن يقع ! » .. **فقالت**

البزابيث : ((لاتسرف فى الوهم ، وفى الانصياع لسلطان الشجرة !)) . ولكنه هز كتفيه قائلا : ((أنبأتك مرة بأن فى وسعى أن أعرف الجو خلالها ، فهى كالسفير بين الارض وبينى .. الا أنظرى اليها .. أترينها على حالها المألوفة ؟)) .. فقالت : ((انها بخير !))

وانطلق ـ تحت الحاحها ـ على صهوة جواده ، وهو يقول لنفسه : ((لعلى كنت آثما ـ كما قال بيرتون ـ دون أن أفطن .. ان ثمة شرا يرفرف فوق الارض ، وكم أتمنى لو تبكر الامطار بالهبوط !)) .. ولاح له مجرى النهر جافا ، حزينا ، فتاقت نفسه الى الدغل والصخرة والنبع النمير المنساب من الكهف !

وكان توماس فى انتظاره عندما عاد فى ساعة متأخرة من الليل ، ولكنه هرع الى البلوطة فى جزع ، وهتف لنفسه : ((لقد أصابها سوء ، فلا أكاد أرى فيها أثرا للحياة !)) .. وراح يتلمسها ، ولكنه لم يجد مايحقق هواجسه !

وفى جوف تلك الليلة ، تسلل الى التل ، فتحسس الارض ، واذا هى لاتزال تنفث حرارة النهار .. كانت جافة ، تتعطش الى المطر ، وان ظلت تنبض بالحياة .. وعرج على الشجرة ، فربت جذعها قائلا : ((كنت خائفا ياسيدى .. كان فى الجو نذير بشر مستطير أزعجنى !)) .. وفجأة ، شعر ببرودة ووحشة ، وصرخ ذهنه : ((انها ميتة !)) .. وكانت الصدمة قاسية ، فتكالب عليه الحزن الذى لم يستشعره حين نعى اليه أبوه .. وأحاطت به الجبال كأشباح سوداء ، وأطبقت عليه السماء وكأن نجومها ترمقه متجهمة .. وظلت الارض تحته صامتة ، باردة ، وكأنها تتحفز لتنكره .. وشعر بجذع الشجرة متيبسا كجثمان الميت ، فهتف فى نفسه : ((ترى ما الذى أفعله ؟ .. والى أين ألجأ الآن ؟))

ولاحظ ان أوراق البلوطة تتقلص .. وأقبل توماس يحفر

التربة عند جذعها ، فألفى ثغرة تفصل الجذع عن الجذور الراسخة ، واذ ذاك ضحك محنقا ، وقال : « لابد ان بيرتون قتل شجرتك قبل رحيله ، ليطرد الشر ! » . وأقبل جوزيف ينبش التربة فى يأس ، حتى خارت قواه ، فجلس على الارض رازحا تحت عبء الاسى والهم والوحشة .. وسرح بصره نحو دغل الصنوبر ، ثم قال لنفسه : « يحسن بى أن أسرع الى هناك ، أستمد قوة وانتعاشا ! »

* * *

واشتدت البرودة ، وأخذت السحب تتجمع ثم تتفرق ، دون أن يهطل المطر .. وكانت البلوطة تزداد شحوبا وجفافا ، وقد كف جوزيف عن التطلع اليها ، وكأنما ذهبت بموتها كل عاطفة تملكته نحوها . وكان لاينفك يرقب الجو ، ويتحسس التربة ، ثم يقول فى شجن : « انها فى حاجة الى سيل ، فقد امتص الصيف منها كل قطرة ندية ! » . فلما انقضى نوفمبر دون مطر ، اشتد القلق بجوزيف ، وراح يطوف على فرسه بعيون الماء والآبار ، يتبين مدى الجفاف .. حتى اذا انتصف شهر ديسمبر ، انقلب الجو وكأن الصيف قد عاد ! .. كانت البرودة تشتد بالليل ، ولكن الحر كان يفتت طبقات التربة فى النهار ، ويثير الغبار الخانق ! .. وكانت اليزابيث تلاحظ جوزيف فى قلق ، اذ اشتد به الهزال والنحول ، وهو يرقب الارض تحتضر لفرط الجفاف ، بينما كان الهم والحزن يستبدان به !

وقالت له اليزابيث يوما : « كم أتوق الى امتطاء الجواد ، فهلا صحبتنى الى الدغل .. لقد ذهبت الى هناك وأناحامل ، فخيل الى أن السلام والطمأنينة يسيطران على المكان ، فأحسست اننى أحب الصخرة ، حبا لا قبل لى به .. يفوق حبى لنفسى ولك وللطفل ! » . وتلفتت حولها بجزع ، ثم

أردفت : « ومكثت هناك الى الغروب .. وفجأة ، تغير الجو وشاع فيه شر خفى .. كأن روحا خبيثة أرادت أن تقضي على ! » .. فلمعت عينا جوزيف وسألها : « فلم تبغين العودة اليها ؟ » . وأجابت : « لاقنع نفسي بأن الامر كله كان وهما ! » .. وسادهما صمت ، اذ تذكر جوزيف ما قصه عليه « جوانيتو » من أن الهنديات اعتدن أن يحججن الى الصخرة اذا ماحملن !

وخرج من الدار ، فلما بلغ الشجرة تذكر انها ماتت .. فتمنى لو انها ظلت حية !

وعندما تهادت الشمس مشرقة ـ فى الصباح التالى ـ يمم جوزيف واليزابيث شطر الدغل على جواديهما، تاركين طفلهما فى رعاية « راما » . واذ خلفا التل ، أبصرا بقرة ميتة ، تجمعت عليها الجوارح تنهشها .. وصادفهما كثير من الاغصان الذاوية ، والاشجار الجافة .. وكانت تحيط بالشمس هالة من ضباب ، وفى الريح برودة ، ولكن السماء كانت خالية من السحب . وخلفا جواديهما خارج الدغل ، وأسرع جوزيف ملهوفا الى الجدول ، ثم صاح : « **انه لم يجف ، وان انخفض ماؤه ! .. كأنما الارض لم تمت ، مادام هذا الشريان حيا !** » .. وتوغلا فى صمت حتى بلغا الصخرة ، فاذا بها لا تزال مكسوة بالاعشاب الخضراء ، فقال جوزيف : « لا بد ان النبع فياض ، والا مابقى عشب الصخرة أخضر ! » .. وربطت اليزابيث جوانب الصخرة فى مرح ، ثم أصرت على ان تتسلقها .. واذا بقدميها تنزلقان من فوقها ، ثم هوت !

وهرع جوزيف الى جوارها ، فاذا هى تنقلب على جنبها .. واختلج جسدها فى عنف ، ثم تراخت أعضاؤها .. ووقف مشدوها لبرهة ، ثم هرع الى الجدول فاغترف من مائه حفنة وعاد مسرعا . ولكنه ترك الماء يتسرب من بين أصابعه، اذ تبين أنها لفظت آخر أنفاسها .. وسرت فى جسده

فشعريرة باردة ، وقال بصوت عال : « لست أدرى ماهذا .. لقد وقع كل شىء فى بساطة وسرعة .. فى ثانية واحدة توقفت هذه الحياة .. كلهذه الافكار، والمشاعر، والحيوية !» .. وذعر حين ألفى سكينة باردة تسرى الى فؤاده ، فود لو استطاع أن يصرخ أو يبلكى .. وأحس بقطرات تتساقط على وجهه وعلى وجنتى اليزابيث الشاحبتين .. وتبين ان المطر يتساقط برفق ، فغمره هدوء بارد ، وهتف : « وداعا يا اليزابيث ! » . وأثارت قطرات المطر الغبار الراكد .. وتناهت الى مسمعه وسوسةالمياه فى الجدول ، فأخذجوزيف يتلمس الصخرة فى وجيف ، ثم تطلع الى قمتها ، وكأنما بعث المطر الحياة فى المكان .. وربت الصخرة ، وهتف فى حنان : « الآن عرفت أنكما اثنتان .. ذهبت واحدة . ومكثت أنت لالوذ بك ! »

وحمل جسد اليزابيث على كتفه ، وامتطى أحدالجوادين، وساق الآخر أمامه ، وراح يفكر فى اليزابيث ، وفيما كانت ترويه له من قصص الاقدمين .. لقد كان « هوميروس » يعيش قبل مولد المسيح بتسعمائة سنة .. قبل مولد المسيح ! .. أواه ، أيتها الارض ! .. أنت الاولى وأنت الباقية ! .. كل القوى تتجمع وتتركز فيك وتصبح قوة واحدة شديدة ، لن ألبث أن أنطوى بين اردانها ! .. وكان توماس فى استقباله حين وصل ، فبهت لحظة ، ثم أدرك كل شىء ، فتناول الجثة منه ، وقال : « لا تتكلم الآن ! .. دعها لى وأذهب الى (نيوسترا سينورا) واشرب حتى تثمل ! »

وتحول « توماس » الى داره وهو يبكى .. للمرة الاولى مذ فارق الطفولة ! واتجه « جوزيف » صوب النهر ، فسار بطوله يرقب الجفاف .. حتى اذا هبط الليل ، سار الى الضيعة فى تثاقل ، وبنفسه خوف من البقاء بعيدا عنها بالليل .. وأحس أن الرابطة التي كانت تربطه بالارض قد

ازدادت توطدا بموت اليزابيث ، اذ أنها ستدفن فى جوفها ! .. وولج بيته المعتم ، فأشعل المصباح ، وأوقد نارا فى المدفأة .. كان كل شيء كما تركته اليزابيث فى الصباح .. فى كل جزء أثر يشهد بأنها لم تمت . فقال لنفسه : « حقا ، ان الموت عملية بطيئة ، فان الانسان لايموت الا اذا ماتت آثاره!»

وخفض ضوء المصباح ، واضطجع فى مقعد ، وراح يتأمل جسده ، فخيل اليه انه كسلسلة جبلية من خمس قمم تتخللها أربعة وديان فسيحة عامرة بالخضرة . وفوق أعلى قمة ، كان العقل الذى يدبر شؤون العالم ، والعينان ــ اللتان ترعيان جسد الارض ــ تشرفان على الوديان .. **وما كان العقل يفقه سر الحياة المتمشية فى جسد الارض ، وانما كان يدرك ــ فى ابهام ــ ان فى وسع الزلازل العنيفة أن تهز تلك الارض وتقضى عليها .. ولم يكن يملك سوى أن يستسلم للاغفاء بينما تظل الجبال والوديان فى سلام** .. وعلى هذه الحال تمر ملايين السنين وعقل العالم فى غفوته ، يداخله الحزن أحيانا اذ يدرك أن لابد له يوما من أن يتحرك فتهتز الحياة ، وتميد الجبال ، وتنهار البيوت ، وهو لايملك تفادى هذا المصير ، بل يتحمل المشاق فى جلد ، ليبقى فى غفوته .. **ولكن الارض لن تلبث أن تمل البقاء فى وضع واحد ، فتتحرك .. ويكون الزلزال الفظيع ، الذى يدمر ماعملته السنون !**

وارتد جوزيف الى الواقع ، على صوت خطوات « راما » التى رفعت شعلة المصباح قليلا ، وقالت : « شئت أن أراك ، فألفيتك لم تتغير ، وهذا كفيل بأن يشد عزيمتى ، اذ خشيت أن تتداعى .. مااراك قد عرفت اليزابيث كمخلوق آدمى ، فأنت لاتكاد تعترف بالاشخاص ، بل أنت تنظر للناس كما لو كانوا كتلة واحدة ، فأو الى فراشك ، ونم اذا استطعت !» .. وما ان أراح جسمه على الفراش ، حتى تخلصت حواسه من ربقة الفكر .. وفجأة ، أحس بوقع قدمين خفيفتين فى

حجرة الجلوس ، فأنصت فى تبلد وتكاسل ، ثم .. **بدت له « راما » عند باب المخدع ، عارية تماما ، كل شيء فيها كان مغريا ، وكانت أنفاسها متهدجة.. وهمست بصوت متحشرج، وهى تطفىء المصباح ، وتندس الى جواره : « انك بحاجة ماسة الى هذا ! »**

ونهضت أخيرا ، فأشعلت شمعة ، وتحسست جسمها وصدرها ، وهى تقول : « لطالما فكرت فى هذه اللحظة.. كنت أعيش بأملها ، وسأظل أعيش بذكراها ! » . فسألها : « ما الذى كنت تبتغين ؟ » .. فقالت وقد بلغت الباب : « لا شيء ! .. لقد نلت ما ابتغيت ، فأكملتك وصرت جزءا منك ! .. ربما .. وان كنت لا أعتقد ! »

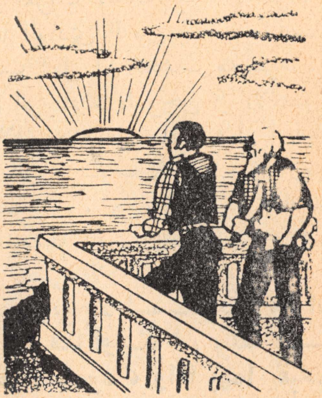
— « ١٠ » —

• **واشتد** هبوب الرياح القارسة ، مصحوبة بصقيع ، فى شهر يناير .. وأخذ جوزيف يقتر فى استعمال ماتبقى من الحصاد السابق .. وكان يقضى الليالى مع توماس يطوفان بالآبار ، ليحصلا على أقصى ما يتسنى لهما من ماء . فقد كان الجفاف يشتد أسبوعا بعد أسبوع .. فلما كان شهر فبراير ، هبط بعض المطر ، فنبتت بعض أعشاب ، ثم لم تلبث ان ذوت وذبلت .. وجاء شهر ابريل فقضى الجفاف على كل أمل فى النفوس ، ودب الهلاك فى الماشية ، وغابت الطيور عن جو الضيعة .. وما لبث ان جاء شهر مايو ،فشاع القيظ ، واشتد الجدب .. **وفى ذات يوم ، التقى جوزيف بروماس الكهل ، فسأله : « أهذه هى سنوات الجدب ؟ » . فقال الرجل : « انها أسوأ مامر بى من سنين ، وخير لك أن ترحل بما تبقى من ماشيتك ، قبل أن تنفق .. فان الشمس الحامية لن تبقى على عرق أخضر ! »**

وعاد « جوزيف » الى الضيعة وهو يحس بغصة وحسرة،

فقابله أخوه توماس ناعيا عشر بقرات نفقت جوعا وهزالا . وأردف : « دعنا نرحل عن هذا الوادى اللعين ! » .. فهز جوزيف رأسه ، وقال : « مازلت آمل أن تحدث معجزة .. ولكن . لا .. لم يعد ثمة مجال للرجاء ، فلنرحل فى الاسبوع القادم ، ولنذهب غدا نطف بالتلال بحثا عن ماء ، قبل أن نبدأ رحلتنا ! » .. وانطلقا فى غسق الليل صوب الغرب ، والارض تلفظ ما امتصته من حرارة الشمس .. وكانا يسمعان أمامهما رنين جرس كأنما ثمة بقرة تتقدمهما دون أن يرياها خلال الظلام . وأخيرا بزغت الشمس تصلى الارض شواظا حامية ، ولاح لهما كل ماحولهما قفرا .. **وترجلا ليستريحا ، واذا بهما يسمعان رنين الجرس ، وكانا قد أوشكا أن يبلغا قمة التل المشرف على البحر ، فتابعا الصعود ، واذا بهما يقبلان على بساتين مونقة ، وكروم برية مثمرة .. كانت الحياة تفيض على قمة التل .. ومسح توماس عينيه وقال . « ليتنا نحضر الماشية الى هنا ! »**

وقال جوزيف وهو يسرح بصره نحو البحر : « ترى من أين يأتى هذا الندى ؟ .. ان الضباب ينعقد فوق وادينا كل ليلة — حتى اذا طلعت الشمس ، انجاب وتبدد .. لقد يبست أرضنا ، ولكن هنا خضرة يانعة ! » . وهما ان ينحدرا على السفح الآخر ، فاذا بهما يصادفان شيخا أبيض الشعر ، تطلع اليهما بعينين حادتين ، ثم قال : « لعلكما أتيتما على صوت جرس البغل ؟ » .. وخيل لجوزيف أنه يعرف الرجل ، وان أيقن أنه لم يره من قبل .. وعاد الرجل يقول : « ان لى بيتا على خمسمائة قدم فوق البحر . أفأنبئكما بسر بقائى هنا ؟ .. **اننى آخر من يرى الشمس فى العالم الغربى ، فلا يراها بعدى أحد ! .. لقد قضيت عشرين عاما أرقبها عند المغيب ، وستريان الليلة سر هذا ! »** . واجفل توماس ، ولكن جوزيف سار خلف الكهل ، فتبعه أخوه وهو يشعر بالذعر الغريزى



الذى يداخل الحيوان .. حتى أقبلوا على بيت قائم على عمد ، تحيط به أشجار عالية ، وتقوم بجواره حظـيرة ربطت فيها خنازير .. وقاد الشيخ ضيفيه الى شرفة عند حافة الهضبة ، وقال : « لقد أشرفت الشمس عـلى المغيب ، ويجب أن أستعد ! » . وغاب لحظة . ثم عاد بخنزير أخذ يربته حتى اطمأن اليـه ، ثم طـرحه على صخرة ناعمة ، وتناول سكينا كبيرة ، وقد جعل وجه الخنزير صوب الشمس الآفلة .. **حتى اذا غابت، مخلفة دماءها تصبغ السماء وصفحة المحيط، أجرى الشيخ سكينه على رقبة الخنزير فذبحه !**

وكان جوزيف يرقبه ، وهو يقول لنفسه : « ترى ما الذى عرفه الرجل بتجاريبه ، فأوحى اليـه أن يقدم القرابين للشمس ؟ » .. وجلس الشيخ الى جواره وقال : « ان أخاك يظننى مجنونا ، ولكنك أعقل من أن تأخذ بظنه ، وأراك راغبا فى أن تعرف لماذا أرقب الشمس وأقدم لها القرابين عند مغربها، ولكنى لاأدرى . . **ان الشمس حياة ، وأنا أقدم حياة لحياة ، وقد جعلت مغرب الشمس رمزا للموت ، ولكنى أدرك أن هذا قد لا يكون صحيحا .. الواقع أننى أفعل ما أفعل لاننى أحب أن أفعله فحسب ! .. اننى حين أقدم أضحية ، أؤمن بأننى الشمس ذاتها ، وبأننى أحترق فى موتى ! »**

أولم يكن هذا شأنه هو ، مع الارض ؟ !

وبعد العشاء ، خرج الشقيقان فناما فى العراء .. وسادهما

الصمت طويلا ، ثم نادى جوزيف أخاه ، فلما وجده مستيقظا ، قال : « لن أرحل معكم الى المرعى يا توماس .. لا قدرة لى على أن أهجر الارض .. كأننى أفارق عليلا فى حاجة الى من يعنى به ! .. ولسوف تهطل الامطار فى الشتاء ، وينبت العشب .. لا قدرة لى على الرحيل ، فهذه أرضى ! »

★ ★ ★

وحان يوم الرحيل، فجلس جوزيف أمام داره عند الغروب ، يرقب الاستعدادات .. وتركت « راما » ما كان يشغلها من عمل ، وتسللت اليه ، فسألته : « لماذا تبقى ؟ » .. فسرح بصره نحو الدغل قائلا : « هناك ما يستدعى بقائى ! » . فأرسلت زفرة حارة ، وقالت : « أرجو أن تدعنى أصطحب ابنك .. اننى أريده .. أريده لنفسى ! » . فأشاح عنها ، وتطلع الى الشمس الافلة ، ثم تذكر الشيخ وقرابينه .. وقال أخيرا : « خذيه ، ولكن .. لماذا تريدينه ؟ » . فأجابت : « لانه ابنك .. جزء منك ! » . فسألها : « فهل تراك تحبيننى ؟ » . وتهدج صوتها وهى تجيب : « بل أوشك أن أبغضك ! »

وابتسم ، وأشار الى البلوطة التى استبد بها الذبول ، وقال فى حسرة : **« أنظرى يا راما ! .. لقد كنت أرى هذه الشجرة أبا للأرض ، ثم قتلها بيرتون .. وهنا كـ عند حافة الهضبة القصية ـ دغل تتوسطه صخرة .. هذه الصخرة قتلت اليزابيث ! .. وعلى التل قبرا « بنجى » و « اليزابيث » .. لقد طعنت الارض غدرا ، ولكنها لم تمت .. انها تغوص تحت قوة لا قبل لها بمقاومتها ، وسأبقى لاحميها .. واذا كنت أنزل لك عن الطفل ، فانما ذلك لاننى أرجو أن يساعد هذا على نجاه الارض ! »**

فسألته ذاهلة : « أتعنى أنك تضحى بالطفل قربانا ؟ »

– لست أدرى لعملى اسما ، ولكنى أساعد الارض !

وانصرفت عنه دامعة العينين ، وقد تولتها رهبة منه . وتطلع هو نحو الدغل ، وناجاه فى سره : « الآن أصبحنا واحدا .. ووحيدين . ولسوف نتعاون معا ! » ..

وفى الصباح ، ظل واقفا يشيع القافلة ، حتى غابت عن بصره ، ولسعته الشمس ، والاسى يعصر قلبه اذ فارقت الماشية الارض التى ولدت عليها ، وقد بدت البيوت ، والشجرة ، وكل شىء ميتا .. وأخذ يغلق أبواب الحظائر ، ثم أحكم قفل باب توماس ، وكأنه يغلق تابوتا على جسد ! .. وسمع وسط السكون صهيل جواده ، فأحس بألفة نحوه .. ودمعت عيناه لفرط وهج الشمس .. وأخيرا ، نهض متباطئا ، وسار الى الدغل ، فأقبل على الجدول وعب من مائه ، ورطب به وجهه ، ثم سار وسط الحشائش وقد فارقه بعض شعوره بالوحدة .. وسار الى الصخرة ، فرفع قبعته ، ووقف أمامها خاشعا . ولاحظ أن العشب الذى كان يكسوها قد ذبل ، اذ لم يعد ماء الجدول يصل اليه ، فاغترف حفنة نثرها على آثار قدمى اليزابيث .. **وخيل اليه أنه أصبح والصخرة كائنا واحدا ، فجلس فى ظلها ، وهو يفكر فى الارض المجدبة ويقول لنفسه: « هنا قلب الارض ، ولا يزال هذا القلب ينبض .. لقد غدت الارض ككلب أثار الظمأ وحشيته ، فلو استطاعت لابتلعت ماء هذا الجدول .. بل لامتصت دمى ! .. هنا سر حياة الارض ، فيجب أن نصونه من جنونها ، وأن نستخدم الماء فى صون القلب ! »**

ورجع الى البيت فى جنح الظلام ، فخيل اليه انه يسير فى دنيا نائمة .. ولكنه قفل عائدا الى الصخرة ، حاملا بعض المؤن ، والاغطية ، ودلوا يسقى به عشب الصخرة !

ـــ((١١))ـــ

• **وتوالت** أسـابيع القيظ ، وجوزيف يعيش فى عالمه الجديد ، فى انتظار الشتاء . ولم تنكسر حدة الصيف الا فى نوفمبر ، بعد أن تشققت الارض ، وذوت أطراف العشب الذى يكسو الصخرة ، رغم أن جوزيف ظل يعنى بريه .. وكان يقصد الى المدينة مرة كل أسبوعين ليتزود بما يحتاج ، فالفى ـ فى مطلع الشتاء ـ رسالة فى انتظاره من توماس ، يحدثه فيها عن وفرة المرعى ، ورخاء عيشهم فى المهجر !

ووجد الاعشاب التى تحت الصخرة قد ذبلت ، حين عاد الى الدغل . وروعه أن ماء الجدول قد ازداد انخفاضا . كان الماء القليل المنساب من الكهف المظلم يغيض وينضب رويدا. وخيل اليه أن أغصان الاشجار تهتز فى قلق ، فقال لنفسه فى حسرة وجزع : ((سينتصر علينا الجفاف !)) . **ونسى نفسه ، اذ وهب كل حواسه لمقاومة الجفاف وصده عن الصخرة التى آمن بأنها قلب الارض .. وغفل عن الزمن ، فلم يدر فى أى شهر أو فصل هو ! .. وذكر يوما القس الذى صلى فى الحفلة ، والذى رآه يسكب النبيذ على البلوطة ، وأدرك أنه فهم سره .. ذكر الاب ((أنجليو)) قس البلدة ، فتاقت نفسه الى أن يذهب اليه ، فقد يكون فى وسعه أن يصلى من أجل الارض!..**
ورأى صورة وجهه على صفحة الماء الذى ملأ به الدلو ليسقى الصخرة .. كان نحيلا ، بارز العظام ، سـقيما . وتذكر تمثال المسيح على الصليب .. كان ميتا ، ولكن وجهه لم يكن يعبر عن ألم . ولقد مات المسيح ، أما هو .. فلم يمت !

ورأى الماء قد ارتفع فجأة فى الجدول ـ ذات صباح ـ فبهت .. وتأكد من أن سطحه بلغ العشب الذى يكسـو الصـخرة .. **وراودت جوزيف الرغبـة فى أن يزور الاب ((أنجليو)) ـ وان لم يكن كاثوليكيا ـ فقد يكون ارتفاع الماء**

ظاهرة تسبق نضوبه نهائيا .. ومن ثم انطلق الى البلدة ، فاذا بها تبدو كأطلال مدينة عفى عليها الزمن ! .. ودق باب القس ، ففتح له هذا بنفسه ، واذا به شاحب الوجه نحيل ، ولكنه ابتسم مرحبا به ، وقاده الى حجرة صغيرة تراكمت فى أركانها الكتب ، وتناثرت على جدرانها صور القديسين .. وقال القس : « كنت واثقا من أنك ستأتينى يوما .. هل تخلت عنك الشجرة أخيرا ؟ » . فلاحت الدهشة على وجه جوزيف ، ثم قال : « لقد قتل أخى الشجرة ! »

ـ هذا عمل سىء ، اذ أنه قد يقوى سلطانها ..

ـ ولكنها .. ماتت !

ـ اذن ، فقد عدت الى حظيرة الكنيسة ؟

ـ بل جئت لكى أسألك أن تصلى كى يهبط المطر . لقد نشأت ، وأنا أسمع عن كنيستكم ما لا يجعلنى أرغب فى الانتساب اليها ، ولكن الارض تحتضر .. فصل من أجلها :

ـ بل سأساعدك بأن أصلى من أجل روحك يا بنى .. لسوف يأتى المطر ، فقد صلينا من أجله .. ان الله ينزل الغيث ويمسكه بحساب !

ـ وكيف تعرف أن المطر سيأتى ؟ .. ان الارض تموت !

ـ بل ان الارض لا تموت .. انك مريض يا بنى .. جسمك معتل وروحك سقيمة !

ـ نفسى ؟ روحى ؟ .. ليذهبا الى الجحيم ، ان الارض تموت .. كان يجب أن أتوقع هذه النتيجة ..

وانصرف ساخطا ، فقال القس : « الحمد لله ان ليست له رسالة ، فلن يذكره أحد ، والا لكان نبيا آخر ! » . وسعى الى الكنيسة يصلى الى الله فى حرارة !

— « ١٢ » —

• **وكان** الظلام قد هبط ، وجوزيف على صهوة جواده .. وبزغ القمر ، ولاحت الجبال وكأن قممها من فسفور ترسل لهبا أزرق اللون ، هادئا ، باردا .. وتذكر جوزيف اليوم الذى باركه فيه أبوه .. وتذكر أنه أحس يوما بأن روح أبيه تملأ الارض ، وتتقمص كل صخرة ، وكل شجرة ، وكل عرق من العشب . وهتف يحدث نفسه : « لا بد من تغير قريب ! » .. وصفعته ريح من الغرب محملة ببقايا الاشجار .. وترجل عن جواده حين بلغ الدغل ، فسار فى بطء .. **واذا الجدول والكهف قد جفا ! .. وأحس بأنه متعب .. واشتد هبوب الريح مولولة .. وشعر باليأس يحتل قلبه ، وقد أدرك أن لا قبل له بصراع الجفاف !**

وطلعت الشمس خلال جو مغبر ، ففكر فى أن يصعد الى الصخرة فينام فوقها ، واذا به يفطن الى بقرة ميتة ، انقضت عليها الجوارح ، والى جوارها عجل وليد واهن .. **وخطرت له فكرة ، فسار الى الجدول ، ووضع رأس العجل فوق المجرى الجاف ، ثم ذبحه فانساب الدم وخضب أرض المجرى .. وابتلعت الارض الدم .. وفكر جوزيف فى الشيخ الذى يرقب مغرب الشمس ، ثم هز رأسه ، وقال : « ان سره لا ينفع غيره ، فلن تجدينى وسيلته ! »**

وغمرت الشمس المكان ، فرأى — على ضوئها — الذبول يدب حوله .. وملأه الذعر وهو يرى عشب الصخرة ميتا ، فقال : « لقد مات هذا أيضا ، وبقيت وحيدا .. لماذا أمكث فى هذا المكان الميت ؟ » . وفكر فى المراعى التى هاجر اليها أهله ، فتملكه الخوف اذ تخلت عنه الصخرة بدورها .. وهرع الى جواده ، ولكن الجواد لم يكد يراه حتى ذعر وأجفل ، وكأنما لاح له شبح رهيب أو شيطان مريد ، وقطع مقوده

وركض مبتعدا . ووقف جوزيف يرقبه وهو يبتسم .. وعادت السكينة تمحو الوجل عن قلبه ، فارتد الى الصخرة ليتسلقها وينام . وأحس بألم فى رسغه ، واذا بخدش صغير .. وازداد الهدوء الذى تملكه حين رأى الجرح .. وانطرح فوق بقايا العشب على الصخرة ، حتى اذا استراح قليلا ، تناول سكينا ، وقطع شرايين رسغه برفق . وانتابه ألم حاد لم يلبث أن هدأ .. وأخذ جوزيف يرقب الدم القانى الذى انحدر على عشب الصخرة !

وسمع الريح تعصف خارج الدغل ، واكفهرت السماء .. وظل راقدا على جنبه ، باسطا ذراعه المجروحة ، متأملا جسده الذى بدا كسلسلة من الجبال .. وبينما كان وجهه يشحب ، خيل اليه أن جسده كان يزداد ضخامة ، بينما كان وزنه يخف .. وتوهم أنه يرقى الى السماء ، ثم ينسكب مطرا دافقا ، فهمس لنفسه : ((كان يجب أن أدرك ذلك .. انا المطر !)) . وأطل من فوق جبال جسمه ، فأحس بالمطر يهمى سيلا غزيرا ، يبل التربة .. ثم وخز ألم حاد قلب العالم ـ كما تصور قلبه ـ فهمس : ((أنا الارض .. وأنا المطر !))

واشتدت العاصفة ، وهطل المطر مدرارا

• • • • • • •

وفى المدينة ، كانت البقية الباقية من الناس ثملة ، أخرجتها الخمر عن الوعى فراحت ترقص ، وتغتسل فى ماء المطر ، وتتمرغ فى الوحل . وتولى الغضب الاب أنجليو لهذه الاعمال الهمجية ، ولكن فرحتهم بالغيث ، ردتهم الى الفطرة الاولى ، وأنستهم تعاليم الدين !



هكذا نشأت الحياة!

للعالم البحاثة الروسى : أوبارين

تلخيص : فوزى الشتوى

الموضوع الذى شغل الانسان منذ القدم

◆ **ظل نشوء الحياة على الأرض من أكثر الموضوعات استهواء للعقل الانسانى ، منذ فجر البشرية ، وقد ازداد العقل توسعا فى بحثه ومحاولة التغلغل فى أعماقه ، بتقدم العلم وأساليب البحث والاستقصاء .. وكان من جراء ذلك أن ظهرت عشرات النظريات التى حاول العلماء أن يفسروا بها كيفية ظهور الحياة على الأرض . على أن أحدث هذه النظريات وأقربها الى الواقع العلمى ، هى نظرية العالم الروسى « أوبارين » ، التى نشرها أخيرا - وبعد دراسة استغرقت عشرات السنين - فأثارت ضجة فى المحافل العلمية ، وأثبتت حقائقها ومنطقها انها جديرة بتقدير الجانب الاكبر من علماء العالم ..**

وفيما يلى ، نقدم لك هذه النظريه مبسطة تبسيطا يجعل من السهل على كل قارىء فهمها ، دون أن ينال هذا من قيمتها العلمية ..

كيف نشأت الحياة على الارض

• **سؤال** داعب الناس منذ خلقوا، وناقشته شتى المذاهب الفلسفية والديانات من قديمة وحديثة ، ففسرته كل منها وفقا لتعاليمها ومبادئها ، وعلى هدى علمها .. وكانت فى ذلك تخضع - فى الغالب - لمنطق الناس وميولهم ، ولا تقوم على أسس البحث العلمى التى نعرفها فى القرن العشرين .

وفى القرن السادس - قبل مولد المسيح - ظهرت فى (اليونان) مدرسة الفلسفة المادية ، التى رأت ان **الحياة من الخواص الاولية للمادة ، ومن ثم فان العالم كان ينبض بالحياة دائما** .. وجاء « انكساجوراس » اليونانى ، فقال ان جرثومة الحياة شائعة فى الكون كله ، ومنها ظهرت شتى أنواع الاحياء ومنها الانسان ! .. وقد ظلت فكرة « جرثومة الحياة » وشيوعها تنتقل من جيل الى جيل ، حتى احتضنها كبار رجال الدين المسيحى ، ومن أشهرهم القديس

« أوجستين » الذى نادى بأن العالم مملوء بالجراثيم الخفية للحياة ، ومنها ظهرت جميع الكائنات الحية !

على ان نظرة الكنيسة انحرفت فى القرون الوسطى ، حين قال المثقفون والفقهاء ان الارض هى مركز الكون ، وان الحياة قاصرة على نطاقها الضيق.. أى لا حياة الا فى هذا الكوكب . وقد التقى هذا الكلام ـ الذى يوحى بأن الانسان هو سيد المخلوقات ـ بالغرور البشرى فكان كارثة للمفكرين . **وظلوا مدة طويلة لايجرؤون على التفكير فيما يخالف التعاليم السائدة التى لبست مسوح الدين .. وكانت كل فكرة تخالفها ، تعرض صاحبها لان يتهم بالكفر والزندقة ، ولان يلقى فى غياهب السجون ، أو يحرق حيا !**

ويظهر مدى تعصب الكنيسة بأجلى معانيه ، فى معاملتها للفيلسوف « جيوردانو برونو » ـ فى القرن السادس عشر ـ اذ آمن بتعاليم « كوبرنيكوس » فى أن الارض كوكب من عدة كواكب تدور حول الشمس ، وقال ان هناك كثيرا من الشموس ، يدور حول كل منها عدد من الكرات الارضية ، كما هى الحال فى شمسنا وكواكبها السبعة .. **وهذه الكرات أيضا مسكونة بمخلوقات حية !** ولكن الكنيسة كانت تؤمن بأن الارض مركز الكون ، وأن النجوم والكواكب ليست الا أجساما مضيئة خلقت لخدمة الانسان ، الذى خلق على صورة الله وشاله . وتبعا لهذا الاعتقاد اعتبرت أراء «برونو» زندقة والحادا ، فأحرقته !

صراع بين رجال الفكر ورجال الدين

• **ولكن** الصراع الذى بدأه « برونو » لم يخمد .. فما ان بدأ القرن السابع عشر ، حتى ظهر المفكر « جاليليو » ، وساهم بأكبر قسط فى تنوير الاذهان وحملها على الايمان بالحقائق والتخلى عن شتى ألوان التضليل الخاصة بتركيب الكون ونظام الكواكب فيه . وكان جزاؤه على تفكيره المتحرر ،

أن عاقبته محاكم التفتيش .

وتعاقب المفكرون الاحرار ، فكان كل منهم يلقى نصيبا من اضطهاد رجال الدين له ، ومحاربتهم اياه فى شتى بلاد أوروبا .. **وكان هذا الاضطهاد لكل مفكر ، سببا فى الربط بين الدين والاراء والنظريات البالية ، حتى ظهر الدين فى غير حقيقته ، كعدو للحقائق !**

ولما اشتد الضغط على رجال الدين – على مر الاعوام – لم يجدوا مفرا من تهذيب آرائهم ، والتوقف عن اضطهاد المفكرين والعلماء ، مما سمح للعالم « برنار دى فونتانيل » – سكرتير أكاديمية العلوم الفرنسية – أن يصدر فى عام ١٦٨٦ كتابا يشرح فيه بلغة شعبية أحدث النظريات والحقائق عن تركيب الكون ونظام توزيع الكواكب فيه ، مؤكدا ان الحياة توجد فى شتى أنحاء هذا الكون الفسيح .

ولقد ذهب « فونتانيل » فى استنتاجاته الى أبعد مما ذهب « كوبرنيكوس » ، فقال ان كواكب الكون مسكونة بأحياء مفكرة .. ولكى يتجنب غضب رجال الدين ، دلل على صحة آرائه بأن الله كلى القدرة ، وانه ليس من المعقول أن يخلق كل هذا الكون ثم يؤثر الارض وحدها بالحياة المفكرة .. وعلى هذا الاساس قبلت الكنيسة الفكرة الجديدة ، وقام من رجالها من ينادى بها ، لان الحياة هى الهدف الاسمى للخلق ، وهى تدب فى الكائنات لتمجيد الله

العلم يتحرر ليكشف سر الحياة والموت

• **والتقى** العلم فى القرن التاسع عشر بهذه الاراء وغيرها ، فظفر بحريته ، وبدأ يبحث عن مزيد من الحقائق بدراسة الشروط اللازمة لنشوء الحياة واستمرارها . وكانت مشكلة .. بل مجموعة من المشكلات ، فنحن لانزال عاجزين – رغم كل ماظفرنا به من علم ووسائل دراسة – عن الوصول الى

قرار حاسم عن كيفية نشوء الحياة على الارض التى نعيش عليها ، ونستطيع دراستها عن قرب . وأفسح التخبط فى هذه الدراسات والاسراع فى الاستنتاج والتدليل ، مجالا جديدا للتكهن ، فظهر علماء نادوا بأن الحياة لاتنشأ من المواد الميتة ، بل الذى يحدث هو العكس، اذ ينشأ الموات من الحياة !

وبطبيعة الحال أهملت هذه النظرية ، اذ أثبت العلم وجود حلقة متصلة ، تتشكل فيها المواد بين الحى والميت . **فالمواد الميتة يمكن أن تتحول الى مواد عضوية والى أحياء ، وهذه بدورها تموت وتنحل وتصير ميتة لتتحول بالعوامل والتفاعلات المختلفة الى مواد حية ..** فالخلق الآن — على أرضنا — شديد التعقيد ، حتى أن بعض العلماء يرون أن الفوارق بين الحياة والموت تافهة وعديمة القيمة من الناحية العلمية المحافظة !

عودة الى .. « جرثومة الحياة » !

• وفى أوائل القرن الحالى ، بشر العالم السويدى « أرهينيوس » بأن **جرثومة الحياة** منتشرة فى الكون كله ، وأنها تتنقل بين الكواكب بسرعة كبيرة ، **فاذا ما وجدت الظروف الملائمة لنموها استقرت ، ونشأ الاحياء ، وظهرت العوالم .** ورغم أن هذه الفكرة تقابل باعتراضات علمية مختلفة ، فان عددا كبيرا من العلماء يؤيدونها ، ويرونها الحل المعقول لنشوء الحياة الابدية الازلية فى عرفهم

ويرى بعض الفلكيين — وعلى رأسهم العالم « جيمس جينز » — أن الحياة ظهرت على الارض بمحض المصادفة ، وهى مصادفة نشأت عن مصادفة أخرى غريبة شاذة يندر أن تحدث فى الكون .. اذ اصطدمت شمسنا بكوكب آخر ، فانفصل منها جزء هو الارض التى مرت بدورها بظروف غريبة شاذة أدت الى نشوء الحياة . **ويقول الفلكيون أن اجتماع**

مثل هاتين المصادفتين يكاد يكون من الامور المستحيلة ، بسبب دقة النظم التى تخضع لها الكواكب فى مداراتها وسيرها !

وبالرغم مما ظفرت به نظرية « جيمس جينز » من احترام الهيئات العلمية ، فانها لم تعش طويلا ، وظهرت بعدها نظريات أقرب الى المنطق العلمى والفلسفى . وخلاصة أهمها وأحدثها : ان ظهور الكواكب - كالزهرة والارض والمريخ وزحل وغيرها - مسألة عادية تنشأ من التطورات الطبيعية للاجسام الغازية الضخمة ، التى تتحول مع مرور الزمن ، وبفعل الدوران ، من كرات الى شبه عدسات محدبة تبرد أطرافها ، بينما يظل الوسط ملتهبا ، وتؤلف أجساما صلبة تحتفظ بصلتها بأمها وتظل فى دورانها حولها

ولقى نشوء الحياة بالمصادفة اعتراضات جمة . فقال العالم الروسى « أنجلز » أن الحياة مادة فى طبيعتها ولكنها ليست من خواص كل المواد ، فهى شكل معين للحركة ، وهى أحد أشكال الاجسام البروتينية التى تمتاز بعملية الاحتراق الغذائى الدائمة ، وفيه تشترك المواد المحيطة بها .. وتتوقف الحياة بانتهاء عملية الاحتراق الغذائى ، مما يؤدى الى تحلل المواد البروتينية . **وبهذا جعل أنجلز المواد البروتينية بمثابة المواد الحاملة للحياة ، وجعل عملية التغذية كشكل خاص لحركة المادة !**

وخلاصة القول أن الاتجاه العلمى لم يعد يوافق على مسألة « جرثومة الحياة » أو تنقلها من كوكب الى آخر ، بل أصبح يميل الى القول بأن الحياة من الصفات التى تستطيع المادة اكتسابها اذا ما تعرضت للظروف الملائمة لتحركها بشكل معين ، فاذا ما ظهرت الحياة فى بيئة ما ، تأثرت وداومت السعى للظفر بأكبر جانب من الفائدة من هذه البيئة .. وهو ما يسمى بعملية التطور أو التأقلم ، وهى التى جعلت الاحياء تختلف اختلافا بينا ، نراه على الارض رغم تشابه بيئاتها

دراسة الملموس

• **واتجه** العلم الى دراسة الحياة الماثلة أمام ناظريه ، أى على كوكبنا الارضى ، باعتبار أنه اذا كانت هناك صلة ما بيننا وبين الكواكب الاخرى ، فانها عبر تلك الرسائل التى تصل الى الارض على هيئة شهب ونيازك . **يقول بعض العلماء أنها أجزاء من كواكب أخرى ، وأنها السفن التى تركبها جرثومة الحياة ، وتتنقل من كوكب الى آخر** . وتعزز رأيهم هذا فى عام ١٨٥٧ حين درس العالم « فوهلر » نيزكا سقط فى (المجر) ، ووفق الى أن يستخرج منه مادة عضوية أثبت تحليلها أنها تتألف من مواد كربونية شديدة التعقيد .. والكربون كما تعرف هو المادة الاساسية للحياة على الارض ! .. وقد تكررت الظاهرة نفسها فى نيزك آخر سقط فى جنوب افريقيا ، ثم فى ثالث سقط فى روسيا !

وفى عام ١٨٨٩ تمكن العالم « خرسون جويرنيا » من فصل مادة عضوية تشبه مخلفات الحشائش المتفحمة ، من أحد النيازك . وكان من المعروف أن لا سبيل لنشوء مثل هذه المادة فى الطبيعة الا بواسطة أحياء ، مما دعا بعض العلماء الى القول بأنها البقايا المتحللة لبعض الاحياء التى كانت تعيش على الكوكب الذى انفصل منه النيزك . ولكن هذا الاستنتاج ما لبث أن تلاشى ، اذ أثبت بعض الكيمياويين أن هذه المواد العضوية يمكن أن تتألف فى الطبيعة من المواد غير العضوية مثل كبريتات الحديد والنيكل والكوبالت .. وهى توجد عادة فى الشهب النيازك . ودلت الدراسة أيضا على أن هذه المواد العضوية تظهر عند صهر الحديد فى درجات حرارة يستحيل أن تقوم فيها للحياة قائمة !

وقد بذل العلماء جهودا كبيرة للعثور على ميكروبات فى النيازك ، ولكن أحدا لم يهتد الى شيء منها ، حتى أعلن العالم

« ليبمان » - فى عام ١٩٣٢ - أنه عثر فى النيازك على مستعمرات ميكروبية شبيهة بالميكروبات الارضية . ورغم أن العلماء قلدوه فى بحثه الا أن واحدا منهم لم يظفر بنفس نتيجته ، فرجحوا أن الميكروبات تسللت بطريقة ما الى بحثه ، لا سيما ان الميكروبات التى عثر عليها شبيهة جدا بالميكروبات الارضية .

على أن هذه البحوث - وان لم تسفر عن نتيجة تؤيد أو تنفى ظهور الحياة ووجودها فى العوالم الاخرى ، كما أنها لم تبت بقول حاسم فى مسألة جرثومة الحياة - فهى قد ألقت أضواء جديدة على احتمالات نشوء الحياة ، **فعرفنا أن المواد العضوية يمكن أن تنشأ من مواد غير عضوية ، وهى احدى الحلقات الهامة التى أتاحت القول بامكان صنع الحياة فى المعمل . وان كنا لم نصل بعد الى هذه النتيجة !**

ولقد قيل أن البيئة هى كل شىء ، وأنها تلون الحى وتشكله أو تقضى عليه .. وبعض الاحياء الدقيقة تمتاز بصفات غريبة ، فهى تعرف كيف تؤلف البيئة الملائمة لها ، فاذا حفظتها فى درجة حرارة أقل من حاجتها ، فانها ترفع درجة الحرارة فى منطقة محدودة حولها . بل أن الانسان نفسه يعيش فى جو درجة حرارته أقل من الصفر ، ومع ذلك يحتفظ داخل جسمه بدرجة حرارة ٣٧ مئوية ، وهى الحرارة الملائمة نشاط خلاياه وأنسجته . **وبسبب هذه الصفة ، يثق العلماء من قدرتنا على الحياة فى القمر رغم اختلاف بيئته اختلافا كبيرا عن بيئة الارض ، ورغم ما يقال من استحالة احتوائه على ألوان للحياة شبيهة بالحياة الارضية**

هذه الحياة المعقدة على أرضنا هى المجال الوحيد الذى يتيح لنا معرفة كيف نشأنا . ومن الجائز أن تكون هى المفتاح لمعرفة نشوء الحياة فى أى كوكب آخر ، فان التشابه فى مادة الكون كبير ، وان اختلف فى بعض التفصيلات

الماء والكربون أهم عنصرين للحياة

• **والاحياء** ـ كما عرفناها على كوكبنا ـ تتألف من ٧٠٪ من الاكسجين ، و ١٨ ٪ من الكربون ، و ٥ر١٠ ٪ من الايدروجين ، و ٥ر١ ٪ من الازوت والكالسيوم والبوتاسيوم والسليكا وغيرها من المواد .. ومن التركيب الكيمياوى للاحياء ، يظهر أن الماء والكربون هما أكثر العناصر سيادة فى بناء الاجسام الحية . والماء هو أبسط مركبات الجسم ، وأكثرها انتشارا فيه ، فهو الوسط الذى تتم فيه عملية الاحتراق الغذائى ، التى تزود الحى بالوقود اللازم لنشاطه ، وبالمواد اللازمة لتجديد أنسجته ونموها . **ويشترك الماء مع شتى المواد الاخرى فى بناء المواد البروتينية وعمليات التخمير وغيرها من التفاعلات الكيمياوية التى يستحيل أن يعيش الحى بغيرها ، نظرا لاهميتها فى انتفاعه بالهرمونات والفيتامينات والاحماض الامينية وغيرها .**

وتشترك شتى العناصر المادية فى تكوين الجسم الحى ، اذ تتحول الى مواد عضوية تلعب أهم دور فى الحياة حتى أننا لم نستطع العثور على أى كائن حى خال من مركباتها . كما أنه من المتعذر تصور أن تتم عملية الاحتراق الغذائى بغير مواد عضوية . **وعلى هذا الاساس ، لا نجد مفرا من اعتبار ظهور المواد العضوية وتكوينها هو أول مرحلة تمهد لنشوء الحياة !**

وتحصل الحيوانات على المواد العضوية الضرورية لحياتها بأكل النبات ، أو بأكل حيوانات أخرى تعيش على النبات .. فالاحياء كلها ـ بما فيها الانسان ـ عالة على مملكة النبات تقريبا ، فيما عدا مجموعة قليلة من الميكروبات العديمة اللون ، التى تستطيع تحويل مادة ثانى أكسيد الكربون الى مادة عضوية باستخدام الطاقة الناتجة من عملية التأكسد فى مركبات الكبريت والحديد والازوت

ولقد تكونت جميع المواد العضوية الموجودة الآن فى كرتنا

الارضية ، عن طريق الاحياء ، فان الاحياء أساس الفحم والزيت وغيرها من الحفريات العضوية التى نشأت عن تحلل الاحياء التى كانت تعيش على الارض فى العصور الماضية .

مواد عضوية بدائية فى الكواكب الاخرى

• **ولقد** ظل كثير من علماء الطبيعة يأبون أن يؤمنوا بامكان تكوين المادة العضوية بغير حياة . على أن تشبثهم انهار فى السنوات الاخيرة ، اذ أمكن صنعها فعلا — فى المعامل — بغير أحياء . كما بينت الدراسات أن المواد العضوية السائدة فى كوكبنا الآن ، انما تكونت بشكلها الحالى — وكثرتها — بعد فترة تطور طويلة مرت بالاحياء . وكذلك ثبت أن المواد العضوية ظهرت على الارض قبل ظهور الاحياء بمدة طويلة ، نتيجة التفاعل بين الكربون والماء .. **وهو تفاعل لا يزال يحدث حتى اليوم ، وان كان حدوثه فى الماضى على نطاق واسع ولا سيما عندما كانت الارض فى مرحلة تكوينها ، وفى ظروف أكثر ملاءمة لتكوين الكربون المائى ، الذى هو أبسط مركبات المواد العضوية ، وأساس تشعبها الى مركبات أكثر تعقيدا . وهذه الظروف موجودة فى شتى الكواكب الاخرى .** فقد ثبت وجود هذه المادة العضوية البدائية فى النيازك ، كما وجدت علاماتها بتحليل الاضواء القادمة من شتى أنحاء الكون ..

واذا ما سلمنا بامكان نشوء الكربونات المائية بفعل العوامل الطبيعية ، ننتقل الى المرحلة الثانية فى تاريخ نشوء الحياة .. وفيها تكونت على الارض المركبات العضوية المختلفة ، والاكثر تعقيدا من الكربونات المائية ، التى هى أصلها . وتتوج هذه المركبات مادة « البروتين » التى تلعب أهم الادوار فى جميع الاحياء . **ومن الكربونات المائية نشأت مجموعة ضخمة من المواد التى تحتوى على الطاقة الضرورية لتكوين الجزيئات التى تؤلف الاحياء !**

ويرى الخبراء أن الكربون المائى كشف عن قدرته الفذة فى تأليف مئات المركبات ، عندما تحققت ظروف خاصة فقدت الارض فيها هيدروجينها الاصلى ، بفعل ضعف جاذبيتها وزيادة العوامل المؤدية الى افلات الهيدروجين من جوها .. وبعد مدة خفت حدة هذه العوامل . وحدث تفاعل ضوئى فى بخار الماء – فى طبقات الجو – فانفصل الى ذراته وهى الهيدروجين والاكسيجين ، فاتحد الأخير بالكربون ، مؤلفا ثانى أكسيد الكربون. وفى هذه الفترة من النشاط الكيمياوى ظهرت عدة مركبات عضوية كالامونيا ، والميثين ، والاحماض الامينية

وواضح من هذا العرض العاجل أن ظهور المركبات العضوية احتاج الى ثلاثة عوامل : أولها وجود الكربون المائى – الذى يعد الخامة الاولية للمواد العضوية المختلفة – **والثانى افلات الهيدروجين الاصلى من جو الارض ، وهى خطوة لا تحدث فى الكواكب الكبيرة التى تحول قوة جاذبيتها دون افلات هذا الغاز ، مما يعرقل عمليات التفاعل الاخرى التى عرف أنها تؤدى الى تكوين المركبات العضوية .** والعامل الثالث هو وجود الماء ، وهو عنصر مهم فى تكوين الكربون المائى وتفاعلاته

ولقد أدت التفاعلات الكيمياوية فى هذه الفترة الى تطور الجو ، فاكتسب طبقة تحلل أشعة الشمس ، وتمنع بعضها من الوصول الى سطح الارض بشكل يقتل المواد البروتينية التى تعتبر مرحلة جوهرية فى نشوء الحياة .. وليست المواد البروتينية البسيطة هى المقصودة هنا ، وانما الاجسام البروتينية التى امتازت بالقدرة على تحقيق الاحتراق الغذائى والتوالد والتكاثر على حساب المواد الموجودة فى بيئتها .

تجدد الاحياء دائم

• **وأبسط** الاحياء يستطيع أن يعيش فى عالمنا طالما كان يحصل بصفة مستمرة على مواد جديدة تتفاعل فى جسمه ،

وتحتل جزءا منه . وهى مواد غير ثابتة ، وانما تتغير وتتحلل وتلقى خارج الجسم ليحل غيرها مكانها . **فالجسم الحى فى حالة تغير دائم بين التجديد والانحلال . وكل تغير يحدث بنظام دقيق ، وتوقيت محدد ، وتناسق ، يؤدى أى اختلال فيه الى اختلال الحى كله !** .. فالعمليات الحيويه ــ كالتخمير والتنفس وصنع البروتين وغيرها ــ تفاعلات كيمياوية طويلة ، لا بد من أن تتم وفق نظام دقيق يؤدى الى الهدف المنشود من الحياة والذى لا نجد له نظيرا فى غير الاحياء .. وهذا الهدف هو : **وقاية الجنس والنوع وتلاؤم الحى مع البيئة المحيطة به.**

ونشوء خاصية الاحتراق الغذائى ــ الضرورية للحى ــ هى المرحلة الثالثة والحاسمة فى عمليات نشوء الحياة على كوكبنا الارضى . واذا ما تناولت أية مادة عضوية فانك تجدها قابلة لاحداث مئات من عمليات التفاعل الكيمياوى لتكوين مختلف الجزيئات . وهى تتم فى المعامل الكيمياوية ببطء كبير، وتحتاج الى وقت طويل . أما فى الاحياء فانها تتم بكل سرعة ، وبتوقيت محدد، بحيث لاتسبق عملية ما يتلوها ــ فى النظام ــ من عمليات .

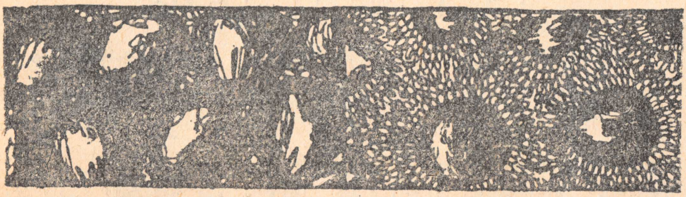
والفضل فى هذه السرعة يرجع الى خواص البروتينات والعوامل المساعدة على سرعة حدوث التفاعل الكيمياوى.. وهى المعروفة باسم أنزيمات ، والتى شرحناها فى مرات سابقة . **فالبروتينات تتحد مع كثير من المواد فى جزئيات جديدة ، لكنها قليلة الثبات ، مما يتيح سرعة اندماجها فى عمليات أخرى تنتج موادا جديدة تتفق مع مطالب الحى وتساعده على اداء وظائفه** . وبغير هذه الخاصية يفقد التفاعل أهميته بالنسبة للحى ، لان حدوثه يكون متأخرا بالنسبة للمطالب العاجلة فى أغلب الاحيان .. وفى هذا المجال تتعاون البروتينات والعوامل المساعدة لهدف واحد ، هو سرعة انتاج المادة المطلوبة ! ..

فالبروتينات دائما على استعداد للتحول ، والعوامل المساعدة

ـ أو الانزيمات ـ متحفزة دوأما لانتاج هذه المادة وحدها ، بحيث يقتصر كل « أنزيم » على وظيفة واحدة فى التحولات الكيمياوية ، لا يؤدى غيرها . وبهذا التدبير الدقيق يستطيع الحى أن يحقق مطالبه المادية فى أقصر فترة

تجمعات تكتسب خواص جديدة

• وفى تعقبنا لمراحل نشــوء الحياة ، لا نجـد مفرا من التسليم بحدوث تفاعل مماثل فى الازمان البعيدة ـ التى مرت بهـ الارض قبل ظهور الحياة ـ فتكونت جزيئات بروتينية شديدة التعقيد ، وتجمعت فى ماء الارض ومحاليلها لتؤلف كيانا له خواصه وشخصيته . وهو ما نسميه بالاجســام البروتينية . والفرق بينها وبين البروتين كبير ، لما تتمتع به من خواص لا وجود لها فى المادة المجردة . ويمكنك أن تشبه هذه الاجســام بالمســتعمرات أو المجتمعات البشرية ، التى تكتسب نظما وخواصا لا تجدها فى الفرد وحده .. وتحتفظ التجمعات البروتينية بتماسكها ونظامها ، بفضـل شحناتها الكهربائية . فان لكل مادة شــحنة كهربائية تتحكم ـ الى حد كبير ـ فى تناثرها ، اذاهى أذيبت فى الماء ، أو أى سائل



الرسم الايمن : جزيئات مواد عضـوية انفصـل كل منها عن الآخر بطبقة مائية واقية لكهربائيتها . والرسم الايسر لجزيئات غير عضوية

آخر . فهى لا تتناثر كيفما اتفق ، وانما تنتظم فى نظام معين بفعل الشحنات الكهربائية ، وما تحوى من خاصية تنافر بجعل كل جسيمة بعيدة عن أختها بقدر معين

والماء موصل ردىء للكهرباء ، مما يجعل الجسيمات تظل عالقة ومتباعدة فيه مدة طويلة ، ولكننا لو أخذنا محلول الذهب مثلا - وهو محلول غير عضوى - وأضفنا اليه بعض الملح ، لنزيد قدرة الماء على توصيل الكهرباء ، نجد أن الجسيمات تفقد شحنتها ، وتبدأ فى الرسوب ، لتتجمع ثانيــــة فى قاع الاناء . ويمكن احداث هذه الظاهرة أيضا اذا ما خلطنا محلولين بشحنتين كهربائيتين مختلفتين . فان اختلاف الشحنتين يولد بينهما تجاذبا ، كما هو معروف لمن ألم بأبســـط مبادىء الكهربائية .

وهذه الخاصة الكهربائية موجودة أيضا فى المحاليل القلوية العضوية كالصمغ العربى ، ولكنها تعرف كيف تقى شحنتها الكهربائية . فان من خواصــــها حرص كل جزىء منها على تغليف نفسه بطبقات من جزيئات الماء ، يخف التصاق كل طبقة منها بنسبة بعدها عن الجزىء ذاته ، حتى تصل الى طبقات متفككة من جزيئات الماء .

هكذا تكونت أولى مظاهر الحياة !

• **والصمغ** العربى - وهو مركب كربونى - يحيط نفسه ، بهذه الطريقة ، بغشاء مائى ردىء التوصيل للكهربائية ، مما يجعل انتظام جزيئات هذه المادة الكربونية شديد الثبات والاستقرار ، فتصبح قليلة التأثر باختلاف الشحنات الكهربائية المحيطة بها . ولعل هذه الخاصية هى أهم عامل فى بناء المادة الحية ، اذ أنها تعمل على انسجامها مع غيرها من المواد ذات الشحنة الكهربائية المخالفة

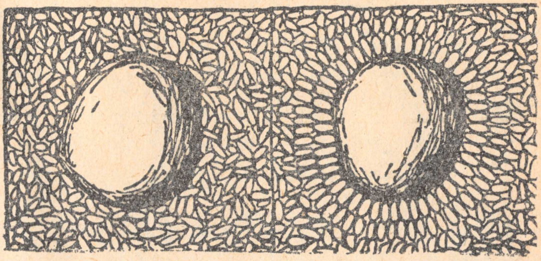
ويمكنك اجراء تجربة اذا ما أضفت محلولين عضويين ،

أحدهما سالب الشحنة، والاخر موجبها كالجيلاتينة والصمغ، فترى أن جزىء المادة فى أحدهما ينجذب الى جزىء المادة فى الاخر ، ولكنه لايندمج فيه لان كلا منهما يحتفظ بغشائه المائى الذى يقف سدا يحول دون التحام أى المادتين فى جسم صلب ، فتحصل على مادة شبه هلامية يطلق عليها اسم « كوزرفات » . وهى لفظة لاتينية معناها تجمعات !

والظاهرة التى تبدو لك فى هذه التجربة ، حدثت فى الكون – كما يعتقد كثير من العلماء – من بلايين السنين ، فأدت الى الشكل البدائى لاولى الطفرات فى سبيل ظهور الحياة على الارض. فأنت ترى كلا من المحلولين شفافا خاليا من الشوائب حتى اذا ما أضفت أحدهما الى الآخر ، بدأت الشوائب فى الظهور .. اذ أن الجسيمات الدقيقة – التى لم ترها فى السائلين بالعين المجردة – تتجمع وتكبر ، وتؤلف مستعمرات تتناثر وتظل معلقة فى الماء .

ودلت البحوث المختلفة على أن هذه التجمعات الهلامية ذات خواص غريبة ، فهى تشبه مادة « البروتوبلازم » التى تعد من أهم مركبات الخلية فى الجسم الحى ، والتى أوتيت قدرة فريدة على امتصاص المواد المحيطة بها ، مما يجعلها تنمو وتكبر . **فهى – باختصار – أول الاجداد فى سلسلة المخلوقات الحية التى تطورت وارتقت بفعل الظروف المحيطة بها حتى أخرجت الانسان بكل مدنيته وحضارته ، وبكل ماينتظره من تطور فى المستقبل !**

ومن الواضح أن كهربائية المواد العضوية وحبها للماء ، يضطرانها الى التجمع . ويرى أكثر العلماء الحديثين أن الحلقة تكمل بما نراه من تناثر الاجسام أو المستعمرات ، اذ ان هذا يجعلها أقل تعرضا للانحلال . ويقول العالم « وولد » ان



الرسم الايمن: جزىء الصمغ العربى ، وقد انتظمت جزيئات الماء حوله، بعكس جزىء مادة غير عضوية ، الى يساره

هذا التناثر من جزيئات المواد العضوية خلق ألوانا من التجمعات المختلفة - من حيث تعقيد تكوينها - مما أتاح لبعضها نظاما أكثر دقة وقدرة على التلاؤم مع الوسط المحيط بها ، والافادة من مادته .. ومما أعدها لتطور ورقى لاسبيل اليه فى عالم المواد غير العضوية ! ..

وما ذلك الا لان المواد العضوية تملك المقدرة على تكوين جزيئات معقدة ، يسهل فكها واعادة انتظامها فى مادة جديدة . فنحن اذا خلطنا محلولين - أو أكثر - من المحلولات المتشابهة، التى تألفت تحت ظروف واحدة ، نلاحظ أن الخليط يفقد صفاءه . فاذا فحصنا الشوائب تحت الميكروسكوب ، وجدنا نقطا تنفصل عنها وتسبح فى المادة الشفافة السائلة .

والتفسير المبسط لذلك ، هو أن جزيئات البروتين كانت موزعة بالتساوى وبتناسق معين فى كل من المحلولين . فلما مزجناهما ، بدأت هذه الجزيئات تختزل بعضها بعضا، وتكرر عملية التألف والتجمع فى مستعمرات جديدة . فاذا كبرت احدى هذه المستعمرات انقسمت على هيئة النقط التى رأيناها بالميكروسكوب . وبهذه الطريقة أيضا ، نجد ان كل الجزيئات

البروتينية تتجمع فى نقط عالقة فى السائل .. سواء كان هذا السائل ماء أو أية مادة بسيطة التركيب

قبس لكشف النشأة الاولى ..

• **ولهذه** التجمعات نظم داخلية بدائية ، ومن خواصها امتصاص المواد الاخرى من المحلول المحيط بها . ودلت البحوث والدراسات على أن التجمعات تعيش فى حالة تجدد وانحلال متواليتين، أى أنها تشبه المخلوقات الحية . وقد أمكن صنع هذه التجمعات العضوية فى المعمل ، فكانت عملياتها الكيمياوية كامتصاص المواد من حولها بطيئة نسبيا . ولكنها سارت بسرعة عندما أضيفت اليها المواد التى تساعد على سرعة حدوث التفاعل الكيمياوى . وهى مواد موجودة فى الطبيعة وتستغلها الاحياء !

ودرست حياة التجمعات البروتينية ، فظهر أن للبيئة تأثيرا عليها . **فاذا كانت الظروف ملائمة لحياتها ، احتفظت بشكلها وثباتها وعملياتها الكيمياوية .. واذا ما كانت نسبة التجدد فيها أكثر من نسبة الانحلال ، فانها تنمو وتكبر فى الحجم ، ثم تنقسم ، ويظل كل قسم منها محتفظا بثباته وخواصه .. اما اذا كانت البيئة غير ملائمة ، وحالة الانحلال اقوى من حالة التجدد ، فان التجمعات تفقد استقرارها وتنحل وتختفى بعد فترة** . وبهذه المعلومات الثمينة اقتربنا خطوات فى فهم كيف نشأت الاحياء الاولى على كوكبنا

وتشبه عملية التغذية ـ فى الاحياء ـ عملية الامتصاص فى التجمعات البروتينية . وهى تظهر فينا بانسجام رائع غريب ، يحقق تعاونا وتضامنا فريدين بين أعضاء الجسم الحى ، وبين وظائف هذه الاعضاء ، بغية الوصول الى الهدف الاسمى ، وهو حفظ النوع والجنس فى البيئة الخارجية .

وبهذا التعاون والانسجام نتعامل مع البيئة ، فتؤدى أعضاؤنا عملية البناء ، وتعمل وتتطور وفقا للاحكام والضرورات الخارجية ، على أساس نظرية الانتخاب الطبيعى التى وضعها العالم الانجليزى شارلس داروين فى القرن الماضى (**والتى سبق أن عرضها « كتابى » فى تلخيصه لكتابى داروين : « نظرية التطور » فى العدد ٢٦ ، و « أصل الانسان » فى العدد ٥٦)**

وعلى هدى مانراه فى الاحياء ـ اليوم ـ نستطيع تخيل تلك الاجسام البروتينية البدائية وقد ظهرت على الارض ، فخضعت للانتخاب الطبيعى ، وبفعله زالت « التجمعات » التى تغلبت حالة الانحلال فى تكوينها على حالة التجدد .. أما « التجمعات » التى فاقت حالة التجدد فيها حالة الانحلال ، فقد بقيت تتغذى بالمواد الموجودة فى بيئتها ، فيتجدد بناؤها ، وينمو ويكبر وينقسم . ومعنى هذا أن أصلح التجمعات نظاما وقدرة ، هى التى عاشت وتكاثرت وتطورت .. اذ كان من جراء الانتخاب الطبيعى وعملية البقاء للاصلح ، أن تأقلمت التجمعات ، وعرفت كيف تبقى على الخواص الجيدة وتتخلى عن النظم غير الملائمة فى بيئتها . **وبمعنى آخر ، عرفت التطور! فان عملية الانتخاب الطبيعى تعرف كيف تشجع الملائم ليبقى ، وتتجاهل أو تناهض غير الملائم ليزول** . وبهذا التنظيم والاعداد تعلمت التجمعات كيف تفيد من كل المواد المحيطة بها ، من أملاح الحديد والنحاس والكالسيوم وغيرها مما هو موجود على سطح الارض . كما أفادت أيضا من التجمعات الاخرى الضعيفة فالتهمتها وتكاثرت على حسابها !

ومضت ملايين السنين ، والطبيعة تعمل بقوانينها لتصقل عملية الامتصاص والافادة من البيئة . وكان أهم عماد لها هو التحولات التى تحدث فى المركبات البروتينية لتصبح فى وضع أفضل وأقدر على مغالبة العوامل الخارجية . وبالتدريج ـ وفى تؤدة ـ تحولت التجمعات البروتينية الى اجسام

تجيد عملية الاحتراق الغذائى بشكلها الذى نعرفه اليوم . وكان المخلوق الذى صقلته الطبيعة هو بذرة الحياة على الارض

شروط ظهور الكائن الحى

• **ولظهور** هذا المخلوق ، تحتم وجود أربعة شروط : أولها وجود جزيئات بروتينية تصلح للتجمع بعضها مع بعض .. وثانيها وجود الماء ، ففيه تستطيع الجزيئات أن تسبح وتتجمع .. وثالثها شيوع المواد العضوية المختلفة التركيب ، مما يساعد على نمو التجمعات ، واختيار الاصلح منها فى عملية التطور أو التحسن .. ورابعا وجود مواد وأملاح غير عضوية تساعد على تكوين الجسم ، وتزويده بالعوامل الكيمياوية المساعدة التى أدت الى تهذيب عملية الاحتراق الغذائى وارتقائها

ومن المسلم به أن الحياة تنشأ فى أية بقعة من الكون ، اذا ماتوفرت هذه العوامل ، على أن من الجائز أيضا ، ان لونا آخر من الحياة ظهر ، بالاعتماد على مواد أو خواص أخرى ، اذ أن المجال الكيمياوى واسع ، وعملية الانتخاب الطبيعى تعرف كيف تختار مايلائم البيئة فى صورها المختلفة . وهى تعمل فى تؤدة فذة ليصبح الحى فى أكثر الحالات ملائمة للحياة . **ويقدر العلماء الفترة التى احتاجتها الطبيعة لانتاج بذرة الحياة على الارض بمئات الملايين من السنين تحول فيها الكربون المائى الى مخلوق حى له خواص التغذية والتكاثر..**

ولقد كانت عمليات تكوين هذا الحى تسير ـ أثناء هذه الملايين من السنين ـ مع تطور البيئة نفسها ، ومع عمليات اعداد الارض لتكون مسرحا للحياة ، بجمع الخامات الضرورية لها من مواد غير عضوية ، وبتحول الكربون المائى الى مواد عضوية مستعدة للتفاعل وانتاج مواد أخرى أكثر

تعقيدا منها .. فالاحياء - كما نراهم اليوم - يعتمدون اعتمادا كاملا على المواد العضوية ، وهى وحدها وسيلة التغذية .. **ولقد كانت المواد العضوية - التى انتجتها الطبيعة - هى غذاء الاجسام البروتينيه فى بداية نشوء الحياة . ثم تحول الموقف فأصبحت هذه المواد من انتاج الاحياء نفسها ، كما هى الحال الآن اذ يعيش الحيوان على حساب مايصنعه النبات ! .. كذلك كانت البيئة على الارض - أثناء هذا التحول - كثيرة التغير حتى اقتربت من البيئة التى نشهدها اليوم .**

ومن الجائز أن مثل هذا التغير حدث فى الكواكب الاخرى، وانه تجاوز الحدود التى عرفت على الارض .. كما ان من الجائز أن يكون للحياة أكثر من أساس وفكرة وتكوين . ومن المعقول أن يتناول التغير طبيعة بناء البروتين نفسه ، مما يؤثر على نظام الحياة ، ووسائل الحى فى الظفر بالموادالغذائية وتحويلها الى مواد لازمة لتجديد بنائه..وطريقة الظفربالمواد الغذائية فى الطبيعة مسألة ثانوية اذا ماقورنت بالظفرنفسه. فالمهم عند الطبيعة هو العمل على حفظ النوع وتكاثره واستعداده للتطور .

البيئة والحياة فى الكواكب الاخرى

• **وتبعا** لهذا ، يتعذر القول بأن الاحياء فى الكواكب الاخرى تشبه أحياء الارض من نبات وحيوان ، ففى هذا المجال تتحكم البيئة ، وتخلق الاختلاف والتباين .. لاسيما اذا كانت هذه البيئة مخالفة لبيئة الارض فى فترة نشوء الحياة . **ويحتمل أن يكون الخلاف بسيطا فى مظهره الاول ، ولكن فرجته تتسع بالتقدم فى سلم التطور ، اذ قد يتجه التطور بكل لون وجهة غير وجهته بالنسبة للون الآخر بل اننا نشهد هذا الاختلاف فى التطور فى البيئة الواحدة ، كما فى**

عالمنا الارضى ، اذ نلمس تباينا ظاهرا بين سكان المدن وسكان الجبال ، وبين الطبقة العاملة التى تقضى العمر فى الكدح وحمل الاثقال وبين طبقة المرفهين .. فكل فريق تمنحه البيئة مايحتاج اليه من قوى ، ومن تشكيل أعضاء تتلاءم مع طبيعة حياته ! .. وبتكرار حدوث هذا ، تصبح الصفات وراثية يتناقلها الابناء عن الاباء .

ويبدو أن أول الاحياء التى ظهرت على الارض ، كانت مخلوقات يقتصر غذاؤها على المواد العضوية . ونلمس الدليل على هذا ، فى الأحياء الحالية التي صنع جهازها الهضمى وصقل بحيث تفيد من هذه المواد وحدها .

ويسرت هذه الطريقة فى التغذية مهمة الاحياء الاولى ، اذ وجدت — فى غذائها العضوى — مادة شبيهة بمادة بناء جسمها ، يسهل تحويلها لتحتل مكانا فى هيكلها . وبهذه الطريقة فى التغذية استغنت الاحياء الاولى عن مصادر الطاقة الاخرى ، ووجدت وفرة من المواد الجاهزة الممثلة فى فضلات المواد العضوية المتحللة . وفى هذا الوقت كانت الارض فى مرحلة تطور ، وكان جوها خلوا من جزيئات الاكسيجين، لانها اتحدت مع المواد الاخرى ، ممثلة فى الاكاسيد المختلفة . فكان على الاحياء أن يفيدوا من المواد بعمليات التخمير التى لا تزال من اهم عمليات الهضم فى شتى الاحياء

ونمت الاحياء وانتشرت على سطح البسيطة ، وهى تعيش على البروتين الطبيعى ، والبروتين المتخلف من غيرها من الاحياء . **وفى عملياتها الحيوية وغيرها ، ظهر ثانى أكسيد الكربون ، فأحدث تغيرا هاما فى البيئة .** وتبعا له ظهرت أشكال جديدة من وسائل التغذية ، فان بعض الاحياء استغلت الطاقة الناشئة من عمليات التأكسد فى الحديد والكبريت والازوت ، واستخدمتها للظفر بطعامها . بينما تعلمت أحياء أخري كيف تفيد من بعض ضوء الشمس وثانى

أكسيد الكربون والماء ، فاستخلصت منها المواد الضرورية لحياتها . اذ حصلت منها على الكربون وشتى المواد ، بينما أخذت تطود الاكسيجين المتخلف ، على هيئة جزيئات متناثرة فى الجو الذى كان خلوا منها لان مواد الارض اتحدت به . وأدى نشاط هذه الاحياء فى انتاج الاكسيجين ، الى أن بقيت منه فضلة عالقة بالجو . وقد أثرت هذه الفضلة فى الجو وغيرته تغييرا جوهريا . **ولعلك استنتجت أن هذا اللون من الاحياء — أى الاحياء التى كانت تفرز الاكسيجين فى بداية الحياة — هو النبات الذى يعد ظهوره أول خطوة لنشوء الحيوان !**

وانقسمت الاحياء وفقا للتطور الجديد ، فظل قسم منها يعيش على نظامه ألاول — باستغلال المواد العضوية المتخلفة من سواه — بينما اتجه الفريق الجديد الى صنع مواده بنفسه ، مستعينا بضوء الشمس ووفرة ثانى أكسيد الكربون والماء . ومن الفريق الاخير ، ظهرت مملكة النبات ، وراحت تفرز الاكسيجين فى الجو فاستغلته البيئة فى ترقية الوان الحياة . **وتطورت بذلك بعض الاحياء ، واكتسبت صفات جديدة ، فتعلمت كيف تستغل هذا الغاز بأن تتنفسه ليتحد مع المواد وينتج طاقة تفوق ما كانت تحصل عليه من قبل .** وفى هذا المضمار ، استعانت تلك الاحياء بالانزيمات وعمليات التخمير ، وتحولت الى مخلوقات تستنشق الاكسيجين بأجهزة خاصة زودتها بها الطبيعة .. وهذا ما تجده ظاهرا فى ((**البروتوبلازم**)) فى الحيوانات الراقية .. وكانت هذه نواة المملكة الحيوانية !

وهكذا شهدت الارض نوعين من الاحياء يعمرانها : مملكة النبات ، ومملكة الحيوان !

وخلال ملايين السنين ، راحت الطبيعة تعمل جاهدة فى بناء الاجهزة المعقدة للكائنات الحيوانية ، وفى تمكينها من ظاهرة التنفس — استنشاق الاكسيجين وطرد ثاني أكسيد الكربون —

وقد كانت هذه من الظواهر التى اكتملت فى مرحلة متأخرة من مراحل الحياة .. وفى أثناء هذه الملايين من السنين ، كانت الكائنات الحية فى تطور ، فاقتنى بعضها الخلايا والانسجة المختلفة البناء والوظائف ، وأصبحت لها أجهزة ذات عمليات معينة تساعدها على البقاء . وقد أخذت هذه الاجهزة تزداد تعقدا كلما ارتقت الكائنات .. حتى بلغت فى ارتقائها درجة الحيوانات الراقية أو العليا . **وعلى رأس هذه الدرجة ، نجد الانسان !**

الحلقة المفقودة بين الحياة والموت

• **ولقد** حاول الانسان أن يعثر على الحلقة التى تربط بين ما هو « حى » وما هو « ميت » ــ أى جماد ــ فاصطدم بعقبة تعريف الحياة . **قال أنها القدرة على التوالد والتكاثر فعثر على بلورات مواد تتوالد وتتكاثر رغم أنهـا خالية ممـا نسميه بالحياة !** .. ومن الجائز أن الحلقة الرابطة بين الحياة والموت بين أيدينا ، ولكننا لا نعرفها .. ولعلها تلك المخلوقات الدقيقة التى نسميها « بالفيروس » ، وهى مخلوقات نحس وجودها فيما تنشره بين الاحياء من أمراض ، ولكننا لم نرها الا منذ سنوات قليلة حين ابتكرنا « الميكروسكوب الالكترونى » ، الذى استطاع أن يكبر حجمها ربع مليون مرة !

والفيروس مخلوق غريب ، يظل فى مرحلة ركود وخمول ، ولا تحس بوجوده الا اذا التقى بالنسيج الحى الملائم لنموه . فعندئذ ينشط ويتكاثر بأعداد مخيفة تؤدى الى قتل عائلة ، ثم يعود الى حالة الركود حتى يتيسر له الظفر بنسيج حى آخر يلائم نموه واستئنافه لحياته ، فهل هـذا المخلوق هو الحلقة التى يبحث عنها علماء نشوء الحياة ؟ .. مسألة يصعب اتخاذ قرار فيها لاننا لم ندرس الفيروس بطريقة تتيح الجزم فى هذه المسألة

المرمر من بقايا الاجداد

• وفي سجل الطبيعة – وهو ما تخلف على الارض من آثار العصور الماضية من حفريات وعلامات – يحاول العلماء أن يعثروا على دليل يثبت وجود هذه المخلوقات البدائية ، فتواجههم مشكلة تكوينها ومادتها. فهي ليست «كاندينوصاور» الذي أوتي هيكلا عظميا ضخما تيسر للطبيعة حفظه ، بل هي مواد هلامية سريعة التفكك والزوال . وهي أيضا مخلوقات متناهية الدقة قد لا تكشفها أحدث ميكروسكوباتنا

على أن الباحثين وجدوا قرائن أو مخلوقات يرون أنها تنم عن تلك المخلوقات . ومنها طبقات المرمر السميكة التي وجدت في كثير من بقاع العالم . **فان هذه الطبقات المرمرية ليست الا بقايا أحياء ميكروسكوبية ، عاشت على الارض منذ نحو بليون سنة ، ولكنها بفعل الضغط والحرارة تحولت أولا الى حجر جيرى ثم تحول هذا الحجر الى مرمر !** .. وهناك أيضا قرينة ثانية ، وهي كميات الكربون التي تظهر في طبقات الجرانيت التي ترجع الى هذه الحقبة من تاريخ الارض ، فان تكوين هذا الكربون يدل على أنه بقايا مواد عضوية تحللت !

هاتان القرينتان تدلان على أن الحياة في أبسط ألوانها كانت موجودة على الارض منذ أكثر من بليون سنة ، واذا كنا لم نعثر على حفريات حاسمة الدلالة ، فان هذا يرجع الى طبيعة تلك الاحياء ، اذ أنها لم تكن ذات هيكل صلب يمكن أن يخلف أثرا ينم عنه طبقات الارض .


CAROLIAN
COURTSHIP
By
F. MATANIA
امرأة أضاعت عرش ملك !
مأساة أميرة فرنسية ساقت ملكا انجليزيا إلى المشنقة !
للمؤرخ والفنان العالمى "ف . ماتانيا"

امرأة ساقت ملكا .. الى المشنقة !

◆ تضاربت الأقوال فى شأن « تشارلس الأول » الملك الذى تبوأ عرش انجلترا يوما ، فى القرن السابع عشر .. كان - فى نظر أعدائه - رجلا ضعيفا ، ناكث العهد ، خسيسا يضحى بأعوانه لينقذ نفسه ، وقد قاد نفسه الى الهلاك بفضل عناده وبعده عن الحكمة .. أما فى نظر مواطنيه ، فكان رجلا ذا ضمير حى ، وولاء لا يهن للكنيسة ، وشجاعة واقدام .. ولعلها نظرة تشكلت تحت تأثير النعرة القومية ، التى درج عليها الانجليز ، اذ يؤثرون أن يخفوا مثالبهم عن العالم وعن التاريخ

على أن الأمر الذى لم تتضارب فيه الآراء ، هو أنه بالرغم من كثرة المتآمرين عليه ، فان دماره لم يأت الا على يدى امرأة .. أحب النساء اليه ، وهى زوجته الملكة « هنرييتا ماريا » ، التى سيطر ولاؤها للكنيسة الرومانية على كل تدخلاتها فى الشئون السياسية ، مما أذكى نيران حرب هوجاء ، وأثار نزاعا بين التاج والبرلمان ، انتهى بتشارلس الى المشنقة فى ٣٠ يناير سنة ١٦٤٩

ولكن .. لندع المؤرخ العالمى الصيت - الايطالى الأصل - « فورتوناتو ماتانيا » يعرض القصة من بدايتها ، ويصورها بريشته -

غريبان فى البلاط الفرنسى !

• رفع التاريخ الستار عن هذه المأساة فى ١٦ فبراير سنة ١٦٢٣ ، فى (باريس) .. ففى ذلك اليوم البارد الطقس ، ازدحم جم غفير من الناس خارج أسوار القصر الملكى .. اذ كان من تقاليد لويس الثالث عشر أن يفتح أبواب قصره للجمهور ، ليشهدوه وأفراد أسرته المالكة . وبين هذا الجمع الزاخر ، تقدم شابان - احدهما فى الثلاثين من عمره ، والثانى قد تجاوز العشرين بقليل - فأدليا الى ياور الملكة باسميهما .. توم سميث ، وجون براون . ولعل الاسمين الاجنبيين أحدثا

في نفس الياور أثرا ، فاذا به يفرد للضيفين خير مكانين في القاعة التي كانت حافلة بالحركة والمرح ، رغم ضعف الاضاءة ، فيها .. فقد كانت ثمة تجربة تجري استعدادا لحفلة راقصة كبرى ، وكانت ملكة فرنسا « آن » الجميلة - التي لم تكن قد تجاوزت الرابعة والعشرين من عمرها - وأخت زوجها « هنريتا ماريا » ، التي كانت قد تجاوزت الخامسة عشرة بقليل ، هما نجما الرقص !



كانت الملكة والاميرة ابدع من رقصن .. (بريشة ماتانيا)

ولم يقو « توم سميث » و « جون براون » على أن يحولا أعينهما عن الجمال الباهر ، الذي كان يشع من الملكة والاميرة ، وهما تتحركان في خفة ورشاقة تبهران الالباب . حتى اذا كان المساء ، وآب الشابان الى حيث كانا ينزلان ، خلا أصغرهما الى نفسه ، وراح يكتب لابيه في انجلترا :

« عدنا الى البلاط ثانية (وأؤكد لك أن أحدا لم يعرفنا) ، حيث رأينا ملكة فرنسا الشابة ، وصاحبة السمو الملكي « هنريتا ماري » ، في تجربة لحفلة تنكرية راقصة ، وقد رقصت الملكة والاميرة ، مع عدد يصل الى تسع عشرة من أجمل السيدات الراقصات ، كانت ملكة فرنسا - بينهن - هي الابدع ، مما أذكى في نفسي الرغبة في أن أرى أختها » !

الاميرة الفرنسية الصغيرة ..

• **وكانت أخت الملكة** — المقصودة فى هذه الرسالة — هى « ماريا آلثيا » الاميرة الاسـبانية .. أما « الاب » — الذى وجهت اليه الرسالة فى انجلترا — فكان « جيمس الأول » . اذ أن « توم سميث » لم يكن سوى الامير تشارلس ، ولى عهد انجلترا اذ ذاك .. أما «جون براون» الذى كان يرافقه ، فكان « دوق بكنجهام » .

وكان « تشارلس » قد أعرب — أكثر من مرة — لابيه عن تردده ازاء الزواج من أنثى لم يرها ، فقد كان ذكيا حكيما ، أراد أن يقوم زواجه على تفاهم وقبول ، لا على المصـلحة وحدها ، كما كانت الزيجات الملكية اذ ذاك . ومن ثم وافق أبوه على أن يقوم برحلة الى أسبانيا ، برفقة دوق بكنجهام ، منتحلين اسمين غير اسميهما ، الى أن يتحقق ولى العهد الشاب من ميوله الى الاميرة « ماريا آلثيا » التى كانت مرشحة للزواج منه . على أن تشارلس رأى — اذ مر بباريس خلال رحلته — أن يلقى نظرة على أخت الاميرة ، التى كانت ملكة لفرنسا .

على أن القدر شاء أن تسفر الزيارة العابرة لباريس ، عن نتيجة خطيرة لم تكن مرتقبة .. فقد وقع تشارلس فى حب « هنرييتا ماريا » — أخت ملك فرنسا — ووقع دوق بكنجهام فى هوى الملكة ذاتها !

ومع ذلك فقد واصل « تشارلس » رحلته الى أسبانيا ، حيث قام بزيارة رسمية للبلاط الملكى هناك ، ولكنه لم يشر ذكر الزواج اطلاقا ، وان كان قد عرف فى صميم أعماق قلبه تلك التى قرر أن يشركها عرشه ! فلقد أحب ولى عهد انجلترا ، الاميرة الفرنسية الرشيقة ، ابنـة الخمسـة عشر عاما .. « هنرييتا » . وكان الموقف ينطوى على حرج سياسي لانجلترا ازاء اسبانيا !

تغرى الطاهية بسرقة صورة الامير !

• ولم يجد الملك جيمس مفرا من أن يشفق على ابنه اذ أفضى اليه بسريرة نفسه ، فأرسل لورد « كنسينجتون » الى باريس ، ليباحث سفير أسبانيا هناك فى الامر .. ومن الطبيعى أن يكون السفير قد عقب تعقيبا لاذعا ، ولكنه لم يجد مهربا من قبول الواقع ، وذهب مشروع المصاهرة بين العرشين الانجليزى والاسبانى ادراج الرياح !

ولم تكن الاميرة « هنرييتا » قد رأت « تشارلس » حين تسلل الى قاعة الحفلات وشهدها وهى ترقص ، ولكن القصة رويت لها ، مشفوعة بما أبداه من اعجاب بها ، فأثار ذلك خيالها المراهق .. ثم حدث ـ عندما كان لورد كنسينجتون يباحث أمها فى أمر المصاهرة بين العرشين الانجليزى والفرنسى ـ أن لمحت مع اللورد صورة صغيرة للأمير ، فتلهفت على رؤيتها ، ولكنها منعت من اطالة تأملها ، اذ كانت التقاليد والحشمة تحرم على الفتاة أن تنعم النظر فى صورة شاب لم يتقدم بعد لخطبتها رسميا . وقد احتجت الاميرة المراهقة على هذا الحرمان ، قائلة أنه لم يكن من الانصاف فى شىء أن يتأمل كل امرىء الصورة ، فى حين أنها ـ وهى غاية صاحبها ـ تمنع من تأمل معالم الشخص الذى قد يشاطرها حياتها ! .. **على أن احدا لم ينصت لاحتجاج المدللة النزقة ، فما كان من الاميرة الا أن أغرت طاهية دار السفير الانجليزى بأن تحمل الصورة اليها خلسة ، لتتمكن من رؤيتها !**

ولندع اللورد كنسينجتون يصف بقلمه هذه المغامرة ، كما كتبها للأمير تشارلس : « ولجأت هنرييتا الى مخدعها ، وأمرت باستدعاء الطاهية ، وبأن تترك معها على انفراد ، واذ ذاك ، فتحت العلبة ـ التى تضم الصورة ـ فى عجلة كانت دليلا صادقا على لهفتها ، وقد تضرج وجهها اذ كانت تشعر بما فى

عملها من ذنب .. واستبقتها ساعة فى يدها ، حتى اذا ردتها راحت تطرى شخصك ! »

وكان هـذا الوصـف ـ فى حـد ذاته ـ دليـلا على أن « كنسينجتـون » كان على علم بالمؤامرة السـاذجة ، ولعله تواطأ مع الطاهية !

الخطيب يصبح ملكا

• **ولقد** عارض البابا هذا الزواج معارضة شديدة ، اذ كان يطمع فى أن تؤدى المصاهرة بين العرشين الانجليزى والاسبانى، الى رد انجلترا الى الكاثوليكية . **ولكن « ماريا دى ميديتشى » ـ أم ملك فرنسا وأخته الحسناء ـ لم تأبه لصيحات (روما) التى كان يحملها لها الكاردينال « ريشيليو » ، اذ بهر عينيها أن تصبح ابنتها ملكة على انجلترا .** وكان الارضـاء الوحيد الذى أبدته ، هو أنه لم يكد الاتفـاق على الزواج يتم ـ فى ديسمبر سنة ١٦٢٤ ـ حتى سعت فخففت القيود التى كانت مفروضة على الكاثوليك فى انجلترا

ولم ينقض شهر واحد على التصديق على الزواج ، حتى وافت المنية « جيمس الاول » ، وخلفه « تشارلس الاول » .. وأصبحت « ماريا دى ميديتشى » على أعتاب المستقبل الذى كانت ترجوه لابنتها . فلما لم يصدر البابا موافقته الرسمية، خشيت أن تفلت الفرصة ، وقررت أن تعقد الزواج دون هذه الموافقة . لولا أن خشى الكاردينال ريشيليو على كرامة المنصب البابوى أن تتعرض للامتهان ، من جراء عدم أكتراث فرنسـا بها ، فبذل نفوذه .. ووصـلت الموافقة البابوية فى اللحظة الاخيرة

وعقد القران بالتوكيل فى كاتدرائية « نوتردام » فى مايو سنة ١٦٢٥ ، فناب « الدوق دى شيفريز » عن ملك انجلترا الغائب ، ثم رافقت الاسرة المالكة عروسـها السـعيدة حتى الساحل .. بيد أن « لويس الثالث عشر » مرض فجأة ، ثم

توعكت « ماريادى ميديتشى » عندما بلغ الموكب (أميين) وسط الاحتفالات . فعين « تشارلس» صديقه الحميم « دوق بكنجهام » مرافقا رسميا للملكة العروس !

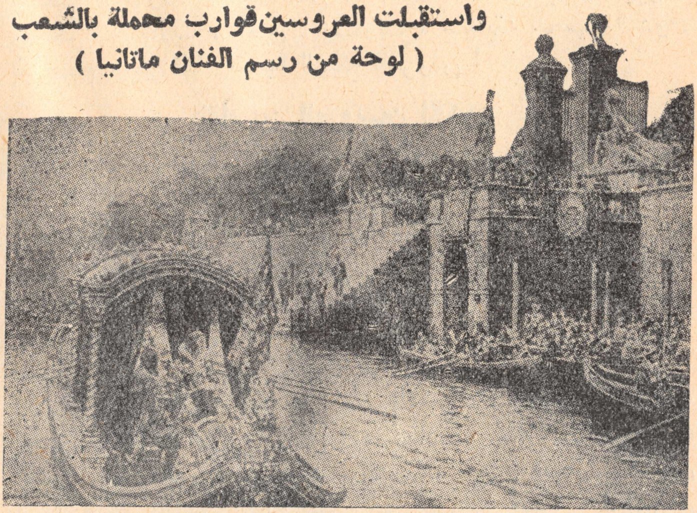
لقاء بين العروسين الملكيين

• **واذ** بلغ الموكب (بولونى) ، اذا بدوق بكنجهام يتصرف تصرفا نابيا .. فقد تعلل بمهام عاجلة ، وترك « هنرييتا » وخف مسرعا الى (آميين) .. **حيث تلقته ذراعا « آن » ملكة فرنسا ، التى كان يتحرق شوقا الى أن يطفىء لوعته ووجده بها !** .. وبقيت العروس الصغيرة تنتظر أوبته عند ساحل نورماندى ، بينما كان تشارلس يرتقبها على الشاطىء المقابل ، وقد توزعته اللهفة والشوق !

وكان قد انقضى شهر على عقد القران ، عندما أقبلت مركب العروس الملكية على (دوفر) ، تتقاذفها أنواء بحر مهتاج ، تحت سماء مكفهرة . وأوحت الشهامة الى « تشارلس » أن عروسه قد تضيق بلقائه بعد رحلة مضنية كهذه ، فرأى أن يتيح لها وقتا كافيا ، تسترد فيه أعصابها وقواها ، وتتأهب لاهم لحظة فى حياتهما معا . ومن ثم ، فقد بادر بالرحيل الى (كانتربورى) ، قبل أن تهبط «هنرييتا » الى وطنها الجديد .

وفى الساعة السابعة من مساء يوم من أيام الاحد ، وطأت قدما العروس أرض انجلترا ، فأوت الى قلعة دوفر . وماان حانت الساعة العاشرة من الصباح التالى ، حتى كان تشارلس مقبلا ليفاجئها وهى تتناول فطورها ، وقد الح عليه الشوق .. ونهضت « هنرييتا » ، وحاولت أن تؤدى ما كانت قد رسمته فى ذهنها لهذا اللقاء .. كانت تود أن تركع أمامه ، وأن تهتف : « مولاى .. لقد جئت الى هنا ، الى بلاد جلالتكم ، لاكون طوع أمركم ! » . **ولكن طغيان العواطف لم يمكنها من أن تقول شيئا ، وانبثقت دموعها تعبر عن جيشان مشاعرها**

واستقبلت العروسين قوارب محملة بالشعب
(لوحة من رسم الفنان ماتانيا)



.. فاحتواها الملك بين ذراعيه قبل أن تركع ، وأغرقها بقبلاته !
وان هى الا دقائق ، حتى كانا يضحكان معا فى سرور عارم !

غيرة بين حاشيتين !

• وبعد أن أعيدت مراسم القران ـ بحضور الملك فى هذه المرة ـ فى (كانتربورى) ، وضع نظام مهيب لدخول موكب العروسين الى لندن .. وشاء الملك أن يجنب عروسه رؤية طرقات عاصمته الضيقة ، الكئيبة ، فآثر أن تكون الرحلة اليها على صفحة نهر (التيمس) .. واستقبلت العروسين طائفة من القوارب المحملة بأفراد من الشعب استخفتهم الفرحة والابتهاج ، بينما ازدحم الشاطىء بالمستقبلين عند قصر (سومرست) ، واختلطت الهتافات بدوى المدافع ، مما أضفى

على الاستقبال روعة بالغة .

وكانت أول مناسبة رسمية حضرها العروسان معا ، هى افتتاح البرلمان . ثم غابا عن لندن فترة ، ليستمتعا بشهر عسل هنىء ، فى قصر (هامبتن كاورت) والرياض البديعة التى تحف به .. هذا القصر الذى قدر له — فيما بعد — أن يشهد أقسى المآسى ، والذى لم يكتف « كرومويل » بأن يطهره من الملكية ، بل آثره بأن جعله مقره ومقامه !

ومع أن هذه الاحداث كانت لا تزال بعيدة — فى اطواء الغيب — الا أن العام الاول للزواج ، لم يكن سعادة خالصة ، بل شابته بعض نذر بالمستقبل المعتم .. **وكان أول هذه النذر ، أن الحاشية الضخمة التى احضرتها « هنرييتا » معها من فرنسا ، أثارت غيرة أهل البلاط الانجليزى ! .. دما أن أخلاق الفرنسيين وعاداتهم ، بدت كسلسلة من الفضائح فى أنظار الانجليز المتزمتين ..** حتى لقد قامت ضجة هائلة ، لمجرد أن « دوقة دى شيفريز » راق لها يوما أن تقفز فى نهر (التيمس) وتعبره سابحة .. لمجرد الرياضة ! !

يقضى على الملكة بالسير حافية !

● **وزاد** من تذمر الحاشيةالانجليزية،أن نفوذ الاب«سانسى» — القس الذى رافق الملكة ليتلقى اعترافاتها ويباركها — أخذ يزداد ويتجاوز الحدود ، حتى لقد فرض على الملكة يوما نوعا غريبا من التكفير عن الذنب .. **ذلك هو أن تسير حافية الى (تاييرن) — حيث كانت المشانق مقامة — لتصلى على أرواح أفراد أعدموا من جراء تدبيرهم مؤامرة ضد العرش ! ..** ومع أن الملكة لم تنفذ هذا التكفير ، الا أن اقدام الراهب على فرضه أهاج ثائرة « تشارلس » ، ونبهه الى استفحال نفوذ « سانسى » .. فلم يمض طويل وقت ، حتى أبحرت بالراهب

مركب عادت به الى فرنسا .

كل هذه الامور ، وغيرها من قبيلها ، جعلت الملك يحرق الارم غيظا ، وبثت فى نفسه مقتا لحاشية الملكة ، التى كانت اشبه بمستعمرة فرنسية فى البلاط الانجليزى ، **والتى لم تستأثر بوقت الملكة واهتمامها فحسب ، بل بدا أنها كانت تتسلط على كل أفكارها وتصرفاتها ، وتحملها على أن تنهج نهجا يجافى الحكمة ، وينبو عما يليق بمركزها الملكى الرفيع ..** وليت الامر اقتصر على هذا ، بل ان تشارلس أصبح يتعرض لحملات من شعبه لتقاعسه عن أن يقف موقفا أكثر حزما !

وليس من العسير أن نتصور مدى ما راح يعانى ــ فى هذه الفترة ــ من عنت وارهاق ، ومع ذلك ، فان هذه المتاعب لم تغير حبه لهنريتا قيد شعره .. بل أن هواه اشتد وذكا على مر الشهور . وراح يعالج الموقف متكبدا كل عناء ، معرضا أعصابه لاشد ألوان التوتر والارهاق ، مصمما فى أعماقه على أن لا يجعل كل عذابه يؤثر البتة على هواه وغرامه !

ترفض ان تتوج !

• **ومع** كل هذا ، فان الملكة لم تخفق فى الظفر بعطف فريق من الرأى العام وحبهم . فقد رأوا أن سعة الافق ، والعاطفة الانسانية ، تدعوانهم الى أن يقدروا الفارق الشاسع بين البيئة التى نشأت فيها الملكة ، والبيئة التى أقبلت تعيش فيها .. والى أن يقدروا صغر سنها ، فيلتمسوا لها الاعذار اذا هى أبطأت فى التأقلم بجو البلاط الانجليزى ، لاسيماوقد كانت حولها حاشية لاتنفك تلح عليها بالعادات الفرنسية !

على ان لكل شىء حدودا ينتهى عندها .. وقد انتهى هذا العطف بامعان الملكة فى مسلكها ، **لاسيما حين رفضت أن تتوج فى كاتدرائية ويستمنستر ــ أقوى معقل للعقيدة البروتستانتية ــ وأبت فى عناد أن تتراجع عن قرارها هذا ..**

واشتدت بالملك الحيرة ، وبرح به الهم ، وأقبل يلح على مليكته الحبيبة بالرجاء . ولكن الحافه لم يكن أقوى تأثيرا عليها من ضراعات ذوى النفوذ فى البلاط .. **وعبثا حاول ان ينبهها الى أن تغيبها عن الاحتفال بالتتويج ، سيؤول على انه أبلغ اهانة تلحق بأعز المقدسات لدى الرأى العام الانجليزى !**

وهكذا أدى التعنت الدينى الى أن تكون « هنريبتا » أول ملكة انجليزية رفضت أن تتوج ! .. ولكن الامر لم يكن يقتصر على هذا الحد ، فان ظهور الملك وحده فى حفلة التتويج أشاع شعورا من عدم الارتياح ، وسلب الجماهير المحتشدة كل مرح ، وفرض على جو الاحتفال كآبة بددت من جلاله ومهابته .. وبدا الملك مهيض الجناح ، مهينا ، تحمل أساريره سمات الاعتذار لشعبه .. الاعتذار الذى لم يتقبله الشعب !

الملك يأمر بطرد الحاشية الفرنسية

• **وبينما** كانت مراسم التتويج تجرى ، وقفت الملكة خلف نافذة سد فراغها بالخشب المحفور ، الذى كانت تتخلله ثغرات تمكنها من مشاهدة ما كان يجرى خارج أبواب (هوايتهول) وقد أعمى تعصبها الدينى بصيرتها ، فلم تتبين أنها كانت ــ فى تلك اللحظات ــ تنتحر أدبيا ! .. فقد انهمر الانتقاد على شخصها كأنه المزن الهتون . **ولكن هذه الحملات لم تزد « تشارلس » الا حبا لها ، واشفاقا عليها ، وتعلقا بها .. فقد كان مفتونا ، مدنفا ! .. وكانت ــ اذا ما خلا كل منهما الى الآخر ــ تنقلب الى طفلة وديعة فى أحضانه ، حتى ليشعر بأنها ضعيفة ومن الخسة ان لا يحميها ، وانها ساذجة فمن الجرم أن لا يغفر لها ذنوبها !**

وكلما ازداد « تشارلس » تعلقا بفاتنته ، اشتد به السخط على أولئك الذين كانوا يزينون لها أفعالها ، ورأى أنهم انما كانوا يسعون الى ان يحرموا انجلترا من ملكتها ، وأن يسلبوه

زوجته وحبيبته .. وانتهى به الامر - حين عيل صبره - الى أن أمر بأن يبرح كل فرد من الحاشية الفرنسية أرض انجلترا فورا !

وكان هذا الامر بادرة لما أوشك أن يكون ثورة فى القصر الملكى. فقد اشتد بالملكة الهياج والغضب ، وعمد الفرنسيون الى كل حيلة وحجة ليراوغوا ويتهربوا من اطاعة الامر . ولعل الخطاب التالي - الذى كتبه تشارلس الى دوق بكنجهام - يعطينا صورة واضحة لحالته النفسية اذ ذاك ، اذ جاء فيه:

« تلقيت رسالتك ، وهذا ردى .. اننى آمرك بأن ترسل كل الفرنسيين الى خارج المدينة غدا ، بالحسنى . ولكن ، لا تطل اللجاج والجدل . فان أبوا فاغصبهم غصبا ، واطردهم كما يطرد كثير من الوحوش الضارية ، حتى تشحنهم فى السفن ، ثم .. ليرافقهم الشيطان ! .. ولا تسمعنى ردا سوى أنك أنفذت أمرى ! »

ولم يكن أمام دوق بكنجهام - بعد ذلك - سوى أن يصدع بالامر .. سواء عن رضى ، أو عن كره !

« هنرييتا » زائفة تخدع فرنسا

• وعندما أعدت السفن عند مرساة قصر (سومرست) ، أبى الفرنسيون الرحيل فى اصرار ، فاضطر « تشارلس » الى استخدام قوة من حرسه ، دفعت بهم عنوة الى خارج القصر ، ثم أغلقت الابواب دونهم .. وفى تلك الاثناء ، كان الملك قد اصطحب الملكة الى غرفته الخاصة . ولكنها لم تكد تفطن اليه وهو يحكم رتاج الباب ، ويغلقه ثم يودع جيبه المفتاح ، حتى اندفعت الى النافذة .. **وبلغ بها الغضب الاهوج ان حاولت أن تهشم زجاجها بقبضتيها ، ولم يحل بينها وبين ايذاء نفسها سوى أن عمد الملك الى القوة والخشونة فى معاملتها ، فشد قبضتيه حول يديها ، ولم يفلتها الا بعد أن أقلعت السفن**

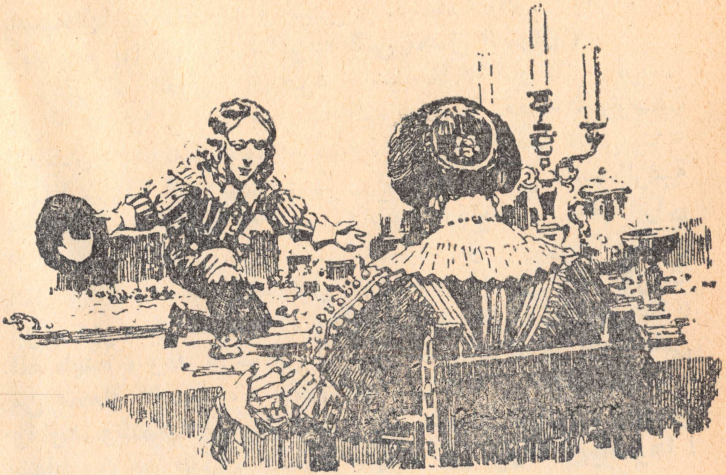
بأصدقائها .. فانهارت فى فيض من الشقاء ، والهم ، والدموع ، وقد برح بها اليأس ! (**اللوحة التى تحمل العنوان**)

وغنى عن القول ، أن طرد حاشية الملكة أثار ثائرة فرنسا على « تشارلس » ، فوجهت اليه حملات مقذعة ، ووصف بالطغيان ، والزندقة ، والوحشية .. بينما وصفت « هنريتا » بأنها الشهيدة التى يضحى بها زوج ضعيف على مذبح الرغبة فى ارضاء رعية متحاملة ! .. وزاد من تأجج سعير حقد الرأى العام لفرنسى ، ان انتشرت اشاعة سرت من (ليموج) مسرى النار فى الحطب .. **فقد قيل أن فتاة فى مقتبل العمر طرقت أبواب دير معين تنشد الملاذ ، قائلة أنها لم تكن سوى « هنرييتا » المضطهدة ، وقد فرت من انجلترا ، من جراء ما كانت تلقى من معاملة قاسية .. وكان وصفها للبلاط الملكى دقيقا ، وأباؤها وشممها مهيبين ، حتى لقد صدقها الناس ، وأخذوا يتقاطرون من طول البلاد وعرضها ، لكى يروها ويواسوها !**

ومن الطبيعى أن القصة كان خدعة زائفة ، ولكن الكثيرين صدقوها ، وظلوا يصرون على تصديقها ، حتى عندما قدمت الفتاة الى المحاكمة وثبت زيفها !

ولى العهد يولد ميتا

• وفى تلك الاثناء ، كانت « هنرييتا » قد حملت — فى انجلترا — وأوشكت أن تنجب وليا للعرش . **ولكن سوء الحظ أبى الا أن يتعجل الجنين الهبوط الى الدنيا ، فلم يقدر له أن يعيش سوى ساعات قلائل ! .. وكان هذا — فى حد ذاته — نكبة ضاعفت من مأساة « هنرييتا »** . اذ أن مولد طفل لها كان قمينا بأن يعجل بنضجها ، وأن يزيدها وقارا ورزانة .. والواقع أن موت الوليد ، أبقاها فى طيش المراهقة الرعناء ، فلم تتخل عن نزواتها ! .. ومن ذلك انها كانت مشغوفة بالاقزام ، وكان تقديم قزم لها ، جميلا لا ترد لصاحبه رجاء . ويروى



وقفز قزم أمام الملكة .. (من رسم ماتانيا)

فى هذا الصدد ، أن دوقة بكنجهام اهتدت يوما الى قزم لم يكن طوله يتجاوز خمسة وأربعين سنتيمترا ، فأخفته فى فطيرة قدمت على المائدة الملكية .. حتى اذا أزيلت قشرتها الخارجية ، اذا بالقزم يقفز منها ، وقد اكتسى ثوبا أنيقا ، وركع أمام طبق صاحبة الجلالة ، مما أطربها وبث فى نفسها مرحا لا حد له !

ولى عهد .. جديد !

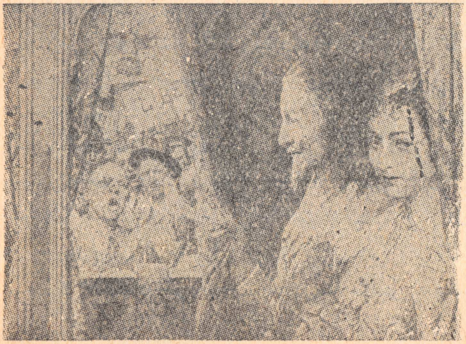
• **ولم** يطل الوقت بهنريتا حتى حملت من جديد ، وراحت ترتقب مولد الطفل فى رجاء بالغ .. بيد أن الفرحة المنتظرة تعرضت لمكدرات أفسدتها ، **اذ ثار الرأى العام الانجليزى ، لاحتمال أن تستمر الملكية خلال ملك ينحدر من أم كاثوليكية**

أبت أن تتوج فى كاتدرائية بروتستانتية . . وأصبح هذا الموضوع مضمارا للتنافس الحزبى ، وأفاضت آلات الطباعة سيلا جارفا من المنشورات والمقالات التى امتلأت بالحملات على الملكة ، وانتقادها ، ونعتها بأقذع النعوت وأفحش الاوصاف

البرلمان يطالب بتسليم أولاد الملك للدولة

● **وانهار** أخيرا تفاؤل تشارلس ورجاؤه ، فأخذ القنوط يغشاه ، وحدس الصراع الذى كان مقدرا له أن يخوضه ، وأدرك ـ دون أن يخدع نفسه ـ أنه لن يقوى على أن يغالب لججه . ومع أن ولى العهد المنتظر والد بسلام ، دون ما سوء ، الا أن الموقف لم يتحسن ، وان شعرت الملكة بسعادة لاتوصف .

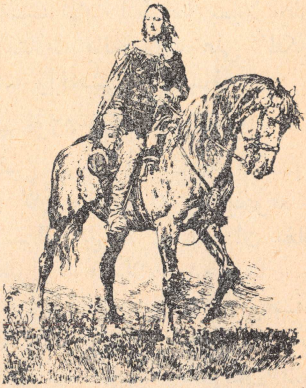
وطال الصراع حتى سنة ١٦٤١ ، وحتى أنجبت هنرييتا للملك القلق المضنى أربعة أطفال .. **ثم اذا بالبرلمان يتخذ خطوة عجيبة ، شاذة ، اذ دعا الملكة الى أن تسلم الدولة أولادها ، حتى لا ينشأوا على الكثلكة .. وكان من المستحيل على ((هنرييتا)) أن ترفض .. كما كان من المستحيل أيضا**



وكان الشعب يقابل الملكين بالسباب والوعيد ..

(لوحة بريشة ماتانيا)

ان تقبل .. ومن ثم فانها لم تجد مفرا من أن تتخذ الطريق الأوحد .. الا وهو أن تتهيأ لمبارحة البلاط بأطفالها !



الملك يودع أعزاءه !
(بريشة الفنان ماتانيا)

ولم ير الملك بدا من الرضوخ لحكم الظروف ، فتظاهر بأنه ينتقل بالملكة الى (همبتن كاورت) طلبا للترويح ، ليقتربا من الساحل !

وبين آلاف من الناس المهتاجة ، المتوعدة ، الصاخبة ، بارحت « هنريتا » لندن (همبتن كاورت) ، تحف بها الصيحات الساخرة ، والسباب المهين .. وبهتت هنريتا لعنف الشعب ، ولكن تشارلس لم يعجب ، فقد كان يتوقع هذا ، وأكثر من هذا .. كان يتوقع الثورة التى أطاحت به !

ومن (هامبتن كاورت) ، تسللت « هنريتا » بأطفالها الى (دوفر) ، حيث كان فى وداعها الزوج الذى كان تدلهه فى هواها سببا من الاسباب الرئيسية فى فشله كعاهل ! .. وظلت السفينة تسير بحذاء الشاطىء فترة من الوقت ، و « تشارلس » يسير معها على صهوة جواده ، على البر .. على انه لم ينقض نصف ساعة ، حتى كانت تغيب فى أطواء الافق . فألقى « تشارلس » نظرة أخيرة على أعز من كانوا له فى الحياة ، ثم ولى وجهه شطر لندن .. ليستقبل مصيره الموعود !

دراسة من صميم الواقع

◆ ان كل كلمة محسوبة عليك .. كل كلمة تلقيها دون اكتراث ، ودون شعور بالمسئولية ، قد تلتقطها أذن مندسة ، ومتربصة .. فقد أصبحت الجاسوسية سلاحا من أخطر الأسلحة فى أوقات السلم ، لا فى أوقات الحرب فحسب . وقد كشفت سلطاتنا المسئولة كثيرا من شبكات التجسس والتآمر على سلامة الوطن ، وسلامة حريتنا وقوميتنا العربية . لذلك كان من الخير لكل مواطن أن يلم بحيل ومغامرات الجواسيس، ليعرف - أولا - كيف تتآمر الدول الاستعمارية على الشعوب الأخرى ، وليكون - ثانية - على حذر ، فلا يصبح أداة لكل دخيل ، دون أن يشعر ، بل يصبح سلاحا يهتك ستر كل من تحدثه نفسه بالتسلل الى صفوفنا ..

ولقد قدم لك « كتابى » فى العدد (٧٩) ملخصا لمغامرات أشهر الجاسوسات بين الحربين العالميتين ، وقدمت لك « مطبوعات كتابى » فى عددها (٢٣) كتابا عن « أسرار الجاسوسية » كتبه أحد الخبراء بالتجسس ، كما قدمت لك فى عددها (٤١) رواية مستقاة من حقائق جهود الغرب للتجسس والتآمر على الصين الشعبية ، هى « سفينة الملذات » .. وفى الصفحات التالية ، نقدم لك ملخصا لأحدث كتب « رونالد سيث » . وهو جاسوس بريطانى لعب أدوارا كبيرة فى الحرب العالمية الثانية ، ووضع عدة كتب عن مغامراته وعن حيل الجاسوسية واساليبها !

المؤلف الذى نظم أول هيئة

◆ فى صباح مشرق ، من ربيع سنة ١٧٠٤ ، تلقى « روبرت هارلى » - رئيس مجلس العموم البريطانى - رسالة من ثلاث وعشرين صفحة ، لا تحمل اسما ولا تاريخا . ومع ذلك فقد استطاع أن يعرف مرسلها ، لانه كان فى ارتقابها ، عقب حديث شفوى .. كانت من سجين أفرج عنه من سجن (نيوجيت) بفضل توسطه الشخصى عند الملكة « آن » . **ولم يكن ذلك**

السجين سوى ((دانييل ديفو)) ، الكاتب الذى أبدع خياله — بعد ذلك بخمسة عشر عاما — قصة ((روبنصن كروزو !)) ..
أما الرسالة ، فقد تضمنت مشروعا مفصلا يمكن الحكومة من أن تكون على علم بما يراه الشعب — فى مختلف نواحى الحياة ، وفى مختلف أرجاء البلاد — فى الحكومة وأعمالها . فكأنها كانت — فى الواقع — مشروعا لبث شبكة من المباحث السرية — أو المخابرات العامة — فى أرجاء انجلترا ..

وكانت انجلترا تمر اذ ذاك بفترة حرجة ، كما كانت شؤون الدولة غالبا فى يد رجل واحد ، تسانده الملكة ، أو فى أيدى حفنة قليلة من الرجال الاقوياء .. **وكان المستر ((هارلى)) — رئيس مجلس العموم — رجلا طموحا ، يصبو الى السلطان ، ولكنه كان يؤثر أن يسعى اليه فى الخفاء ، فكان يلذ له أن يفرض نفوذه بأساليب سرية . لذلك صادف مشروع ((ديفو)) هوى من نفسه ، وعمد الى اقناع الملكة به .** ثم وكل أمره الى مبتكره .. فكان ((دانييل ديفو)) أول رئيس لهيئة منظمة للمخابرات العامة فى العالم !

كبار الكتاب و ((هيئة الذكاء)) !

• **على أن** ((دانييل ديفو)) لم يكن الاديب أو الكاتب الوحيد الذى أحرز شهرة عالمية وعمل فى المخابرات السرية ، فهناك ((جوناثان سويفت)) — مؤلف ((رحلات جليفر)) — بين الكتاب القدامى ، وهناك ((سومرست موم)) وسير ((كومبتون ماكينزى)) ، بين الكتاب المعاصرين !

ولكن ((ديفو)) خاض خضم المغامرات منذ البداية . فقد عمل كتاجر فى حى المال فى (لندن) ، واكتسب ثروة طيبة ، وهو فى باكورة الشباب . ثم انضم الى ثورة ((دوق مونماوث)) — سنة ١٦٨٥ — ونجا من الاعدام بأعجوبة . وكان اسرافه قد أفقده الشطر الاكبر من ثروته ، كما أن تجارته كسدت ، فلم

يلبث أن أفلس .. فعاونه بعض الاصدقاء من ذوى النفوذ ، حتى أصبح الصديق الاوفى للملك وليم الثالث ، وكان الملك يعتز بمشورته ويعجب بذكائه .

وبرع « ديفو » فى كتابة المنشورات السياسية ، مماأدى به الى السجن ، عقب تبوء الملكة « آن » العرش . ولكن الصدف ساقت المستر « هارلى » الى العثور عليه ، فتشفع له ، ثم جعله على رأس أول جهاز للخدمات السرية .. وهو جهاز يقابل اليوم « المخابرات العامة » ، و « المباحث السياسية » و « جهاز أمن الدولة » مجتمعة .

وكانت أولى خطوات « ديفو » ـ فى سبيل انشاء جهازه ـ أن قام برحلات الى كافة أرجاء انجلترا ، حيث أقام أعوانا له من ذوى الذكاء ، ومن القادرين على استيعاب التعليمات وتنفيذها .. ولذلك عرف باسم **« انتليجنس سيرفس »** Intelligence Service ، **أى « هيئة الذكاء » ! ..**

وخليق بنا أن نذكر أن وسائل السفر ـ فى تلك الايام ـ كانت عسيرة وشاقة ، فلم يكن فى وسع الحكومة فى (لندن) أن تعلم بتذمر الشعب أو مؤامرات المتمردين ـ فى الاقاليم البعيدة ـ فى وقت مناسب لتدارك كل خطر . ومن ثم فقد كان على أعوان « ديفو » أن ينصتوا الى أحاديث القوم ، وأن يتسقطوا الانباء ، ثم يحملونها الى « ديفو » بأسرع وسيلة ممكنة .

.. طرف الكابتن « تيرنر » !

• **وان** هى الا اعوام ثلاثة ، حتى شملت شبكة « ديفو » كل انجلترا واسكتلندا ، وبسطت اطرافها الى (باريس) و (تولون) و (بريست) و (دنكرك) . وكان« ديفو » يحرص كل الحرص على ان تظل اسماء اعوانه متكتمة ، وان تبقى جهودهم سرية ، حتى يبدو الواحد منهم مجرد مواطن عادى فلا يرهبه الناس او يتحاشونه .. وكان هو نفسه ـ اذا

سافر ـ سافر كتاجر أو بائع متجول . ولما كان اسمه معروفا بسبب ماكتبه فى المسائل السياسية ، فانه كان ينتحل اسم « الكسندر جولد سميث » ، أو اسم « كلود جيلوت » .. وكانت القصص التي يستخدمها لاخفـاء حقيقة شخصيته ، قصصا يضعها بدقة وعنـاية .. **فاذا كان عليه ان يزعم انه صاحب حرفة معينة ، فانه كان يدرس دقائق هذه الحرفة ، حتى لا يكشف عن جهل يحرجه ، اذا ما تعرض لافراد من ممارسيها . كما ان الاساليب التى كانت تنقل بهـا التقارير الى (لنـدن) كانت أساليب مدروسة بحيث تظل خفيـة ومستترة .**

وقد حدث مرة أن كان « ديفو » فى مهمة فى (ويماوث) . وكان قد اتفق مع مستر « هارلى » على أن يرسـل له هذا تعليماته باسـم « الكسندر جولد سـميث ـ طرف الكابتن تيرنر » ـ وشاءت الصـدف أن يكون فى المدينة شـخصان باسم « الكابتن تيرنر » فوقع احد الخطابات فى يدى « الكابتن » الذى لم يكن « ديفو » على علاقة به ، فعجب من الحـديث التافه ، غير المفهـوم ، الذى اشتملت عليه الرسـالة ، وراح يريها لـكل امرىء فى المدينـة ، وسرعان ما ذاع أن هنـاك جاسوسا .. واستطاع « ديفو » أن يفلت بأعجوبة !

توحيد اسكتلندا وانجلترا .. عملية جاسوسية

وكانت اعظم عملية قام بها « ديفو » ، هى التى اداها عنـد توحيد تاجى (اسكتلندا) و (انجلترا) . فمـع أن المساعى لتوحيد التاجين كانت قديمة العهد ، الا انها لم تتخذ شكلا عمليا جديا ، الا فى عهد الملكة « آن » التى أرادت أن تدمج الدولتين تماما .. وصدر مرسوم فى سنة ١٧٠٦ . وكان من المؤكد ان يقره البرلمـان الانجليزى ، ولـكنه كان معرضا للخطر فى البرلمان الاسكتلندى .

وفى خريف السنة ذاتها ، اوفد « ديفو » الى (ادنبره) لينظم شبكة من أعوانه ، وليتخذ الوسائل لترويج فكرة الوحدة واقناع الرأى العام الاسكتلندى بها . **فاذا سمع احدا يعارض الوحدة ، عمد بلباقة – ودون كشف حقيقته طبعا – الى الرد عليه ومجادلته بحجج مفحمة . واذا اكتشف جهودا لعرقلة مساعى التوحيد ، كان عليه ان يفسدها !**

ووصل الى (ادنبره) فى اوائل اكتوبر سنة ١٧٠٦ ، تحت اسم « الكسندر سميث » ، فزعم للبعض انه كان يسعى الى بناء مصنع للزجاج ، وقال لبعض آخر انه كان يتجر فى المنسوجات ، وزعم لناس انه وفد ليمارس هواية صيد السمك ، بينما زعم لقوم آخرين انه كان يجمع مادة لكتاب عن « تاريخ الاتحاد » .. **وهكذا كان ينتحل من القصص ما يكفل اخفاء حقيقة شخصيته ، واستطاع أن يوفق توفيقا عظيما ، انتهى – فى ١٨ يناير سنة ١٧٠٧ – بأن وافق البرلمان الاسكتلندى على مرسوم التوحيد** . وما ان وقعت الملكة « آن » المرسوم ، حتى كتب « ديفو » الى « هارلى » يساله ان يأذن له بالعودة الى (لندن) .. وراح يرسل الرجاء تلو الرجاء ، ولكن « هارلى » اصم اذنيه ، حتى اشتد بديفو اليأس ، ونفدت موارده .. وأخيرا ، فى ديسمبر من ذلك العام ، أرسل اليه « هارلى » النقود والاذن بالعودة !

جاسوس الحكومة يسيطر على صحافة المعارضة

• **وعندما** اشتد نشاط اليعقوبيين من أنصار « آل ستيوارت » فى انجلترا – فى سنة ١٧١٤ – ودبروا حركة عصيان ضد الملكة وحكومتها ، دعا « ميست » – رئيس تحرير كبرى صحفهم – « ديفو » الى أن يكون مترجما للأنباء الخارجية فى الصحيفة ، دون أن يعلم انه كان يعمل لحساب الحكومة . **وسرعان ما اكتسب « ديفو » ثقة رئيس التحرير ،**

فبوأه هذا منصبا مكنه من أن يحول دون نشر الانبـاء التي تسيء الى الحكومة . ولمع نجمه فأصبحت صحف المعارضة تنشد مشـورته ، فازداد نفـوذه على تلك الصحف ، حتى أصبحت لا تنشر شيئا الا بعد استشارته .

وقد ظل سنوات فى هذا الوضع ، دون أن يرتاب أحـد فيه ، بل كانت صحف المعارضة تعتز بمشورته .

الى أن حدث فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٨١٧ أن خرج «ميست» على مشورة « ديفو » ونشر مقالا ينتقد فيه معالجة الحكومة للعلاقات بين انجلترا وأسبانيا . فاستدعى « ميست » فى أول نوفمبر أمـام الوزيرين المسـتر « كراجس » واللورد « ستانهوب » اللذين حققا معه ، فزعم ان « ديفو » كان كاتب المقال . ولكن « ستانهوب » أفحمه بأن الاصل كان بخطه ، فزعم « ميست » ان « ديفو » كان يصر على أن تنقل كتاباته بخط آخر ، ثم تعدم الاوراق التى بخطه . وأيده فى ذلك مدير مطبعة الصحيفة !

وسبب هذا الحادث شقاقا بين « ميست » و « ديفو » دام بضعة أسابيع ، ثم اعتذر الاول للثانى . ولكنه ما لبث بعد عامين ـ فى يونيو سنة ١٧٢٠ ـ أن كرر الامر ، اذ نشر فى الصحيفة مقالا ضد الحكومة ، دون عـلم « ديفو » . **وفى هذه المرة ، اضطر الاخير الى أن يكشف موقفه ، لتفـادى الخطر الذى كان محدقا به** .. ومنذ ذلك الحين خبا نجمه ، فانصرف الى التأليف ، وأصدر « روبنصن كروزو » ، التى صادفت نجاحا هائلا ، حفزه على أن يعقبها بروايات أخرى ..

مغامرته الاخيرة .. فى سن السبعين

• **وكانت** السنون قد بدأت تفرض عليه سلطانها ، اذ كان ـ فى سنة ١٧٢٠ ـ قدبلغ الستين من عمره .. وهى سن اعتاد الناس فيها أن يكفوا عن النشاط ، فى تلك الايام ، فلم

يكن ليخطر ببال أحد أن يقوم « ديفو » بأية مغامرة غامضة بعد ذلك .. ولكنه **فى أواسط صيف سنة ١٧٣٠ – وقد بلغ السبعين من عمره – اختفى فجأة !**

وفى ١٢ أغسطس ، أرسل الى زوج ابنته – الذى كان قد اخترع لغة الاشارة التى يتخاطب بها الصم والبكم – خطابا كتبه من « على مسافة ميلين من جرينويتش بمقاطعة كينت » ، وذكر فيه انه تلقى « صدمة من شخص لئيم ، وعدو قذر حقير » . وكان المعتقد – الى عهد قريب – ان غريما له ، منذ أيام نشاطه فى المخابرات ، قد اختطفه . وكانت هذه كفيلة بأن تكون خاتمة روائية بديعة لحياته ، **لولا أن كشفت أبحاث الدكتور « جيمس سوذرلند » – منذ عهد قريب – أن اختفاء « ديفو » فى شيخوخته ، لم يكن راجعا الا الى اضطراره للهرب من بعض الدائنين . وقد أحكم خطط اختفائه ببراعة ، حتى أن أسرته ذاتها لم تستطع أن تهتدى اليه .**

وفى ٢٦ ابريل سنة ١٧٣١ ، مات فى نزل حقير ، فى اسقفية (سانت جايلز – ان – كريبلجيت) ، ودفن دون أن يشيع أحد من معارفه – أو أسرته – جنازته ، اذ انهم لم يكونوا على علم بأمره ، حتى قرأوا نبأ فى الصحف جاء فيه : **« مات – منذ أيام – دانييل ديفو (الاب) ، الذى اشتهر بمؤلفاته العديدة »** .. ولم يذكر أحد انه كان منشىء نظام المخابرات السرية !

جواسيس يستحقون المجد .. وجواسيس مجرمون !

• **والجاسوسية** قديمة ، قدم التاريخ ذاته . وقد ذكرت لاول مرة فى « التوراة » عند الاشارة الى اعتماد النبى « موسى » عليها . فعندما خرج بنو اسرائيل من مصر ، لم يكن لهم مكان يأوون اليه ، فضربوا خيامهم فى البيداء ، وأمر الرب موسى ان « ارسل رجالا ليتجسسوا أرض كنعان » .

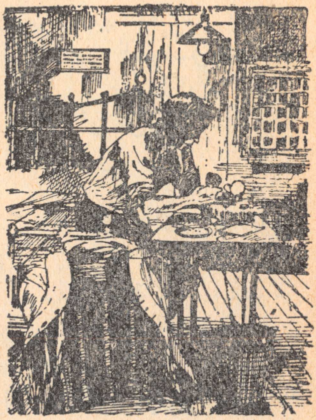
وليس هنا مجال المضى فى القصة ، ولكنها أقدم قصة تجسس فى التاريخ . وقد ذهب جواسيس اسرائيل لمهمتهم فى ثياب عادية ، ولكن « يوليوس قيصر » عندما أراد غزو بلاد الغال — بعد ذلك بقرون عديدة — أرسل جواسيسه فى ثيابهم العسكرية ، وان قاموا بمهمتهم فى سرية . وكانوا يسمون « كشافين » .

وهذا يسوقنا الى الحديث عن « الكشافين » الذين ترسلهم الجواسيس الى الميدان ، قبل المعركة . فهم يزحفون فى تكتم حتى يصلوا الى أقرب مسافة ممكنة من جيوش الاعداء ، ليكتشفوا قواتها واستحكاماتها . وهؤلاء لايختلفون فى شىء عن الجواسيس الذين وراء خطوط الاعداء ، أللهم الا فى أنهم يرتدون ثيابا عسكرية ، **واذا اعتقلوا عوملوا معاملة أسرى الحرب ، وقد عقدت اتفاقية دولية — هى « ميثاق جنيف » — لحمايتهم . أما الجاسوس ، فلا شىء يحميه .. وهو — فى أيام السلم — يسجن لعدة سنوات ، اذا ما اعتقل. أما فى أيام الحرب ، فيعدم .**

ومن الغريب أن « الكشافين » يعتبرون أبطالا ، بينما يعتبر « الجواسيس » أخساء ، ولعل ذلك راجع الى اننا نخشى كيدهم لاندساسهم بيننا دون أن نفطن اليهم . فى حين أن من الجواسيس من يؤدون لبلادهم أجل الخدمات وأعظمها ، ومن يبدون بطولات رائعة . على أن من الطبيعى ان من الجواسيس من يستحقون كل احتقار وكراهية ، وأولئك هم الذين يتجسسون على بلادهم لحساب دولة أجنبية ، أو الذين يتجسسون على بلادهم لحساب الغريب وعلى الغريب لحساب بلادهم ، ويتقاضون الاجر من الطرفين . وهؤلاء فى الواقع « خونة » ، جرمهم هو أشنع ألوان الاجرام .

كنت أستخدم جهازا لاسلكيا

• **وباختراع** الاجهزة اللاسلكية ، اتسع مجال ارسال التقارير



أمام الجواسيس ، وقد أدخلت تحسينات عديدة على هذه الطريقة أثناء الحرب العالمية الثانية . وقد كنت - أثناء عملياتى - أصطحب حقيبة صغيرة طولها ١٤ بوصة ، وعرضها ١١ بوصة ، وسمكها ثلاث بوصات ونصف ، ولكن الجهاز الذى كانت تحتويه ، كان يمكننى من أن أرسل تقاريرى على مدى ألف وخمسمائة ميل . ولكن الالمان كانوا أكثر تفوقا فى هذا المضمار ، فقد حصلت على جهاز من أجهزتهم أصغر من هذا حجما ، ولا يصل وزنه الى رطلين ، حتى ليمكن اخفاؤه فى علبة متوسطة من علب الحلوى !

وقد كانت كل خلية من خلايا الجاسوسية - فى الحرب الماضية - تضم شخصا خبيرا باللاسلكى ، ليرسل التقارير ويتلقى التعليمات . وقد زادت سرعة هذه الطريقة من أهمية الجاسوسية وخطورتها . ولا يتولى عامل اللاسلكى جمع المعلومات ، ولكن مهمته من أشد مهام الجاسوسية خطرا ، اذ أن المسئولين عن مكافحة الجاسوسية مزودون بسلاح خطير ، هو جهاز « أكتشاف الاتجاه » .. فبقياس طول الاشارات اللاسلكية ، يستطيع الخبراء أن يقدروا المسافة التى يكون جهاز الارسال اللاسلكى فى نهايتها . فتطوف سيارة مزودة بجهاز « أكتشاف الاتجاه » فى نطاق هذه المسافة ، حتى يشير الجهاز الى بيت معين . ويتحايل الجواسيس على ذلك بنقل جهاز الارسال من مكان الى آخر ، بحيث لاتذاع الرسائل من مكان واحد مرتين ، وباستخدام

أقصى سرعة ممكنة فى هذا التنقل .

رسائل فى اعلانات الصحف

• **والى** جانب الخبرة فى اللاسلكى ، تتطلب مهمة عامل الارسال أن يكون خبيرا بالشفرة ، ليحول اليها مالديه من رسائل . وللشفرة أساليب كثيرة ، ويدخل على كل أسلوب كثير من الحيل زيادة للتعمية والتضليل ، كما يضاف عليه ما يسمى « اشارة الامان » ، وهو اصطلاح من اصطلاحات الشفرة ، فاذا وقع جاسوس فى أيدى الاعداء ، واضطروه الى أن يرسل معلومات زائفة بالشفرة ، أغفل «اشارةالامان»، فيدرك رؤساؤه أن فى الامر سرا . ويجتهدون فى الشفرة أن تمكن من كتابة عبارات مفهومة معقولة ، حتى لا تستثير الرسالة المكتوبة بها شك أى رقيب تقع بين يديه .

وأذكر اننى أثناء الحرب الماضية، كنت فى ألمانيا،واستطعت أن أغرر بالمخابرات الالمانية وأقنعها بايفادى الى انجلترا كجاسوس لها . وكان على أن أتعاون — بهذا الوصف — مع فرنسية تدعى « تيريز » ، تكون وسيطا يتلقى رسائلى فى بلد محايد ويسلمها الى الالمان . وكان على أن أنشر عند وصولى الى انجلترا ، اعلانا فى صحيفة التايمز ، هذا نصه :

« فراء أوسيلو فى حال جيدة للبيع — ٢٤٥ جنيها . أكتب الى صندوق بريد ... »

وبهذا تعرف « تيريز » عنوانى . كما أن الرقم **٢٤٥** يشير الى عدد الايام التى تنقضى بين مغادرتى ألمانيا ووصولها هى الى سويسرا . فاذا وصلت ، كان عليها أن تنشر اعلانا فى صحيفة « نيوزيوريخرتسايتونج » نصه :

« سيدة فرنسية بحاجة الى حائكة ثياب تصنع لها بعض الثياب فى مسكنها، أكتبى الى مدام تيريز بوفيه، بعنوان... »

وبهذا أعرف عنوانها وأتأكد من وصولها ، دون اثارة الريب !

ذاكرة ((فوتوغرافية)) وأعصاب حديدية

• **ولا بد** للجاسوس من صفات ضرورية ، الى جانب المران . فاذا كان موفدا للتحرى عن مسائل عسكرية ،وجب أن يعرف جميع وحدات قوات العدو ، وأن يستذكر – عن ظهر قلب – شاراتها ورموزها المميزة ، ورتب الضباط ، وأنواع الاسلحة .. واذا كان موفدا الى منطقة صناعية ، وجب أن يعرف كل شيء عن أنواع المصانع والآلات فيها ، وذلك ليتمكن من تسقط المعلومات خلال الاحاديث العادية التى تدور بين العمال فى الحانات مثلا . وقد وضع « دانييل ديفو » خير وصية للجاسوس ، اذ نصحه بأن يبدو مسالما، أبعد الناس عن الاضرار بأحد ، قديرا على أن يندمج فى الاوساط المحيطة به بحيث يبدو منها تماما

ولقد كان على – فى احدى عملياتى – أن أزعم اننى كنت بحارا على السفن التجارية ، فقضيت ثلاثة أشهر على ظهر سفينة لنقل البترول ، أدرس لهجات البحارة ، وعاداتهم ، والحياة على السفن ، وحياة البحارة فى البر ، حتى أطمئن الى أن أحدا من جيرانى لن يرتاب فى أمرى .

كذلك يجب على الجاسوس أن يكون ذا **((ذاكرة فوتوغرافية))** تلتقط صور الناس فتطبعها على صفحه مخه . كما يجب أن يكون فى مهارة « البوليس السرى » ، يجيد تعقب الناس بدون أن يفطنوا اليه ، ويعرف كيف يفلت من متعقبيه ، ويجيد الدفاع عن نفسه بالمسدس ، وبالخنجر ، وبالمصارعة اليابانية ، وبالملاكمة . فكم من مواقف قد لايجد فيها مخرجا الا بازاحة غريم من طريقه . على أن أهم الامور – بالنسبة اليه – هو أن يكون قوى الاعصاب ، قديرا على أن يسيطر على نفسه ، وعلى أن يفكر بسرعة ، ويتخذ قراراته فى أقصر وقت . كما يجب أن يكون قوى الجلد ، اذ أنه قد يتعرض

لالوان من العذاب — اذا اعتقل — لكى يفضفض بما لديه .

جاسوس فى أدغال أمريكا

● فى الساعة التاسعة من صباح ٢٣ سبتمبر سنة ١٧٨٠، برز من احدى الغابات الامريكية رجل فى حوالى التاسعة والعشرين من عمره ، مشعث الهيأة ، نامى اللحية . فتلفت حوله ، حتى اذا اطمأن الى أن خطوط الانجليز — فى حربهم ضد الامريكيين التواقين الى الاستقلال — كانت على ميل أو اثنين من مكانه ، تنهد فى ارتياح .. **كان قد قضى ثلاثة أيام من أصعب الايام . وكانت ثمة أوراق خطيرة فى جوف حذائه ، أتعبت قدمه الى أقصى حد .**

وتأمل الرجل اذن المرور الذى كان يحمله باسم « جون أندرسن » ، موقعا باسم القائد الامريكى « بنيدكت ارنولد »، ثم سار الى دغل فى الشمال الشرقى . وقد قدر انه اذا اجتازه وفر على نفسه ساعة وربع الساعة . وفيما هو ماض خلال الاشجار، اذا بصوت يأمره بالوقوف ورفع يديه ، فخفق قلبه بعنف للمفاجأة ، ولكنه امتثل للأمر . **واذا بثلاثة رجال يبرزون من بين الاشجار ، مرتدين معاطف انجليزية . فاطمأن الرجل وابتسم ، وبادرهم قائلا : « الحمد لله .. كنت آمل أن تكونوا من رجالنا ! » . فسأله زعيمهم : « أى رجال » . فأشار الشاب نحو مواقع الانجليز .**

وتبادل الثلاثة النظرات ، ثم قال زعيمهم : « أجل » . فقال الشاب : « هكذا توقعت .. أنا الميجر جون اندريه ، من جيش صاحب الجلالة . وكنت فى مهمة سرية وخطيرة فى الصفوف الامريكية، فأرجو أن تساعدونى على بلوغ خطوطنا! » . واذ لمح ارتيابا على أساريرهم قال : « اننى أحمل اذن مرور أمريكى باسم جون أندرسن، ولكنكم ستجدون اسمى الحقيقى منقوشا على غطاء ساعتى » . وأخرج ساعة ذهبية ، أراهم



الاسم منقوشا داخل غطائها . وشد ما كانت دهشته حين قبض عليه الرجال . وهنا أسعفته قريحته بمخرج ، فضحك قائلا : « لقد أردت أن أختبركم ، اذ رأيت عليكم معاطف انجليزية » . واذ قالوا أنهم غنموا هذه المعاطف من بعض الانجليز ، حاول أن يقنعهم بأنه أمريكى ، ولكن شكهم كان أقوى من منطقه ، فقادوه الى الليفتنانت كولونيل جيمسن ، قائد القطاع

حب فاشل أفضى الى المهالك

• **والواقع** أن موقف الميجر اندريه لم يكن مما يحسد عليه .. فلقد كان سويسرى المولد ، نزح مع أبويه الى لندن ، ولكنه أعيد الى (جنيف) حيث تعلم ، حتى اذا رجع الى أبويه ، وقع فى حب فتاة تدعى « هونورا سنيد » لم تبادله الحب ، فالتحق بالجيش الانجليزى ، وأصبح ضابطا فى سنة ١٧٧١ ، وهو فى العشرين من عمره . ورحل مع القوات التى أوفدت الى أمريكا فى حرب الاستقلال . ولكنه وقع أسيرا فى سنة ١٧٧٥ ، ثم أطلق سراحه بعد مدة ، فلقى من تقدير قادته ما رفعه الى مرتبة عالية . ثم قدر له أن يتصل بالجنرال الامريكى بنيدكت أرنولد ، الذى كان حانقا على قومه ، لان زملاءه تخطوه فى الترقيات . ومع أن الجنرال واشنطن أنصفه بعد ذلك ، الا أنه لم يتخلص من حقده !

وطلب أرنولد أن يعين قائدا لحامية ويست بوينت ، التى

كانت من أهم المراكز فى نظام الدفاع الامريكى ، وكانت مخزنا لكمية كبيرة هائلة من الذخيرة . **وكان « أرنولد » يعتزم — من قبل الحصول على المنصب — أن يعمل على تسليم هذا الموقع للانجليز ، فاتصل بهم سرا ، وكان أن عين « جون اندريه » لمفاوضته ، ووصلت المفاوضات الى مرحلة تسليم الخطة .**

وفى ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٨٠ ، حملت البارجة « فلشر » الضابط أندريه الى بقعة معينة من نهر هدسون ، اتفق على أن ينتظره « أرنولد » عندها . فلما انتصف ليل اليوم التالى ، حمل فى قارب الى البر ، حيث التقى بأرنولد . ولكن المفاوضات طالت ، وداهمهم الفجر ، فدعا الامريكى ضيفه الى مزرعة قريبة لفلاح يدعى « جوشوا سميث » .

الامريكى ينجو .. والانجليزى يعدم !

● **وفيما** كانا يتناولان فطورا سمعا قصف المدافع . فلقد اكتشف الامريكيون البارجة « فلشر » ، فراحوا يطلقون النار عليها ، واضطروها الى الفرار ، تاركة « أندريه » . **وهنا اقترح أرنولد، أن يرتدى الانجليزى ثيابا مدنية ، وأمده بجواز مرور ، ثم أوفد الفلاح ليقوده الى قرب الخطوط الانجليزية ، بعد أن أودع الشاب حذاءه تفصيلات خطة تسليم الحامية .**

وبادر الكولونيل « جيمسن » — الذى أسلم «أندريه» اليه بعد اعتقاله — فأرسل الوثائق التى وجدت معه الى الجنرال واشنطن ، الذى كان — فى ذلك اليوم — يتفقد المنطقة مع الفرنسى الشهير « لافاييت » .. وفيما كانا يتناولان الفطور مع « أرنولد » وزوجته ، اذا برسول يفد حاملا رسالة « جيمسن » . وحدس « أرنولد » الامر ، فأوحت اليه سرعة الخاطر أن يعتذر بأمر هام ، ثم بارح الحجرة ، واستدعى اليه زوجته ، فصارحها بالامر ، واذا بها تهوى عند قدميه فاقدة الرشد . ولكنه لم يستطع أن ينتظر ، فامتطى جواده ، قبل

أن يفطن أحد الى شيء ، وأسرع الى صفوف الانجليز

أما أندريه ، فكان قد اعتقل بملابس مدنية ، لذلك لم يكن ثمة سبيل الى اعتباره أسير حرب .. ورغم المحاولات التى بذلها قائده الانجليزى ، ورغم الضراعة التى أرسلها هو الى واشنطن ، فقد أعدم شنقا فى ٢ أكتوبر . فأعلن الجيش الانجليزى الحداد عليه ، وأمر الملك جورج الثالث باقامة نصب تذكارى له فى دير « ويستمنستر » ، حتى اذا هدأت الاحوال نقلت جثته الى الدير .. حيث دفن مع العظماء .

الكشاف الاعظم .. كان جاسوسا انجليزيا

• **وكل** من اشترك فى الحركة الكشفية فى صباه ، يذكر اللورد « بادن ــ باول » ، مؤسس الحركة .. **لقد كان بادن ــ باول من أنجح الجواسيس !** وقد بدا تفوقه فى حملات الاستطلاع ــ على حدود (ناتال) بجنوب افريقيا ــ أثناء القلاقل التى حدثت هناك فى سنة ١٨٨٤ ، ثم فى عمليات التجسس أثناء حملة « الزولو » فى سنة ١٨٨٧ . وفى سنة ١٨٩١ ، عين ضابطا للمخابرات السرية فى البحر الابيض المتوسط ، وارتدى الثياب المدنية ، وأصبح جاسوسا رسميا . وقد استطاع أن يؤدى مهاما بارعة فى (هرزيجوفينا) ، وهى الآن جزء من يوغوسلافيا ، كان تحت حكم النمسا فى الحرب العالمية الاولى . وكان عليه أن يركن الى أساليب التنكر ليستطيع أن يبدد الشكوك من حوله .

وفى ذات صباح ، رأى ضباط أحد الحصون ــ فى المنطقة ــ سيدا مسنا ، ذا عوينتين (نظارة) وظهر منحن ، وقد أمسك بشبكة كبيرة من شباك صيد النحل والفراش ، وصندوقا لحفظ العينات التى يصيدها ، وكراسة للرسم . **وراحوا يضحكون من الرجل ، ومن الهواية العجيبة التى تضطر كهلا مثله الى الخروج عن وقاره ، واتيان حركات بهلوانية . وما**



دروا أنه كان — أثنـاء تظاهره برسم أجنحـة الفراش — يرسم مواقع المدفعية والتحصينات !

وتســتطيع أن تلمس ما كان عليه « بادن — باول » من براعة فى التنكر ، من القصة التالية : فقد استخدم ذات يوم فى تنكره لحية حمراء . وفيما كان يغادر مكتبا للبريد ، ارتكب ما يعرف لدى الجواسيس بأنه « غلطة لا تغتفر » . **فقدلمح ضابطا من كتيبة — عمل بها فترة — فأقبل يحييه ! .. ولكن التنكر كان متقنا ، حتى أن الضابط ظن أن الامر اختلط على الرجل ذى اللحيـة الحمـراء ، فانصرف عنـه فى فتور !**

على أن « بادن — باول » لم ينس تنكره فى حادث آخر .. فلقد أوفد يوما للتجسس على أعمال الانشاء فى احدى الموانىء . وكانت الحراسة شديدة على المنطقة التى كانت المنشئات تقام فيها ، فلم يكن منه الا أن تربص بين المركبات التى كانت تنقل مواد البناء ، وبذلك استطاع دخول المنطقة . وفيما كان يقترب من موقع البناء ، اذا بجندى يناديه .. وتظاهر بعدم السمع ، حتى بلغ منعطفا حول البناء ، واذ ذاك أطلق ساقيه للريح . حتى اذا بلغ منعطفا آخر ، التفت فاذا وراءه جنديان يجدان فى ملاحقته . **ورأى أمامه سـلما مسندا الى « سـقالات » البناء ، فأسرع يطوى درجاته ، حتى اذا بلغ منتصفه ، وصل الجنديان الى المكان .. ولو أن أحدا غيره ، لكان قد جد فى الصعود ، ولكن « بادن — باول » جمد فى مكانه تماما .** وراح الجنديان ينظران يمينا ويسارا بحثا عن غريمهما ، فلم يجدا

له أثرا ، فدخلا يبحثان عنه خلال أعمال البناء ، دون أن يخطر ببال أحدهما أنه كان فوق السلم ..

وما أن رآهما « بادن ــ باول » يدخلان ، حتى صعد الى سطح المبنى . ولم يكن العمال قد وصلوا بعد ، فعنى أولا بالبحث عن سبيل للنجاة ، اذا بلغ الجنديان السطح . وسرعان ما اكتشف سلما قصيرا يصل الى الطابق الثانى ، ولكنه لا يصل الى الارض . فقنع به ، ثم راح يتفقد أجزاء المبنى التى كانت ظاهرة ، فأدرك من المداخن ، ومن أشكال أجزاء البناء ، أن العمل كان يجرى فى انشاء حوض جاف ومحطة لتوليد الكهرباء . واستطاع بفضل بوصلة كان يحملها أن يعين موقع المبنى تماما . **وهو أمر كان يهم البوارج اذا ما قامت حرب ، ورؤى نسف الحوض والمحطة لعرقلة بحرية الدولة صاحبة البناء !**

وكانت نجاة « بادن ــ باول » فى هذه المغامرة ، دليلا على ان خير سبيل للنجاة اذا كنت مطاردا ، هو أن تختبىء فوق المستوى الذى تتجه اليه أنظار مطارديك !

مدرب للكشافة فى روسيا

• **بيد أن** « بادن ــ باول » لم يكن « الكشاف » الوحيد الذى انقلب جاسوسا .. فقد حدث ــ ابان الحرب العالمية الاولى ــ أن كان فى (سان بطرسبورج) ، العاصمة الروسية اذ ذاك ، شاب انجليزى على معرفة تامة بالبلاد ، اذ كان عضوا فى اللجنة الانجليزية الروسية ، الى أن قامت الثورة الشيوعية فى سنة ١٩١٧ ، فعاد الخبراء الانجليز الى بلادهم ، **وبقى هو كمدرب للكشافة فى مدينة (سامارا) ، تحت اشراف جمعية الشبان المسيحيين الامريكية ..** ولكنه تلقى ذات يوم برقية تستدعيه للندن ، فبادر بالعودة . وما أن وصل ، حتى اقتيد ــ فى تحوط وغموض ــ الى مكتب سرى فى ميدان (ترافلجار) ،

حيث استقبله « كولونيل » أنبأه بأنه اختير لمنصب كبير فى « المخابرات السرية » .. منصب « رئيس المخابرات البريطانية فى روسيا » ! .. **فقد توقعت وزارة الخارجية أن تغلق أبواب روسيا فى وجوه الاجانب لفترة من الزمن ، فرأت أن تستعين بمدرب الكشافة الذى كان ذا منصب رضيت عنه السلطات**

وهكذا درب « بول ديوكس » – وهو اسم ذلك الشاب – على الشفرات والاخبار السرية زهاء ثلاثة أسابيع ، ثم عاد الى روسيا ، حيث أدار شبكة للجاسوسية الانجليزية هناك بمهارة عادت عليه بلقب « سير » .. فمع أنه لم يكن جاسوسا مدربا فى مدرسة المخابرات ، الا أنه أوتى مواهب مكنته من اجادة عمله ، لا سيما وأنه كان على معرفة واسعة بالبلاد وبعادات أهلها ولغتهم .. ولم تكن وسائل الاتصال اللاسلكى الراهنة معروفة اذ ذاك ، فكان يستخدم رسلا يتسللون الى (فنلندا) ، ويحملون رسائله الى القائم بأعمال المفوضية البريطانية هناك . وكثيرا ما جازف وقام بالرحلة بنفسه . فان (سان بطرسبورج) – التى تعرف اليوم باسم (ليننجراد) – تقع على نهر (نيفا) ، وهو أقصر طريق الى الخليج الفنلندى . وكثيرا ما يكون التقاؤه بالخليج ، عبارة عن ممر جليدى صلب فى الشتاء ، حتى لتحتمل طبقات الجليد أن تمر عليها زحافة يجرها حصان .

وفى ذات مساء ، جلس « ديوكس » فى أحد أكواخ (القرية القديمة) المطلة على الخليج الفنلندى، وهى من أطراف (سان بطرسبورج) . ولم تكن ثمة ريح هناك ، كما أن السكون كان مسيطرا ، لا يعكره سوى غطيط المهرب الفنلندى الذى كان يشاطر الانجليزى الكوخ . حتى اذا انتصف الليل ، صعد « ديوكس » مع المهرب الى زحافة خشبية من نوع كان الفلاحون الفنلنديون يستخدمونه لنقل محصولاتهم الى سوق (سان بطرسبورج) .

وكانت المسافة تستغرق أربع أو خمس ساعات عبر الجليد ، فأخذت الزحافة تسابق الريح . ولكن طبقات الجليد كانت قد بدأت تذوب فتخللتها حفر ، مما جعل الزحافة الخشبية تحدث قرقعة كانت تدوى عاليا فى سكون الليل . وضاعف من خطرها ، أن ثمة جزيرة فى الخليج الفنلندى – تدعى جزيرة (كرونستاد) – تعتبر منذ فجر التاريخ الروسى ، قلعة حصينة لحراسة (سان بطرسبورج) .. **وكانت الانوار الكشافة تنطلق من الجزيرة بين آن وآخر ، مكتسحة طبقات الجليد ، كما أن مساحة الرقعة التى كانت الزحافة منطلقة فيها ، كانت تضيق كلما اقتربت من الجزيرة ..** واستطاع المتسللان أن يجتازا كل هذه المخاطر ، حتى أوشكا على خط الحدود ، واذا « ديوكس » يفطن الى حركة ، ثم يكتشف أن خمسة أو ستة من الفرسان كانوا جادين وراءهما . فنهض واقفا ، وراح يستحث السائق . **ولكن الجواد كبا فجأة ، فانقلبت الزحافة !**

ونهض « ديوكس » فراح يحبو على يديه وركبتيه ، فى محاولة يائسة للابتعاد عن الزحافة .. وما لبث الفرسان أن أحاطوا بالزحافة ، وراحوا يسألون السائق . وأدرك « ديوكس » خطورة موقفه ، فأمسك بالاوراق التى كان يحملها ، متأهبا لان يلقى بها بعيدا ، اذا هم اهتدوا اليه . وظل منكمشا فى انتظار القدر . ولكنه لاحظ أن الريح كانت قد اكتسحت الثلوج من بعض البقاع ، فكشفت عن أرض سوداء تتخللها حفر شديدة السواد . ومن ثم راح يزحف على بطنه فى حذر ، حتى بلغ احدى هذه الحفر ، وارتمى فيها .

وأخذ الفرسان يقتربون شيئا فشيئا ، فازداد انكماشا فى مكانه ، وقد أمسك أنفاسه حتى كاد يختنق . **ولكن الحظ أشفق عليه ، فمر الحراس دون أن يفطنوا الى مخبئه . حتى اذا ابتعدوا فى جوف الظلام ، خرج من الحفرة ، وقطع المسافة الباقية على قدميه فى مشقة وعناء ..** وبعد ثماني ساعات ،

استطاع أن يطأ الشاطىء الفنلندى ، واذا بحراس من (فنلندا) يقبضون عليه ، ويأبون أن يصدقوا أنه لم يكن جاسوسا روسيا ! .. على أنه استطاع أن يقنعهم بأن يرسلوه الى (هلسنكى) ، حيث خف القائم بأعمال المفوضية البريطانية لنجدته !

الارنب الابيض الصغير !

• **سمع** المنصتون الى البرامج الفرنسية المذاعة من هيئة الاذاعة البريطانية ، فى مساء ١٧ أبريل سنة ١٩٤٣ ، عبارة « **الارنب الابيض الصغير ، عاد الى جحره** » ، تتردد أثناء البرنامج .. ولعلها بدت عبارة غير ذات معنى لكثير من المستمعين ، ولكنها كانت تعنى نبأ هاما لفريق من الرجال فى احدى ضواحى باريس .. كانت تعنى أن ثلاثة من أصدقائهم ـ كانوا فى زيارتهم من عهد قريب ـ قد وصلوا الى الساحل البريطانى .. وكانت هذه طريقة من طرق تبادل الانباء ، أثناء الاحتلال الالمانى لفرنسا . **ولم يكن « الارنب الابيض الصغير » سوى قائد الجناح « يو ـ توماس » ، وهو شاب من أسرة عاشت فى فرنسا زهاء قرن من الزمن ، وقد نزح الى انجلترا عند الغزو النازى ، والتحق بسلاح الطيران البريطانى ، فى الاسراب التى خصصت لاوروبا المحتلة** . وقد ساهم بجهد كبير فى حركة المقاومة السرية ، حتى قبض عليه « الجستابو » فى باريس ، فى ٢١ مارس سنة ١٩٤٤ .

وكانت حركة المقاومة فى دول أوروبا المحتلة ـ لا سيما فرنسا ـ شاقة ، اذ كانت تتألف من جماعات صغيرة ، متفرقة ، لا يكاد يوجد بينها ارتباط أو اتصال .. وكان منها جماعات ألفها الشيوعيون ، ودرجت على أن تستريب فى غيرها من الجماعات ، كما أن هذه كانت تغار منها وتستريب فيها بدورها . وكان لحكومة فرنسا الحرة ـ التى أنشأها « ديجول »

فى لندن ــ جهاز خاص للتجسس وأعمال التخريب ، كثيرا ما خرج على اجماع النظام الموحد لهذه العمليات فى أوروبا المحتلة . . **وقد كان بين أعضاء هذا الجهاز شاب من ألمع الشبان وأبرعهم هو ((الكولونيل اندريه ديوافران)) الذى عرف باسم ((كولونيل باسى)) ، والذى كان رئيســـا للمكتب المركــزى للمخابرات والعمليات** . وقد راح يعمل لتوحيد جماعات المقاومة السرية فى فرنسا ، وقرر أن يذهب الى بلاده المحتــلة ليحقق ذلك . ورأى أن يصطحب معه فى رحلته ضابطا أكبر منه سنا ــ ولكنه كان موفور القوة والحيلة ــ يدعى الميجر ((بيير بروسوليت)) . ثم رأى أن يصطحب معه كذلك شخصا ممن كانوا يعمــلون تحت القيادة البريطانية ، فاختير ((يو ــ توماس)) ــ الذى عرف باسم ((الارنب الابيض الصغير)) ــ لمرافقتهما .

وأخيرا .. وصلوا الى باريس

• **وفى** فجر ٢٧ فبراير سنة ١٩٤٣ ، مست قدما ((يو ــ توماس)) أرض فرنسا ، هابطا من الجو بـ ((الباراشوت)) . واذا بفرنسى يحتضنه ، ويرحب به ! .. فقد كانت ثمة لجنة من رجال المقاومة فى ارتقاب الزائرين الثلاثة ، والامدادات التى أحضروها معهم . ثم اقتيدوا ــ على الدراجات ــ الى مكان أمين . وكان الالمان قد حرموا على الفرنسيين البقــاء خارج دورهم بعد منتصف الليل ، فاتفق رجال المقـــاومة وزملاؤهم على أن يزعموا أنهم كانوا فى حفلة زفاف ، وأنساهم الشراب موعد العودة ، وكان عليهم أن يسرعوا الى (روان) ، ليكونوا فى أعمالهم فى الصباح .

ولكنهم لم يصادفوا متاعب فى الطريق اللهم الا ان دراجة ((يو ــ توماس)) كانت عالية جدا بالنسبة لساقيه . وكان كل منهم قد ثبت حقيبته خلفه ، ولكن حقيبة صاحبنا وقعت وتلف قفلها ، فاضطر الى أن يثبتها أمامه . ولقى من ارتفاع

الدراجة واضطراره الى حفظ توازن الحقيبة ، ووعورة الطريق ما أضناه وأرهقه . حتى اذا بلغوا المكان الامين الذى حظوا فيه بالطعام والراحة ، تبين « باسى » انه نسى حقيبة ثيابه وحمل بدلا منها حقيبة مليئة بالمفرقعات وأجهزة اللاسلكى ، ولو ان الالمان تعرضوا لهم فى الطريق ، لانكشف أمرهم . ومن ثم فقد كان من الضرورى أن يعود أحدهم — فى الصباح التالى — الى البقعة التى دفنوا فيها الذخائر والامدادات ، فيحضر حقيبة «باسى» ويضع الاخرى مكانها ..

وقدر لهم أن يتغلبوا على المتاعب فى النهاية ، وأن يستقلوا الحافلة « الاوتوبيس » الى (روان) ، ثم يرحلوا بالقطار الى باريس ، فوصلوا اليها فى حوالى الساعة الثامنة مساء . واستقلوا « المترو » الى (بورت دوفين) ، حيث نزل فريق منهم فى مسكن لبعض أقارب « بروسوليت » ، واضطر « يو — توماس » أن ينزل فى مسكن آخر ، على أن يلتقوا فى الساعة الحادية عشرة من الصباح التالى ، فى (بورت مايو) .

.. وعاد « الارنب » الى جحره !

. وخرج « يو — توماس » مبكرا — فى الصباح التالى — ليقوم بجولة واذا به يصادف الالمان يقومون بالتحرى فى أحد الطرق .. وكان معنى ذلك أن يسد الطريق فريق من جنودهم ، بينما يصطف المارة على الجانبين ، فلا يمر أحد الا بعد أن يقدم الاوراق المثبتة لشخصيته . **ووجف قلب « يو — توماس » حين بلغ الضابط الالمانى ، اذ خشى أن يفطن هذا الى أن البطاقة الشخصية التى كان يحملها مزورة ، على ان الضابط نظر الى الصورة ، ثم نظر الى صاحبنا ، وما لبث أن رد اليه البطاقة ..** فاستطاع « يو — توماس » أن يوافى صديقيه فى الساعة الحادية عشرة . وراح ثلاثتهم يتصلون بجماعات المقاومة السرية ويتحدثون اليها ويجادلون

أفرادها ، حتى استطاعوا اقناعهم بتوحيد جهودهم ، فوقعوا اتفاقا بينهم فى ٢٣ مارس .

وفى ١٤ أبريل ، تلقى الثلاثة نبأ من (لندن) بأن طائرتين ستهبطان بالقرب من المطار الذى كانوا قد هبطوا فيه لتلتقطاهم .. وكان يصحبهم - فى هذه المرة - أمريكى يدعى « ريان » ، كان الالمان قد أسقطوا طائرته ، ولكنه استطاع ان يفر من الاسر .. وبعد متاعب محفوفة بالاخطار، استطاعوا أن يصلوا الى المكان الموعود ، فاختبأوا فى حرش قريب ، وقضوا لحظات حافلة بالمخاوف .. فماذا يحدث لو ان الالمان فطنوا الى أن صوت محركى الطائرتين مغاير لاصوات محركات طائراتهم ؟ .. بل ماذا يحدث لو لم تصل الطائرتان ؟

ولكن القدر حالفهم .. وترددت خلال البرنامج الفرنسى، المذاع من هيئة الاذاعة البريطانية ، عبارة : « الارنب الابيض الصغير ، عاد الى جحره ! »

« الجستابو » يصيد « الارنب » !

• **ولقد** عاد « يو - توماس » الى فرنسا مرتين بعد ذلك ، وكانت شجاعته مضرب الامثال فى المقاومة السرية الفرنسية . وأصبح رجال «الجستابو» يفتشون عنه باهتمام ، كشخصية خطيرة لابد من ازاحتها عن طريقهم !

وحدث فى آخر مرة ذهب فيها الى فرنسا ، ان قرر أن ينقذ زميله « بروسوليت » ، الذى كان الالمان قد اعتقلوه ، وألقوا به فى سجن (رينز) . وفى الصباح السابق للمغامرة ، كان عليه أن يتأكد من الاجراءات النهائية ، وأن يلتقى فى محطة « المترو » برسول يحمل اليه أنباء من معاونيه من رجال المقاومة السرية .. فلما حان الموعد، ذهب «يو - توماس» الى محطة « المترو » التى كانت معينة للقاء الرسول .. ولكن الرسول لم يأت !

واذ طال الانتظار ، تحرك ((يو ـ توماس)) مغادرا المحطة ، واذا ببعض رجال ((الجستابو)) يلقون القبض عليه .. ورأى الرسول فى أيدى فريق منهم . اذ كانوا قد ألقوا القبض عليه من قبل ، وقد انهارت عزيمته ، وكشف للالمان عن دقائق مهمته .. ولقد تعرض ((يو ـ توماس)) لكثير من المتاعب وألوان التعذيب ، دون أن يبوح بشىء .. وكاد الالمان أن يحكموا باعدامه ، لولا ان تدخل الحظ فى اللحظة الاخيرة ، فأرسل الى معسكر الاعتقال الرهيب فى ((بوخنفالد)) . ولكنه استطاع الهرب .. وفى ١٢ فبراير سنة ١٩٤٦ حصل على ((صليب جورج)) ، أعلى أوسمة الشجاعة لدى الانجليز !

فى شارع باحدى ضواحى باريس

• **عند** غروب شمس أحد أيام أغسطس سنة ١٩٤٣ ، وقف ضابط ألمانى فى طريق (ريشار ولاس) بضاحية (لوى ـ سير ـ سين) الباريسية ، يرقب فتاة قلة فى الجسم ولكنها بادية الانوثة والجد ، وقد راحت تحاول أن تثبت سلكا الى شجرة على حافة الرصيف .. وعرف فى الفتاة احدى المقيمات فى المبنى الذى كان يقطن فيه ، وقد لاحظ انها كانت غريبة الاطوار ، لم يرها مرة الا وهى بادية التعجل. وما لبث ـ أخيرا ـ أن اقترب منها ، وقال فى هدوء : ((مدموازيل !)) . والتفتت الفتاة بسرعة ، وهى مجفلة ، ثم ابتسمت .. فقال : ((هل لى أن أساعدك ؟)) . فأجابته وهى رابضة الجأش : ((سيكون هذا كرما منك !)) . وأعطته قطعة السلك فثبتها فى الشجرة ، ثم دخل المبنى .

ولا بد ان الضابط الالمانى كان جاهلا ، أو غبيا ، أومشغول البال بمسائل خطيرة ، والا لكان قد أدرك أن قطعة السلك لم تكن سوى ((هوائى)) لجهاز اذاعى .. ((ايريال)) ! وكان الالمان قد حرموا على الفرنسيين الانصات الى الاذاعات .

فكيف اذن ساعدها ؟ .. ولقد طافت هذه الخواطر بذهن الفتاة ، ولكنها سرعان مادخلت المبنى بدورها ، وصعدت الى مسكنها ، وضبطت جهازا للارسال موجهة موجته الى لندن ، وشرعت فى العمل .. فقد كانت جاسوسة !

جاسوسة لم تنل شيئا من المران

• **كانت** « نور عنايت خان » ابنة ولدت لاب هندى وأم أمريكية ، وقد عاشت سنين طويلة فى فرنسا ، ثم فرت الى (لندن) ـ عند الغزو النازى ـ لتعود ثانية كعضو فى جهاز الجاسوسية فى البلاد المحتلة ، فى فبراير سنة ١٩٤٣ . وكانت موكلة بجهاز للارسال اللاسلكى . **على أن أهم ما روعنى فى أمر « نور » هو أنها ـ حين أوفدت الى باريس ـ لم تكن قد تلقت سوى دراسة غير كاملة فى اللاسلكى ، كما انها لم تتلق أى مران على أعمال الجاسوسية ، وما يلزم للجاسوس من وسائل وتصرفات للمحافظة على سلامته وسلامة من يتعاونون معه ..** فكانت تترك مذكراتها ـ لاسيما تلك التى تختص بالشفرات ـ متناثرة فى مسكنها ، دون ما تحفظ .. وحدث مرة أن أسلمت زميلا لها خريطة هامة فى حديقة عامة !

وفى أول يوليو من ذلك العام ـ أى بعد أسبوعين من نزولها بالباراشوت فى فرنسا ـ كانت « نور » على موعد مع الفريق الذى كانت تتعاون معه ، فى مدرسة الزراعة القومية فى (جرينيون) ، شمالى غرب (فيرساى) . وكانت هذه المدرسة مركزا لعدة جماعات للتجسس . وفيما كانت تقترب من المدرسة ، لاحظت أن نفرا من الجنود انبثوا حول المكان ، فتركت دراجتها جانبا ، وسارت على قدميها مسافة ، حتى استبانت ان « الجستابو » كانوا قد داهموا المدرسة وقبضوا على من اجتمعوا فيها ، فأسرعت تنسحب فى هدوء ، وعادت من حيث أتت !

وكانت هذه الاغارة على مدرسة الزراعة ، نكبة فادحة حاقت بشبكة الجاسوسية البريطانية فى فرنسا ، حتى لقد ظلت ((نور)) ـ من جرائها ـ الوحيدة الموكلة بارسال التقارير باللاسلكى من باريس ، لثلاثة أشهر كاملة . ويبدو أن هذه النكبة قد نبهتها الى ضرورة الحيطة والحذر ، فراحت تغير الاماكن التى كانت ترسل منها تقاريرها ، فى فترات متقاربة. وكانت تبدو دائما فى عجلة وانفعال ، الى أن تجلس الى جهاز الارسال ، فسرعان ماتنسى نفسها !

تنال وسامين بعد اعدامها !

• **ولقد** كان بقاؤها فى فرنسا ـ عقب حادث (جرينيون) ـ عملا من أعمال البطولة فى الواقع . اذ أن « نورا » لم تكن شجاعة فى الاصل ، بل انها عرفت بالخوف والجبن . وكان اعتقال معظم زملائها ، بعد وصولها بأسبوعين فقط ، خليقا بأن يبث الذعر فى نفسها ، حتى أن (لندن) أمرتها بالعودة توا . وهنا كان العجب .. فقد رفضت « نور » العودة ، وأصرت على البقاء !



وتعرضت لمآزق عصيبة ، ولكنها كانت تنجو فى كل مرة .. حدث مرة أن تصدى لها جندى المانى ، وهى فى قطار « المترو » وقد حملت حقيبة احتوت على جهاز ارسال لاسلكى ، فسألها عما بالحقيبة .. **واجابت بدون تردد انه جزء من جهاز**

سينمائى تعرض الافلام .. وعاد الجندى يسألها : ((هل أستطيع أن أراه ؟)) . فأجابته ((نور)) ، وهى تفتح الحقيبة: ((بالتأكيد !)) . وحملق الجندى بضع لحظات فى الجهاز ، وقد بدا على وجهه أنه لم يكن يعرف شيئا عنه ، ثم قال : ((معذرة ، فقد ظننته شيئا آخر !))

وفى أواسط شهر أكتوبر ، اهتدى الجستابو الى أمرها .. وفى ذات يوم ، عادت الى مسكنها فاذا برجل ـ كان مختبئا فيه ـ ينقض عليها .. وناضلته كذئبة ضارية ، حتى خف الى معونته ثلاثة من الجنود .

وكان أكثر مافى المأساة ايلاما ، هو أن ((نورا)) كانت قد وافقت ـ فى الفترة الاخيرة ـ على أن تعود الى (لندن) ، وكان من المقرر أن تقوم بالرحلة بعد يومين !

ووجد فى حجرتها جهاز الارسال ، ومذكرات كافية لادانتها ، فضلاً عن نسخ للشفرة . فقد ظلت ـ حتى النهاية ـ مهملة ، قليلة الحذر . **على أنها كانت قوية الجلد والعزيمة ، أبت أن تنبس ببنت شفة رغم مالقيت من تعذيب . ثم استطاعت أن تتصل باثنين من الانجليز كانا معها فى السجن ، وتمكن الثلاثة من الفرار ..** وفى اللحظة التى بلغا فيها خارج السجن ، دوت صافرات الانذار . وكان المعتاد ـ فى تلك الحال ـ أن يجرى حصر للمسجونين ، فانكشف غياب الهاربين الثلاثة ، وسرعان ما ألقى القبض عليهم ثانية !

واعتبرت ((نور)) من الخطرات ، فرؤى نقلها الى سجن فى ألمانيا ، حيث ظلت عشرة أشهر فى ((زنزانة)) انفرادية . ثم نقلت ـ مع ثلاث جاسوسات انجليزيات ـ الى معتقل (داتشاو) ، حيث أعدمن بالرصاص .

وتكريما لذكراها ، أنعمت عليها انجلترا بصليب جورج ، وأنعمت عليها فرنسا بصليب الحرب والنجمة الذهبية !

استطعت أن أغرر بالجستابو

• **فى** سنة ١٩٤٢ ، هبطت بالباراشوت فى (أستونيا) ، حيث كنت أقيم وأعمل لفترة طويلة قبل الحرب ، وحيث كانت متاخمة البلاد للاراضى الروسية والفنلندية ، ذات قيمة كبرى . ولست هنا بصدد رواية مغامراتى هناك ، اذ اننى أفردت لها كتابا خاصا ، ولكننى أكتفى بأن أذكر **اننى وقعت هناك فى أيدى الالمان ، ونقلت الى فرنسا ، حيث استطعت أن أقنع السلطات النازية بأن تستخدمنى لحسابها ، وبذلك قدر لى أن أكتشف كثيرا من أسرار مخابراتها !**

وأقمت – فى باريس – فى « فيلا » باحدى الضواحى ، مع فرنسى يدعى « هيجو » وزوجته . وكان هذا الرجل ذا براعة فنية فى شئون اللاسلكى ، وقد استخدمه قلم المخابرات التابع للطيران الالمانى ، لانتاج أجهزة الارسال اللاسلكية لجواسيس الالمان المنبثين فى فرنسا اذ ذاك . وكان اسمه الشفرى « تنس » ، وقد اعتاد كلما فرغ من جهاز ، أن يجربه بارسال بعض الاشارات الى مركز اللاسلكى بادارة المخابرات فى ألمانيا . وسرعان ما اطمأن الرجل الى ، وأولانى ثقته ، وأصبح يسمح لى بأن أساعده فى هذه التجارب !

وكنت مطلق الحرية فى التنقل فى باريس ، بزعم اننى فنلندى ، أوفدتنى الحكومة الفنلندية – بعد أن حاربت شهورا طويلة فى الجبهة الروسية – لاتبوأ منصبا فى سفارتها فى باريس . وقد زودنى الالمان بالاوراق اللازمة .

« تنس » وسر مضارب التنس !

• **ولم** ألبث أن اكتشفت أن مخابرات الطيران الالمانى كانت تستخدم « هيجو » فى الاتصال بجواسيسها ، الى جانب

مهامه اللاسلكية . وكنت قد حرصت ـ منذ البداية ـ على أن أتظاهر بعدم الالمام باللغة الالمانية ، وقد أفادنى ذلك فى مراوغة المحققين ـ عندما قبض على ـ كما مكننى من أن أنصت الى الاحاديث التى كان يتبادلها رجال « الجستابو » والمخابرات السرية ، وهم مطمئنون الى جهلى بلغتهم . وكذلك كان حالى مع « هيجـو » ، فـكثيرا ماكان يزوره الميجـر « فلايجرز ـ بارون كليمان » ـ أحد رؤساء مخابرات الطيران الالمانى ـ ويدلى اليه بتعليمات ، وكأنما لا وجود لى معهما !

وكان من أهم الامور التى لاحظتها ، ان البارون كان يحضر لهيجو ـ من آن لآخر ـ مضارب للتنس تحتاج الى اصلاح وكان يزعم دائما انها لاحد الالمان أو لصديق يقيم فى اسبانيا. وتذكر ان الاسم الشفرى لهيجـو كان « تنس » ! ورابنى الامر ، وكنت ازداد حيرة كلما أمعنت فى التفكير . الى ان كان ذات يوم ، اذ أحضر « هيجـو » الى البيت مضربا تم اصلاحه ، وكان المعتاد أن المتجر الذى كان يتولى الاصلاح ، اعتاد أن يرسل المضارب الى اسبانيا مباشرة .

وقررت فى نفسى أمرا ، فلما أحضر البارون مضربا بحاجة الى الاصلاح ـ بعد ذلك ـ تعمـدت أن أخرج فى الصـباح التالى فى موعد خروج « هيجو » ، لاستقل معه سـيارته الى باريس ، كما كانت العادة أحيانا .. فانطلق الى القسم الغربى من المدينة ، وترك سيارته فى أحد الازقة ، ثم رافقنى الى محطة « المترو » وتركنى وسار فى سبيله والمضرب معه !

مطاردة فى أزقة باريس

• **وتلكأت** لبضع ثوان ، ثم تلفت ، فاذا « هيجو » يسير على بعد ثلاثين خطوة ، فحرصت على أن أتبعه عن كثب ، دون أن أمـكنه من أن يفطن الى . على اننى ما لبثت أن اصطدمت بسيدة فرنسية . وريثما وقفت واعتذرت لها ،

كان « هيجو » قد اختفى عن بصرى .. وكانت ثمة شوارع صغيرة تتفرع من الجانب الآخر للطريق ، فمررت بها وأنا أحـرق الارم غيظا .. **وفجـأة ، زال كل غيظ ، اذ لمحت « هيجو » يخطر فى نهاية احدى هذه الحوارى . فتبعتـه وقد أصبح موقفى أكثر خطورة ، لان الحارة كانت خالية من المارة . وقبل أن أبلغ منتصفها ، كان هو قد عرج الى شارع خلفى آخر ، فخشيت أن أفقد اثره ، ولكنى لم أكن أجرؤ أن أجرى** . على اننى لم أكد أبلغ نهاية الحارة ، حتى أبصرت « هيجو » على بضع ياردات ، يقف على الرصيف ، ويتحدث الى رجل كان يهم بمغادرة سيارة .. وكان الموقف خطيرا ، فلو انه التفت لرآنى ، لذلك سرت فى اتجاه مضاد ، حـوالى مائة ياردة ، ثم التفت فجأة ، فلم أجد له ـ ولا للرجل الذى كان يهبط من السيارة ـ اثرا .. وأيقنت أنهما ولا بد قـد دخلا أحد البيوت أو المتاجر ، فرحت أتسكع حول المكان .

وصح حدسى ، فبعد عشرين دقيقة تقريبا ، رأيت « هيجو » عند السيارة ، وليس معه مضرب التنس . وسـار بمـزيد من السرعة ، متخذا الطريق التى جاء منها ، فانتظرت الى أن غاب عن بصرى تماما ، وسرت مقتربا من السيارة ، فاذا بها تقف أمام متجر صغير للادوات الرياضية ، حفظت اسمه !

وخطر لى أن أقدم على خطـوة أخرى ، فدخلت المتجـر لارى حقيقة أمره .. وخف لاستقبالى صـبى سـألنى عن حاجتى . وكنت أعـرف أن أكرات « البيدمينتـون » ذات الريش نادرة ، فسـألت عنها . وقال الصـبى : « آسف ياسيدى » . **وفى تلك الاثناء ، كنت قد أخرجت حافظتى . وكان لها جانب من « الساغة » بدت خلفـه بطاقة تحقيق شخصيتى .. وكانت ألمانية** . فما أن رآها الصبى ، حتى أسرع الى داخل المتجر ، وعاد وبصحبته رجل ، كان هـو عين الرجل الذى رأيته يبارح السـيارة . وما ان لمح هـو

الآخر البطاقة ، حتى أسرع فأحضر لى ثلاث كرات .

وطبعت صورة الرجل فى ذاكرتى كذلك . ومع اننى لم أعرف — الى اليوم — سر مضارب التنس ، **الا أن المغامرة كانت نافعة .. فما أن تم استرداد فرنسا من النازيين ، حتى اقتحم رجال مقاومة الجاسوسية متجر الادوات الرياضية — بفضل بياناتى — فظهر انه كان مقرا لخلية جاسوسية حرص الالمان على أن يخلفوها وراءهم ! ..**

ولهذا أطلقت صحيفة « الديلى اكسبريس » على لقب : « الرجل الذى يأبى أن يمكث هادئا ! »



الترجمة الحرفية للرواية المقررة على طلبة الشهادة الثانوية العامة

ملخص ما نشر فى الاعداد السابقة

◆ كان لابد لى من أن أخوض المخاطر ، وأن أكتسب شهرة وتجارب ، كى تقبل «جلاديز» ـ الفتاة التى أحببتها ـ أن تصبح خطيبة لى ٠ ومن ثم جازفت ، وقابلت الأستاذ « تشالينجر » ، الذى كان الصحفيون والعلماء يرهبونه ٠٠ ذلك لأنه كان قد عاد من رحلة فى أمريكا الجنوبية ، قائلا ان على ضفاف (الأمازون) منطقة مجهولة ، تعتبر « العالم المفقود » حقا ٠٠ اذ لا تزال مخلوقات ما قبل التاريخ تعيش فيها دون أن يمسها اى تطور ٠٠ وقد سفه العلماء قوله ، وسخر منه الناس ، ولكنه ظل متشبثا بروايته ، وذهب فى التحدى الى درجة أن طالب بتأليف بعثة تتحرى صدق روايته ٠٠ وتألفت البعثة من الأستاذ سمرلى ـ وهو من العلماء ـ واللورد جون روكستون ـ الرحالة الشهير ـ وأنا ٠٠ وبعد رحلة بحرية طويلة ، ثم رحلة فى نهر (الأمازون) ، بلغنا بلدة (مناوس) ٠٠ وهناك ، لحق بنا الأستاذ تشالينجر ٠٠وبدأنا توغلنا ، سعيا الى ٠٠ « العالم المفقود » !

واضطررنا الى الاستغناء عن اليخت ، اذ ضاق عرض النهر ، فمضينا فى زورقين ، الى أن أرشدنا « تشالينجر » الى جدول صغير ، انتهى بنا الى ادغال كان الهنود يتحاشون الاقتراب منها ، اعتقادا بأن « الكوروبورى » ـ روح الغابات ـ تسكنها ٠ ولم نستطع المضى بالقاربين ، فتركناهما ، وسعينا على الأقدام ٠ وانتهينا الى مرتفعات صخرية حمراء تؤلف هضبة ، هى الهضبة التى كانت تؤلف « العالم المفقود » !٠٠ ولم يكن ثمة مكان فى سفوحها ، يتسنى تسلقها عنده٠ على أن صخرة ذات شكل هرمى ، كانت تقوم بجوارها ، وتحاذيها ارتفاعا ، وان فصلت بينهما هوة سحيقة ٠ وكانت عليها شجرة بالغة الارتفاع ، فاستطعنا أن نمدها فوق الهوة ، ونعبر الفراغ عليها ٠٠ وأصبحنا فى « العالم المفقود » ، حيث صادفنا « الدينوصاور » و « الايجوانودون » ٠٠ وكلها هائلة الحجم ، رهيبة المنظر٠٠ وأسمينا المكان « أرض ميبل هوايت » ، واتخذنا معسكرا فى أحد الادغال ٠ وفى اليوم التالى ، تعرضنا لهجوم من طيور « البتيرودكتايل » الهائلة ، الضارية ٠٠

والآن ، تابع هذه القصة المشوقة العجيبة ، فى حلقتها الرابعة !

الحلقة الرابعة

بقية الفصل العاشر

• **وقال** تشالينجر وقد وقفنا بجوار الجدول، وراح يغسل ركبته المتورمة: « تجربة من أطرف التجارب! .. لقد أطلعنا ــ بطريقة فذة ــ على عادات البيتروداكتايل المهتاجة! » .

وكان سمرلى يمسح الدم عن جرح فى جبهتـــه ، بينما كنت أضمد جرحا فى عصب عنقى . أما اللورد جون ، فقد تمزق كتف سترته ، ولكن أسنان الطائر مست اللحم فحسب .

وقال اللورد بلهجة حافلة بالشعور بالخطر: « كانت معركة خاطفة كفيلة بأن تودى بحياتنا . ولا أستطيع أن أفكر فى ميتة أبشع من أن أقتل بوساطة مخلوقات قذرة كهـذه . لقـد أسفت اذ أطلقت بندقيتى ، ولكن .. ما كان ثمة خيـــار ، والله ! » . فقلت: « لو لم تفعل لمـا كنا هنا الآن ! » .

قال: « انها قد لا تحدث أى ضرر . ولا بد أن ثمة كثيرا من القرقعات العالية ــ التى تشبه صوت البندقية ــ بين هذه الغابات ، من جراء سقوط الاشجار . على أننا قد قمنا بما يكفى فى يومنا ، وجدير بنا ــ اذا كنتم من رأيى ــ ان نعود الى المعسكر ، فنعنى بجراحنا . فمن يدرى أى سم قد يكون لدى هذه الوحوش ، فى أشداقها البشعة ؟ »

ولكن من المؤكد أنه ما من بشر قد تعرضوا ليوم كهذا منذ بداية الدنيا . فقد كانت ثمة مفاجأة جديدة فى ارتقابنـــا .. لقد ظننا ــ حين بلغنا معسكرنا أخيرا ، ورأينا أسوار « حصن تشالينجر » الشوكية ــ ان مغامراتنا قد انتهت . ولكنا وجدنا أمرا جديدا نفكر فيه قبل أن يكون لنا ان نستريح .. **لم يكن مدخل معسكرنا قد مس ، ولا أسواره قد اقتحمت ، ومع ذلك فقد زاره فى غيابنا مخلوق غريب ، قوى . ولم تكن ثمة**

آثار أقدام تنم عن كنهه ، ولا كان ثمة ما يوحي بالطريقة التى أقبل بها وانصرف ، سوى تدلىبعض فروع الشجرة الهائلة .
أما قوته الرهيبة ، فقد كانت حال مقتنياتنا تدل عليها . اذ كانت الاشياء مبعثرة فى كافة أرجاء المكان ، وقدهشمتاحدى علب اللحم لاستخراج محتوياتها .

ومرة أخرى ، غشى نفوسنا الشعور بالهلع ، ورحنا نحملق حولنا بأعين مرتاعة ، متفرسين فى الظلال المعتمة التى كانت تحيط بنا . وما كان أجمله من وقع أن سمعنا صوت « زامبو » ينادينا ، ورأيناه ـ اذ سعينا الى حافة الهضبة ـ جالسا على قمة الصخرة الهرمية المقابلة ، وهو يبتسم .. وصاح : « آه ، أهلا يا سيد تشالينجر ، أهلا ! .. ها أنذا ماكث هنا ، فلا خوف .. ستجدوننى دائما حين تريدوننى ! »

وذكرنا وجهه الاسود الامين ، والمنظر الشاسع الممتد أمامنا ، باننا كنا على سطح الارض حقا ، وفى القرن العشرين ، ولم ننتقل ـ بسحر ما ـ الى كوكب من الكواكب ، فى بداوته الاولى !

بقيت لى ذكرى أخرى ـ من ذكريات هذا اليوم العجيب ـ أختتم بها رسالتى . ففيما كنت جالسا أدخن ، على جذع شجرة واقعة ، أقبل اللورد جون نحوى ، وقال : « قل لى يا مالون ، أتذكر ذلك المكان الذى كانت فيه تلك الوحوش ؟ » .. فأجبت : « بجلاء تام ! » . فقال : « كان نوعا من الحفر البركانية . أليس كذلك ؟ » . وأجبت : « تماما ! .. وتربته تميل الى الزرقة وتبدو كالطمى .. ولكن ، لماذا ؟ » .. فقال : « آه ، لا شىء .. لا شىء ! » . وعاد الى حيث كان الاستاذان يتناقشان فى أحد الامور . وما كنت لافكر ثانية فى حديث اللورد جون ، لولا اننى سمعته مرة أخرى ـ فى تلك

الليلة ـ يتحدث الى نفسه ، قائلا : « **طمى أزرق .. طمى فى حفرة بركانية ! »**

وكانت هذه آخر كلمات سمعتها قبل أن أروح فى سبات عميق .

١١ ـ « كنت بطلا .. لمرة واحدة ! »

• كان اللورد جون روكستون على صواب ، حين فكر فى ان عضة تلك المخلوقات الرهيبة ـ التى هاجمتنا ـ ربما كانت سامة . ففى الصباح الذى أعقب مغامرتنا الأولى على الهضبة ، أصيب سمرلى واياى بآلام عظيمة وحمى، بينما كانت ركبة تشالينجر قد ازدادت تورما ، حتى انه لم يكد يستطيع أن يسير . لذلك لزمنا معسكرنا طيلة اليوم ، وانهمك اللورد جون ـ مستعينا بما كنا نستطيع أن نقدم له من مساعدة ـ فى زيادة ارتفاع وسمك الأسوار الشوكية ، التى كانت الدفاع الوحيد لنا . وكان يداخلنا جميعا ـ بينما كنا نعمل ـ الشعور بأننا كنا تحت رقابة قريبة ، وان لم نستطع أن نحدس من كان صاحبها !

وفى تلك الليلة ـ وهى ثالثة ليالينا فى أرض ميبل هوايت ـ تعرضنا لتجربة تركت أثرا مخيفا فى عقولنا ، وجعلنا نحمد للورد جون أن أجهد نفسه فى تعزيز أسوار معسكرنا . وكنا جميعا نياما حول نارنا المحتضرة ، حين أوقظنا ـ أو بالأحرى انتزعنا من نومنا ، كما ينبغى أن أقول ـ على أرهب صرخات وصيحات سمعتها فى حياتى . فلست أدرى صوتا أستطيع أن اقيسها اليه . وبدا انها كانت تنبعث من بقعة على بضع مئات الياردات من معسكرنا . وأسرعنا نلصق راحاتنا بآذاننا ، لنصد عنها هذا الضجيج الذى كان يهز الأعصاب . وتفصد من جسمى كله عرق بارد ، واشتد اعياء قلبى لفرط تعس حالنا . وما لبثنا أن سمعنا ـ خلال هذه الصرخات العالية التى أشقت قلوبنا ـ صوتا آخر .. قهقهة طروبا منخفضة ، منبعثة من أعماق الصدر ، بدت بشعة فى صحبة ذلك الصراخ الذى كانت تختلط به ! .. واستمر هذا النضال المخيف بين الصوتين لثلاث أو أربع دقائق كاملة ، بينما كانت أوراق الشجر تتحرك بشدة ، مع استيقاظ الطيور المرتاعة . ثم سكتنا فجأة ، كما بدأ . **وجلسنا أمدا طويلا فى صمت مذعور . ثم ألقى اللورد جون بعض فروع جافة ـ من فروع الشجر ـ على النار ، فسرعان ما اشتد وهجها .**

وهمست : « ما هذا ؟ » . فقال اللورد جون : « سنعرف فى الصباح » . قلت : « لقد كان جد قريب منا » . فقال تشالينجر : « لقد كنا محظوظين جدا

اذ سمعنا حدثا محزنا وفظيعا ٠٠ انه من قبيل المأساة التى حدثت بين أشجار الغاب ، على ضفة بحيرة ، فى العصر اليوراسى ، حين اغتال وحش كبير آخر أصغر منه ، فى الوحل ! »

ـ لقد كان من الخير للانسان ، يقينا ، ان جاء الأخير فى ترتيب الخلق ٠ فقد كانت ثمة قوى منطلقة ـ فى العهود الأولى ـ لم يكن بوسع أية شجاعة أو أية آلة من آلات الانسان أن تقاومها ٠ فماذا كان سهمه أو مقلاعه يجديه ازاء قوى كتلك التى انطلقت الليلة ؟٠٠ لقد كانت فرصه خليقة بأن تبدو ضئيلة ازاء الوحش ، ولو تسلح ببندقية حديثة !

فقال اللورد جون ، وهو يربت بندقية : « أرى لزاما على أن أعزز رأى صديقى الصغير ، ولكن من المحقق أن الوحش كان قمينا بأن يحظى بفرصة طيبة » ٠ فرفع سمرلى يده، ثم صاح :« صه ! من المؤكد اننى أسمع شيئا !»٠ ومن جوف الصمت ، انبعثت دقات عميقة منتظمة ٠٠ تلك كانت خطى حيوان ما ٠٠ صوت قدمين ثقيلين كانا يوضعان على الأرض فى حذر ٠٠

وتسلل القادم فى بطء حول المعسكر ، ثم وقف بالقرب من بابه ٠٠ وما لبثنا أن سمعنا أنفاس مخلوق تنبعث منتظمة ٠ ولم يكن ثمة ما يفصلنا عن هذا الفزع الليلى ، سوى السياج الشوكى الواهى ٠ وكان كل منا قد أمسك بندقيته ، وقد جذب اللورد جون فرعا صغيرا من أشجار السياج ، ليفتح ثغرة ٠٠ وهمس : « بحق القديس جورج !٠٠ أعتقد أن بوسعى أن أراه ! »

أجل ، وكان بوسعى أنا الآخر أن أراه ٠٠ فى ظل الشجرة المدلهم ، كان ثمة ظل أشد ادلهاما ٠٠ أسود ، غامضا ، غير واضح المعالم ٠٠ جسم ملىء بقوة وحشية ، ووعيد ٠٠ ولم يكن أكثر ارتفاعا من الحصان بكثير ، ولكن شكله المعتم كان يوحى بضخامة وقوة بالغتين ٠ وخيل الى ـ اذ تحرك مرة ـ اننى رأيت عينين رهيبتين ، يميل بريقهما الى الخضرة ٠ وكانت ثمة حركة متململة ، كما لو انه كان يتقدم فى بطء ٠ فقلت وأنا أعد بندقيتى : « أعتقد انه يوشك أن يقفز ! » ٠ فهمس اللورد جون : « لا تطلق النار !٠٠ لا تطلق النار !٠٠ ان اطلاق بندقية فى هذا الليل الساكن ، جدير بأن يسمع على أميال ٠ استبق هذا كحيلة أخيرة ! »

وقال سمرلى ، وهو يضحك بانفعال أثناء كلامه : « لو انه قفز على السياج لقضى علينا ! » ٠ فصاح اللورد جون : « لا ، يجب أن لا يقفز فوقه ٠ ولكن امسكو رصاصاتكم الى الآخر ، ولعلى أستطيع أن أفعل به شيئا ٠٠ لسوف أجازف على أية حال ! »

وكان أشجع تصرف رأيت انسانا يقدم عليه !.. فقد ذهب الى النار والتقط منها غصنا متأججا ، وانسل – فى لحظة خاطفة – خلال فتحة أحدثها فى المدخل .. وتحرك الشىء متقدما ، مرسلا صرخة رهيبة .. ولم يتردد لورد جون ، وانما جرى نحوه بخطى سريعة ، خفيفة ، ودفع بالغصن الملتهب فى وجه الوحش .

ورأيت وجهه المخيف – للحظة واحدة – وقد اكتسى بدم أحمر حديث الانطلاق . وفى اللحظة التالية ، كان ثمة صوت تحطم فروع فى الادغال ، ورحل زائرنا الفظيع . فقال اللورد جون ضاحكا ، وهو يعود : «كنت أعرف أنه لن يواجه النار» . فصحنا جميعا : « ما كان ينبغى لك أن تقدم على مثل هذه المجازفة ! »

– ما كان ثمة شىء آخر يمكن عمله . ولو انه دخل بيننا ، لكنا قد اطلقنا الرصاص ، كل على الآخر ، فى محاولة اردائه.. ومن الناحية الاخرى ، لو اننا كنا قد اطلقنا الرصاص خلال السياج وجرحناه ، لوجدناه سراعا فوقنا.. فكأننا كنا نسلمه أنفسنا . وأظن أننا قد خلصنا منه تماما ، بوجه عام .. فماذا كان اذن ؟

ونظر عالمانا – كل الى الآخر – فى شىء من التردد ، ثم قال سمرلى ، وهو يشعل غليونه من النار الموقدة : « اننى – شخصيا – عاجز عن أن أعين نوع هذا المخلوق بأى تأكيد » . وقال زميله : « أما انا فلست مستعدا لان اذهب الى اكثر من أن أقول أننا قد رأينا الليلة « دينوصاور » من اكلة اللحوم . ولقد أخبرتكم من قبل أن شيئا من هذا القبيل قد يكون موجودا على هذه الهضبة . على أن مزيدا من القرائن قد يساعدنا فى الغد على ان نحدد نوعه . والى ذلك الوقت ، نستطيع أن نحظى بقسط من النوم ، نحن فى أشد الحاجة اليه ! »

— على ان لا يكون ذلك دون اقامة واحد منا على حراسة المكان . أننا لا نجرؤ على الاعتماد على الحظ فى بلاد كهذه . فليقم كل منا بالحراسة ساعتين ، فى المستقبل !

فقال الاستاذ سمرلى : « اذن ، فسأفرغ غليونى ، بأن أبدأ النوبة الاولى » . **ومن ذلك الحين فصاعدا ، لم نعد نأمن على أنفسنا دون حراسة .**

ولم يطل بنا الوقت — فى الصباح — حتى اكتشفنا مصدر تلك الصيحة الرهيبة التى أيقظتنا فى الليل . فقد كان الفضاء الذى رأينا فيه أسرة « الايجوانودون » — فى الغابة — مسرحا لاغتيال فظيع . وتصورنا لاول وهلة — من منظر برك الدم والقطع الهائلة من اللحم التى كانت متناثرة فى كل اتجاه ، فى المكان — أن عددا من الحيوانات قد قتل. **ولكنا حين فحصنا البقايا بمزيد من الدقة ، اكتشفنا أن الذى قتل حيوان أبيض . وكان قد مزق اربا — بمعنى الكلمة — بوساطة مخلوق ما ، قد لا يكون أكبر منه ، ولكنه أشد ضراوة منه !** .. ووافق العالمان على أن الحيوان قد اغتيل بوساطة أحد الدينوصاورات الضخمة ، آكلة اللحم . واقترحا أن يكون من النوع المسمى « **ميجالوساوروس** » (١) ، وهو من أفظع أنواع الكائنات الحيوانية الحية التى عاشت على الارض فى أى يوم من الايام . ورفعا صوتيهما خلال المناقشات ، وعلا ضحكهما ، فقال اللورد جون فى لهجة مهذبة : « كلما قل الضجيج ، كان ذلك أفضل ، فنحن لا نعرف من أو ماذا يحتمل أن يكون بالقرب منا . ولو عاد هذا الحيوان ينشد فطوره ، وداهمنا هنا ، لما

---

(١) الميجالوساوروس : دينوصاور من أكلة اللحوم ، كان يعيش فى العصر اليوراسى .. طوله من الرأس الى نهاية الذيل — عشرة أمتار ، وارتفاعه — من الرأس الى القدمين الخلفيتين — خمسة أمتار !



الميجالوساورس

بقى لنا ما نضحك منه . وبهذه المناسبة ، ماهذه العلامة التى على جانب الايجوانودون ؟ »

كانت على الجلد الرمادى اللون المتهدل - فوق الكتف بقليل - دائرة سوداء من مادة لاحت كالقار (الاسفلت) . ولم يستطع أحد منا أن يحدس ما تعنيه ، وان كان من رأى سمرائى أنه رأى شيئا مشابها على حيوان صغير من هذا النوع ، منذ يومين .

وفى ذلك الصباح ، ارتدنا معالم جزء صغير من الهضبة ، متفادين مستنقع البتيروداكتايل ، وملتزمين شرق جدولنا المائى ، بدلا من غربه . وكانت الاراضى - فى هذا الاتجاه - لا تزال مكسوة بالغابات الكثيفة ، التى تنمو بينها نباتات كثيرة ، حتى أن تقدمنا خلالها كان جد بطىء

ولقد اقتصرت - حتى الآن - على ذكر أهوال « أرض ميبل هوايت » ، ولكن الموضوع كان ذا جانب آخر ، فلقد رحنا طيلة النصف الاول من ذلك النهار ، نجوس بين زهور بديعة ، كانت فى الغالب - كما لاحظت - بيضاء اللون أو صفراء .. **وهذان اللونان - كما قال زميلانا العالمان - هما أول الوان الزهور ظهورا على الارض** . وكانت الارض - فى كثير من البقاع - مكسوة بأسرها بهذه الزهور ، فكنا نسير واقدامنا تغوص حتى الكاحل فى هذا البساط البديع ، وكان العبير يكاد يجعل

رؤوسنا تدور لفرط شذاه وقوته . وكانت النحلة المألوفة في انجلترا تطن حولنا ، في كل مكان . كما كانت معظم الغصون التي مررنا تحتها منحنية تحت ثقل الفاكهة التي كان بعضها من انواع ألفناها ، في حين ان انواعا أخرى كانت جديدة علينا. وبملاحظة أيها التي كانت منخورة بمناقير الطيور ، استطعنا أن نتفادى كل خطر للتسمم ، وأضفنا الى ما كنا نختزن من أطعمة ، انواعا لذيذة . وكانت في الدغل الذي سرنا خلاله دروب عديدة ، مهدتها الوحوش ، وقد رأينا في البقاع الموحلة عددا كبيرا من آثار أقدام غريبة ، بينها كثير من اقدام الايجوانودون . ولمحنا مرة - في حرش - عددا من هذه المخلوقات الضخمة وهي ترعى ، وتبين اللورد جون - خلال منظاره - انها الاخرى كانت تحمل بقعة الاسفلت ، وان كانت في موضع آخر غير الذي فحصناه في الصباح . ولكنا لم نستطع ان نتصور لذلك معنى .

ومنذ الزيارة الغامضة التي تعرض لها معسكرنا ، اعتدنا أن نعود اليه دائما في شيء من الخوف . ولكنا - في هذه المرة - وجدنا كل شيء على حاله . . وفي ذلك المساء ، أثرنا بحثا كبيرا بشأن موقفنا الراهن ومشروعاتنا للمستقبل . فقال سمرلي : « **ان الذي ينبغي ان نفعله اليوم ، وغدا ، وطيلة الوقت ، هو العثور على مخرج من هذا الشرك الذي وقعنا فيه . انكم جميعا توجهون تفكيركم الى التوغل في هذه البلاد، ولكني أقرر أن علينا ان نضع الخطط للخروج منها** » .

فانفجر تشالينجر ، وهو يربت لحيته المهيبة : « انني في عجب يا سيدي ، من ان يكون نواحد من رجال العلم مثل هذا الشعور غير النبيل . انك في ارض تقدم لاي عالم طموح من علماء الطبيعة أكثر مما تقدم أي أرض ، منذ بدأت الدنيا ، ومع

ذلك فأنت تقترح مبارحتها قبل أن نكون قد حصلنا على أكثر من أتفه المعلومات الظاهرية عنها وعن محتوياتها . لقد كنت أتوقع منك ما هو أفضل من هذا ، يا استاذ سمرلى »

وقال سمرلى فى حنق : « يجب ان تتذكر ان لدى فرقة دراسية كبيرة فى لندن ، يتولاها الآن مساعد أبعد مايكون عن الكفاءة . وهذا يجعل موقفى مختلفا عن موقفك يا استاذ تشالينجر ، اذ انك — بقدر ما أعلم — لم توكل بأى عمل تدريسى ! » . فقال اللورد جون ، متدخلا بينهما :« يجب ان أقول ، اننى ارى انه سيكون عملا عظيم التفاهة ان أعود الى لندن قبل أن أعرف الكثير عن هذا المكان ، فوق ما اعرف الآن ! » . وقلت أنا : « لن اجرؤ على ان اعود الى ادارة صحيفتى ومواجهة الشيخ مكاردل ، فهو لن يغفر لى ان تركت خلفى مثل هذه الانباء الطريفة . فضلا عن انه امر لا يستحق الجدال — بقدر مارى — اذ أننا لانملك أن نهبط ،ولو شئنا !» . فأضاف تشالينجر : **« ان مصالح مهنته الزرية (يقصد مهنتى) ليست ذات أهمية لنا ، ولكنا — كما أشار — لا نستطيع أن نهبط على أية حال ، ومن ثم فان بحث الامر مضيعة للوقت!»**

وصاح سمرلى وغليونه فى فمه : « أن عمل أى شىء آخر هو مضيعة الوقت . دعنى أذكرك اننا جئنا هنا لمهمة محددة تماما ، وهى ان نفحص صدق بيانات الاستاذ تشالينجر . ولقد ثبت أنها صحيحة ، ومن ثم فان عملنا قد أنجز . اما التفصيلات التى بقى البحث عنها على هذه الهضبة ، فهى من الضخامة بحيث لا أمل فى ان يقوم بها سوى بعثة كبيرة ، مجهزة بمعدات خاصة تماما . ولو اننا حاولنا ذلك وحدنا ، فان النتيجة الوحيدة المحتملة ، هى — ولا بد — اننا لن نعود اطلاقا بالانباء المهمة . لقد وجد الاستاذ تشالينجر وسيلة لايصالنا الي قمة هذه الهضبة ، وأرى أن علينا الان ان ندعوه

الى ان يستخدم عين الكفاءة فى اعادتنا الى الدنيا التى اقبلنا منها » . فقال تشالينجر : «**ان مشكلة الهبوط مشكلة عسيرة ، لاول وهلة ، ومع ذلك فلست أشك فى أن العقل يستطيع أن يحلها** . وأنا على استعداد لان أوافق صديقى الاستاذ سمرلى، فى ان اطالة المكث فى « أرض ميبل هوايت » - فى الوقت الحاضر - أمر لا ينصح به أحد ، وان مسألة عودتنا يجب أن تواجه عما قريب . غير اننى ارفض الرحيل ما لم نقم بفحص سطحى لهذه البلاد - على الاقل - ونتمكن من ان ناخذ معنا شيئا من قبيل الخريطة ! »

قال سمرلى ، وهو نافد الصبر : « لقد قضينا يومين بأكملهما فى ارتياد هذا المكان ، ولسنا أكثر دراية بجغرافيته الواقعية مما كنا حين بدأنا . فمن الواضح أنه مكسو بأسره بالغابات الكثيفة، وأن اجتيازها ، ودراسة علاقة كل جزء بالآخر ، تستغرق شهورا . ولو كان ثمة بقعة عالية فى الوسط ، لاختلف الامر ، ولكنه ينحدر الى أسفل ، على قدر مانستطيع أن نرى . وكلما أوغلنا قل احتمال حصولنا على أى منظر عام ! » ..

وفى تلك اللحظة خطرت لى فكرة طيبة . فقد تصادف أن وقعت عيناى على شجرة ضخمة كانت تمد أوراقها الهائلة فوقنا . وكان من المؤكد انه اذا كان جذعها يفوق جذع سواها ، فلا بد أن يكون الامر كذلك بالنسبة لطولها . واذا كان الجزء الخارجى للهضبة هو أعلى أجزائها فعلا ، فلماذا لاتكون هذه الشجرة الجبارة بمثابة برج للمراقبة ، يمكن الاشراف منه على هذه المنطقة بأسرها ؟ .. **ولقد كنت دواما جد بارع فى تسلق الاشجار ، ولو أننى استطعت أن أضع قدمى على أول غصن ، لكان من الغريب حقا أن لا أشق طريقى الى القمة** .. ولقد سر أصدقائى أشد السرور بالفكرة . فهتف اللورد جون باغتباط ، وهو يدق براحته ظهرى : « بحق

القديس جورج ، أيها الزميل الشاب ، ليس بوسعى أن أتصور كيف اننا لم نتجه قط الى التفكير فى ذلك من قبل . لم يبق من النهار أكثر من ساعة واحدة ، ولكنك اذا أخذت دفتر مذكراتك ، فقد تتمكن من أن ترسم رسما كروكيا للمكان . وساساعدك فى ذلك » .

ووقف على بعض الصناديق ، بينما واجهت جذع الشجرة ، وكنت أهم بأن أرفع نفسى عندما قفز تشالينجر الى الامام ، ووجه الى دفعة قوية بيده الهائلة ، حتى كدت أندفع الى جوف الشجرة . وتعلقت بالاغصان ، وشرعت أتسلق بسرعة ، حتى ان الارض سرعان ماغابت عن بصرى ، ولم أعد أرى تحتى سوى أوراق الشجرة . على أن الشجرة كانت ضخمة جدا ، ولم أستطع أن أرى — وأنا أتطلع الى أعلى — أى اثر لتضاؤل الاوراق فوق رأسى . وكان الى جوارى غصن سميك وفيما كنت ألف حوله ، لارى ماوراءه ، كدت أهوى عن الشجرة فى دهشتى وجزعى مما رأيت .. **فقد كان ثمة وجه يحملق فى وجهى .. على مسافة قدم أو قدمين فقط . وكان وجها آدميا .. أو انه كان — على الاقل — أقرب الى الانسان منه الى أى قرد قدر لى أن أراه . وكانت العينان — اللتان كانتا تحت حاجبين كثيفين ، غزيرين — شديدتى الضراوة .** واذ فتح فمه ليصرخ ، لاحظت ان له أسنانا مقوسة ، حادة . وقرأت فى عينيه الخبيثتين كراهية دامت للحظة واحدة ، أعقبها بسرعة البرق مظهر ينم عن الخوف ، ثم غاص المخلوق وسط الاوراق الخضراء ، مندفعا . ولمحت بدنا غزير الشعر ، كبدن خنزير أحمر .. ثم اختفى .

وصاح روكستون من أسفل : « ماذا جرى ؟ .. هل أصابك شيء ؟ » . فصحت وذراعي حول الغصن ، وأطرافى كلها

ترتجف : « هل رأيته ؟ » . فتساءل : « وماذا كان ؟ » .
وكنت فى ذعر ازاء المظهر المفاجىء ، والغريب ، لهذا الانسان القرد ، حتى اننى ترددت فيما اذا كنت أهبط ثانية وأروى لاصدقائى مارأيت . ولكننى كنت قد مضيت بعيدا فوق الشجرة العظيمة ، فلاح لى أن من المخجل أن أعود دون أن أكون قد أتممت مهمتى . لذلك واصلت صعودى ، بعد شيء من الراحة لاستجمع أنفاسى وشجاعتى . وأخذت الاوراق تخف حولى تدريجا ، وأدركت من هبوب الريح على وجهى ، اننى أصبحت أعلى من جميع أشجار الغابة . وعندما بلغت أعلى نقطة على الشجرة ، كنت قد بلغت أقصى مايمكن أن أصل اليه ، اذ أن الغصن كان ينثنى تحت ثقلى . وهناك جلست على غصن متشعب مناسب ، واطللت على أبدع منظر لهذه البلاد الغريبة التى وجدنا أنفسنا فيها ! .. كانت الشمس توشك على المغيب ، والامسية الصافية مشرقة ، ومن ثم فقد كانت الهضبة — على سعتها — واضحة تحتى . **وكانت — اذ تراءت من هذا الارتفاع — أقرب الى أن تكون مستديرة الشكل ، طولها حوالى ثلاثين ميلا ، وعرضها عشرون . وكانت جميع الجوانب مائلة تلتقى فى المنتصف عند بحيرة كبيرة ، قد يكون اتساعها ميلين ، وقد بدت خضراء جميلة — فى ضوء المساء — والغاب ينمو حول حوافها ، وقد تخللت سطحها سدود رملية لاحت ذهبية فى الضوء البراق الذى أرسلته شمس المغيب .**
وكان ثمة عدد من أجسام طويلة سوداء ، أكبر بكثير من التماسيح ، وأطول بكثير من القوارب ، تستلقى على حواف هذه السدود . واستطعت — بفضل منظارى — أن أرى بجلاء أنها كانت حية .. أما كنهها ، فهذا مالم أستطع أن أتخيله !

وكانت الغابة تمتد من الجانب الذى كنا عليه — من الهضبة — مسافة خمسة أميال أو ستة ، فى اتجاه البحيرة التى فى الوسط .

واستطعت أن أرى تحتى مباشرة الفضاء الذى كان «الايجوانودون» فيه .. وعلى مبعدة منه، كان ثمة فضاء مستدير بين الاشجار، ينم عن مستنقع البتيروداكتايل . على أن الهضبة كشفت عن منظر جد مختلف عن هذا ، فى الجانب المواجه لى . كانت ثمة مرتفعات من البازلت تكون تلا ارتفاعه مائتا قدم ، ذا سفوح محسوة بالغابات . وعلى طول قاعدة هـذه المرتفعـات ، على مسافة فوق سطح الارض ، استطعت أن أرى ـ خلال المنظار ـ عددا من ثغرات معتمة ، حدست أنها فوهات كهوف . وكان ثمة شىء أبيض يتحرك عند فتحة احداها ، ولكننى عجزت عن تبين كنهـه . وجلست أرسـم خريطة البـلاد ، حتى غربت الشمس ، واشتد الظلام فلم أعد أستبين المعـالم . واذ ذاك هبطت الى رفاقى الذين كانوا فى انتظارى أسفل الشجـرة العظيمة ، فى أشد لهفة .. **وقدر لى أن أكون ـ لمرة واحدة ـ بطل البعثة . فقد فكرت فى هذا وحدى ، وقد أديته وحدى ، وها هى ذى الخريطة التى كانت كفيلة بأن توفر علينا شهرا من العمل وسط أخطار مجهولة .** وهز كل منهم يدى . وقبل ان يبحثوا تفصيلات خريطتى ، كان على أن أنبئهم بلقـائى مع الانسان القرد ، وسط الاغصان .

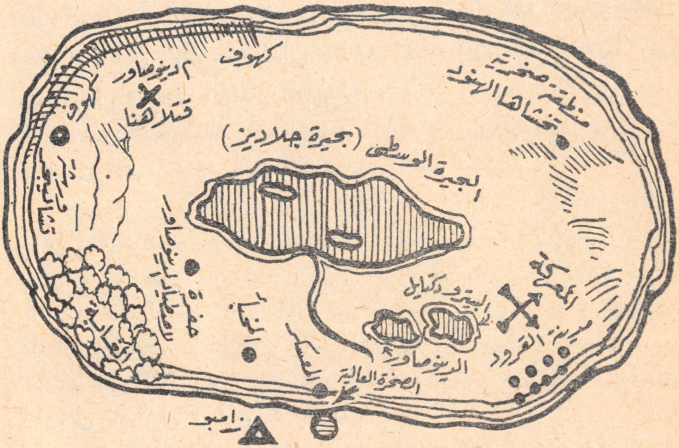
وقلت : « لقد كان هناك طيلة الوقت » . فسألنى اللورد جون : « وكيف عرفت ذلك؟ » . فأجبت: « لاننى لم أتخلص قط من الشعور بأن شيئا ضارا يراقبنا . وقد ذكرت لك ذلك ياأستاذ تشالينجر » . فأردف هذا : « نبئنى الآن ، هل خطر لك أن تلاحظ ماذا كان هذا المخلوق يستطيع أن يثنى أصبعه الابهام على كفه ؟ » . فقلت : « لا ، بالتأكيد » . وعاد يسألنى : « وهل له ذيل ؟ » . فأجبت : « لا »

ـ هل كانت قدمه قادرة على أن تمسك الاغصان ؟

ـ ما أظنه كان قادرا على الفرار بمثل هذه السرعة ، بين الاغصان ، لو لم يكن قادرا على أن يتشبث بها بقدميه .

ـ من المؤكد انه قرد شبيه بالانسان ، ولكنه ليس من طراز « الغوريلا » الكثيف الشعر ، الذى لايرى قط خارج أفريقيا أو الشرق . انه طراز عديم اللون ، لانه يقضى أيامه مختبئا بين أوراق الشجر . والمسألة التى علينا أن نعالجها هى ما اذا كان أقرب شبها الى القرد أو الى الانسان . فاذا كانت الحال الاخيرة ، أمكن اعتباره بحق « الحلقة المفقودة » (بين القرد والانسان) . وحل هذه المشكلة هو واجبنا العاجل فورا .

فقال سمرلى بحدة : « ليس الامر كذلك . فالآن وقد حصلنا ـ بفضل ذكاء مستر مالون ونشاطه ـ على خريطتنا ، فان واجبنا العاجل والاوحد ، هو ان نخرج أنفسنا من هذا



الخريطة التى رسمها « مالون » من أعلى الشجرة

المكان الرهيب ، بسلام وسلامة . ان مهمتنا أن نسجل مارأيناه، وان ندع كشف ماهو أبعد من هذا لسوانا . لقد وافقتم جميعا على هذا ، قبل أن يحصل لنا مستر مالون على الخريطة » .
فقال تشالينجر : « حسنا .. اعترف بأن بالى يصبح أكثر ارتياحا ، حين اطمئن الى أن نتيجة بعثتنا قد نقلت الى أصدقائنا . أما كيف نهبط عن هذه الهضبة ، فهذا ماليست لدى أية فكرة عنه بعد . على اننى لم ألتق يوما بمشكلة عجز عقلى عن حلها ، وأعدكم بأننى سأوجه اهتمامى فى الغد ، الى مسألة هبوطنا » . ومن ثم تركت المسألة عند هذا الحد . ولكن أول خريطة للعالم المفقود ، رسمت فى ذلك المساء ، على ضوء النار وشمعة واحدة . فرسم كل من المعالم التى كنت قد سجلتها دون دقة — من أعلى الشجرة — فى مكانه بالنسبة لسواه .
واتجه قلم تشالينجر نحو المنطقة الكبيرة التى مثلت البحيرة ، وقال : « بماذا نسميها ؟ » . فقال اللورد جون ، يخاطبنى : « ان تسمية البحيرة متروكة لك أيها الزميل الشاب » . ثم هتف : « لقد كنت أول من رآها ، فبحق القديس جورج ، ليس هناك من هو أحق منك اذا اثرت أن تسميها **بحيرة مالون**!! » .
وقال تشالينجر : « بلا أدنى شك . لندع صديقنا الشاب يطلق عليها اسما » . فقلت .. وأعترف بأن وجهى تضرج وأنا أقولها : « اذن ، فليكن اسمها : بحيرة جلاديز » .. وعقب سمرلى قائلا : « ألا ترون ان « البحيرة الوسطى » اسم أكثر انطباقا على وصفها ؟ » . فقلت : « بل اننى أوثر : **بحيرة جلاديز** » .. فرمقنى تشالينجر فى عطف ، وهز رأسه الضخم مبتسما ، وقال : « ان الصبية يظلون صبية دائما .. فلتكن : بحيرة جلاديز ! »

١٢ ـ « كانت الغابة رهيبة ! »

• **قلت** اننى كنت جد فخور ، حين شكرنى ثلاثة رجال من أمثال زملائى ، اذ أنقذت الموقف ، أو ساعدت عليه بجهد كبير ، على الاقل . فلقد كنت متواريا منذ البداية ، بوصفى أصغر عضو فى الفريق ، لا فى السن فحسب ، بل وفى الخبرة ، والشخصية ، والمعرفة . ولكننى شعرت الآن بأن موقفى قد ازداد أهمية ، فأذكت هذه الفكرة حميتى . ولكن ، وا أسفاه ! فان هذه الفكرة ، وهذا الشعور ، قدر لهما أن يقودانى — فى الليلة عينها ـ الى أشد التجارب فظاعة فى حياتى ، مما انتهى بصدمة ينقبض لها قلبى حينما أفكر فيها . وقد جاءت على هذا النحو تقريبا : كنت جد منفعل بمغامرتى على الشجرة ، فبدا لى النوم مستحيلا . وكان سمرلى يتولى الحراسة ، وقد جلس ـ نصف ناعس ـ الى جوار نارنا الصغيرة ، وبندقيته بين ركبتيه ، بينما استلقى اللورد جون ملتفا فى غطائه ، صامتا ، فى حين كان غطيط تشالينجر مسموعا فى أرجاء الغابة . . وكان البدر يسطع متألقا ، والهواء باردا . **فيالها من ليلة تحلو فيها رياضة المشى ! واذ ذاك خطرت ببالى فكرة ، مفاجئة : « ولم لا ؟ » . هب اننى تسللت فى رفق ، ويممت شطر البحيرة الوسطى ، وعدت فى موعد الفطور ، بنبأ عن المكان . . أفلا يزداد اعتبارى كصديق ذى قيمة ؟** . . ثم ، لو أن سمرلى أصر على رغبته ، واكتشفت وسيلة للنجاة ، لعدنا الى (لندن) بمعلومات وثيقة عن منتصف الهضبة ، وهى المنطقة التى زرتها أنا وحدى ، دون بقية الرجال ! . . وفكرت فى « جلاديز » و « مكاردل » وما سيكون لهذا من وقع لديهما ، فأسرعت أمسك بندقيتى ، واملأ جيبى بالرصاصات ، ثم تسللت فى هدوء تام .

وكانت الغابة رهيبة . فان الاشجار ازدادت كثافة ، وأخذت أوراقها تتسع انتشارا ، حتى اننى لم أستطع أن أرى شيئا من ضوء القمر ، اللهم الا ماكنت ألاحظه من أن الاغصان العليا كانت تلوح أشد أسودادا ، وهى تحجبه . ولما ازدادت عيناى تعودا على الظلمة ، تبينت أن الظلمة كانت درجات بين الاشجار . فكانت بعض الاجزاء مرئية فى غير وضوح ، واجزاء أخرى سوداء كالفحم ، وتبدو كأنها فوهات كهوف كنت أتحاشاها مذعورا وأنا أمر بها . فكرت فى الوحش الرهيب الذى قتل « الايجوانودون » ، فتذكرت اننى كنت أسير — فى تلك اللحظة بالذات — فى المنطقة التى يصطاد فيها ، وانه فى أية لحظة قد يثب على من بين الظلال . **ووقفت ، وتناولت من جيبى رصاصة ، وفيما كنت أحاول أن أضعها فى بندقيتى، قفز قلبى فى جوفى . فقد كانت البندقية التى أخذتها ، بندقية صيد عادية ، وكانت عديمة النفع ضد وحوش كهذه التى كانت تعيش فى الغابة !**

وفكرت — من جديد — فى العودة الى معسكرنا ، ولكن زهوى الاحمق أوقفنى .. كان من المحتمل — على أية حال — أن تكون بندقيتى عديمة النفع ضد عمالقة الغابة ، فاذا عدت لاستبدال سلاحى ، فلست أملك أن أتوقع أن أدخل وأخرج ثانية ، دون أن يرانى أحد .. وبعد قليل من التردد ، قررت أن أمضى فى طريقى ، وبندقيتى العديمة النفع تحت ابطى . وعبرت الفسحة التى كانت لحيوانات « الايجوانودون » ، دون أن أرى اثرا لها، ثم بلغت ثانية الجدول الذى كان مرشدى . كان لابد لى من أن أصل الى البحيرة طالما كنت أتبعه . وكان لابد لى من أن أصل الى المعسكر مادمت أتبعه فى عودتى .. وأخذت الغابات تخف ، وحلت الاحراش محلها ، وانا أهبط

السفح . وأصبح بوسعي — لذلك — أن أتقدم بسرعة ، وأن أرى ، بدون أن يراني أحد . ومررت على مقربة من مستنقع البتيروداكتايل ، ثم واصلت سيرى .

وكان الليل ساكنا الى أقصى حد ، ولكننى سمعت — أثناء تقدمى — صوتا خافتا ، أشبه بالغمغمة المستمرة ، فى مكان ما أمامى . وقد أخذ هذا الصوت يعلو كلما واصلت سيرى ، حتى أصبح جليا — فى النهاية — انه جد قريب منى . وعندما وقفت ساكنا ، ظل الصوت مستمرا ، حتى لاح انه صادر من بقعة معينة ، قريبة . وأصبحت أسمعه بجلاء ، فاذا به كصوت الماء يفور فى غلاية . **وسرعان ما أقبلت على مصدره.. ففى منتصف بقعة جرداء صغيرة ، وجدت بحيرة .. أو بالاحرى بركة ، لانها لم تكن أكبر من حوض نافورة من نافورات الشارع .. من مادة سوداء ، كان سطحها يعلو وينخفض ، بفعل فقاعات غازية !** وكان الهواء فوقها شديد السخونة ، والارض حولها حامية ، حتى اننى كدت لا أحتمل أن أضع يدى عليها . وكنت قد رأيت صخورا مسودة ، وتلالا من الحمم ، فى كل مكان من الهضبة ، **ولكن هذه البركة من الاسفلت ، وسط الدغل ، كانت أول دليل على أن البركان كان حيا .** ولم يكن لدى وقت لمزيد من الفحص ، اذ كنت فى حاجة الى أن أسرع ، اذ شئت أن أكون فى المعسكر ، فى الصباح .

وكان السير محفوفا بالخوف ، حتى اننى سأذكره ما بقيت ذاكرتى . وأخيرا — وقد أشارت ساعتى الى الواحدة صباحا — رأيت وميض ماء وسط الفرجات التى كانت تتخلل الغابة . وبعد عشر دقائق ، كنت بين الغاب القائم على حواف البحيرة الوسطى . وكنت جد عطشان ، فانبطحت على الارض ، وتناولت شربة طويلة من مياهها التى كانت طازجة ونميرة .

وكان ثمة درب عريض ، عليه كثير من الآثار ، عند البقعة التى عثرت عليه فيها ، ومن ثم فقد كان من الواضح أن المكان من موارد الشرب للحيوانات . وكانت ثمة صخرة هائلة بقرب حافة الماء ، فتسلقتها ، واذ استلقيت على قمتها ، حظيت بمنظر رائع فى كل اتجاه.. وملأ نفسى دهشة أول شىء رأيته. فلقد قلت ــ عند ما وصفت المنظر من قمة الشجرة الضخمة ــ اننى استطعت أن أتبين عند المرتفع الصخرى الاقصى ، عددا من النقاط السوداء ، التى لاحت كفوهات كهوف . أما الآن ، فقد رأيت ــ حين أبصرت المرتفعات ذاتها عن كثب ــ أقراصا من الضوء فى كل اتجاه .. **ضوء أحمر ، وواضح فى الظلمة . فلا بد أن هذه البقاع الحمراء كانت نيرانا فى داخل الكهوف .. نيرانا لاتشعلها سوى يد انسان .. اذن ، فقد كان هناك آدميون فوق الهضبة . وكانت هذه أنباء جديرة بأن تحمل الى لندن ، بلا شك !**

وظللت منبطحا أرقب الاضواء الحمراء وقتا طويلا . وأعتقد انها كانت على عشرة أميال منى . ومع هذه المسافة ، فقد كان فى وسع المرء أن يرى كيف كانت تتألق ، أو تعتم ثانية ، وكأن أحدا يمر أمامها . أى شىء كنت أضن به فى سبيل ان أستطيع التسلق اليها ، لاطل على جوفها وأعود الى أصدقائى بنبأ عن مظهر وشكل العنصر الذى كان يعيش فى مكان غريب كهذا ؟! .. وكان الامر مستبعدا فى تلك اللحظة ، ومع ذلك ، فما كان لنا ــ بالتأكيد ــ أن نبرح الهضبة حتى نحصل على معلومات محددة بشأن هذه النقطة ! .. وكانت بحيرة (جلاديز) ــ بحيرتى ــ تستلقى أمامى ، وقد انعكس القمر الوضاء السنا على منتصفها . ولم تكن عميقة ، اذ أننى رأيت سدودا رملية بقرب السطح ، فى عدة أماكن .. بل ان بعضها كان يبدو فوق الماء . وكنت أرى امارات الحياة فى كل مكان على سطح البحيرة ،

ولكن الكائنات لم تكن من الانواع التى عرفتها. **وسرعان ماانجه انتباهى الى ماكان يجرى عند قدمى بالذات .. كان ثمة حيوان جبار يهبط الدرب ، ساعيا الى البحيرة !**

وحرت للحظة فى تعرف أين رأيت ذلك الشكل البشع ، وذلك الظهر المقوس ، ذا القطع المثلثة من اللحم والعظام ممتدة بطولها .. وذلك الرأس الغريب الشبيه برأس الطائر ، وقد انحنى الى مقربة من الارض ، وذلك الذيل الثقيل ، ذا الزوائد الناتئة منه . وما لبثت أن تذكرت .. كان هو « الستيجوساوروس » .. عين المخلوق الذى رسمه « ميبل هوايت » فى دفتره ، الذى كان أول شىء استرعى اهتمام تشالينجر ! .. اذن ، فها هو ذا .. لعله عين الحيوان الذى صادفه الامريكى . **وكانت الارض تهتز تحت ثقله العظيم ، كما كانت الضجة التى يحدثها أثناء الشرب تتردد خلال الليل الساكن . وظل خمس دقائق جد قريب من صخرتى ، حتى لقد كان بوسعى أن أمد يدى فألمس ظهره . ثم تحرك ببطء مبتعدا ، وغاب بين الصخور !**

واذ ألقيت نظرة على ساعتى ، رأيت أنها كانت الثانية والنصف ، وأن الوقت قد حان لاشرع فى العودة . ولم يكن ثمة عناء بصدد الاتجاه الذى أعود فيه ، اذ أننى كنت قد جعلت الجدول الصغير الى يسارى ، طيلة سيرى . ولم يكن الجدول بعيدا ، ومن ثم فقد انطلقت وأنا ملىء بالنشاط والحماس ، اذ شعرت بأننى قد أديت عملا جليلا ، واننى كنت أحمل الى رفاقى أنباء طيبة ! .. وفيما كنت أسير مرحا ، صاعدا السفح ، وقد بلغت بقعة — ربما كانت فى منتصف الطريق الى المعسكر ، اذا بذهنى يرتد الى حقيقة موقفى بفضل ضجة غريبة انبعثت من ورائى .. كانت شيئا بين **الغطيط والزمجرة ، منخفضة ، عميقة ، خطرة ! ..**

كان ثمة مخلوق غريب بالقرب منى، ولكن شيئا لم يكن يبدو



الستيجوساورس

لعيني ، فازددت أسراعا فى طريقى . وكنت قد سرت نصف ميل أو أكثر ، عندما تكرر الصوت فجأة ، وهو لا يزال خلفى ، ولكنه كان اعلى وأكثر تهديدا من ذى قبل . ووقف قلبى ساكنا فى جوفى ، اذ خطر لى أن الوحش — أيا كان — يتبعنى ولا بد . وازدادت بشرتى برودة ، وانتصب شعرى لهذه الفكرة . فوقفت وساقاى ترتعشان تحتى ، وحملقت فى الدرب المضاء بنور القمر ، الذى كان يمتد خلفى ، فاذا كل شىء هادىء .. لم تكن هناك سوى فسح فضية بين الاشجار ، وأجزاء سوداء فى الادغال .. ولم أكن أرى شيئا آخر ! ثم انبعثت من الصمت مرة أخرى ، تلك الزمجرة البطيئة ، ولكنها أكثر ارتفاعا وقربا من ذى قبل . ولم يعد ثمة مجال للشك .. كان ثمة شىء يتبعنى ، ويزداد اقترابا فى كل دقيقة . ووقفت عاجزا عن الحراك ، أحملق ساكنا فى الارض التى اجتزتها .

ثم رأيته فجأة .. شبح ضخم أسود ، برز عند الطرف الاقصى من المنطقة الجرداء التى عبرتها ، وأخذ يقفز الى وضح ضوء القمر . وأقول « يقفز » لان الوحش كان يتحرك مثل « الكنغارو » ، واثبا الى الامام فى وضع منتصب على ساقيه الخلفيتين القويتين ، بينما كانت ساقاه الاماميتان مرفوعتين أمامه ، فى انحناء .

كان ذا حجم هائل ، وقوة هائلة كفيل يقوم منتصبا ، ولكن حركاته كانت — بالرغم من حجمه الهائل — نشيطة . وتمنيت لحظة

— وأنا أرى شكله — ان يكون من « الايجوانودون » ، الذى عرفت أنه غير مؤذ . ولكننى فى جهلى لم ألبث أن رأيت انه كان مخلوقا مختلفا تمام الاختلاف . فبدلا من الرأس الدقيق الشبيه بشكل رأس الوعل ، والذى اوتيه آكل أوراق الشجر ذو الاصابع الثلاث فى قدميه ، كان لهذا الوحش وجه عريض مثل ذلك الذى أفزع معسكرنا . وأكدت لى صيحته الضارية، وسرعةمطاردته،ان هذا كان ولا بد أحد الدينوصاورتالكبيرة، آكلة اللحوم . وهى أفظع وحوش سارت على وجه الارض ، وكان الوحش الهائل قد هبط على مخالبه الاربعة — وهو يتحرك قدما — وأخذ يقرب أنفه من الارض فى كل عشرين ياردة أو ما اليها .. كان يتشمم أثرى . وكان يخطىء — فى بعض الاحيان — اللحظة وجيزة ، ثم يهتدى ثانية ، فيقبل قافزا فى خفة ، فى الطريق الذى كنت قد سلكته .. ان العرق ليتفصد من جبينى حتى الآن ، حين أفكر فيه ! .. **فما الذى كان بوسعى أن أفعل ؟ .. كانت بندقيتى عديمة النفع فى يدى . فأى عون أظفر به منها ؟ .. وتلفت حولى بحثا عن صخرة أو شجرة ، ولكنى كنت فى أرض أشجار قصيرة كثيفة ، بدون أية شجرة ضخمة فى الواقع .. وكنت أدرك أن المخلوق الذى كان ورائى يستطيع أن يجتث أية شجرة عادية وكأنها قصبة من الغاب !** .. كانت الفرصة الممكنة الوحيدة ، فى الفرار . ولم أكن أستطيع أن أجرى بخفة على الارض الوعرة ، ولكنى تلفت حولى ، ورأيت دربا ظاهرا ، يمتد أمامى . كان من الممكن أن أتمالك نفسى فى هذا الطريق ، اذ أننى كنت سريع العدو ، وفى حال رائعة . واذ ألقيت بندقيتى عديمة الجدوى ، هيأت نفسى لان أقطع نصف ميل بسرعة ما عهدتها من قبل، ولا بعد ! .. وظللت أجرى ، وأجرى ، وأجرى . وأخيرا توقفت ، وأنا لا أكاد أقوى على الحراك . وكان الطريق لايزال ممتدا خلفى . ثم ، وفجأة ، اذا بالوحش ينقض على مرة

أخرى ، بصيحة عالية فظيعة . كان فى أعقابى تماما .. وقضى على بالهلاك !

كنت أحمق اذ وقفت كل هذه الفترة ، قبل أن أفر ! .. وكان ــ حتى ذلك الحين ــ قد تبعنى مهتديا برائحتى ، وكانت حركته بطيئة . ولكنه رآنى الآن فعلا ، اذ شرعت فى الجرى . ومنذ تلك اللحظة ، ظل يتبعنى وهو يبصرنى ، اذ كان الدرب يكشفنى أينما ذهبت . واذ وصل الى المنحنى ، قفز بوثبات عظيمة . وانعكس ضوء القمر على عينيه الكبيرتين ، وصف الاسنان الهائلة فى فمه الواسع ، والمخالب اللامعة فى ساعديه الاماميين القصيرين القويين . وتحولت ــ وأنا أصرخ فزعا ــ واندفعت على غير هدى فى الطريق . وكان صوت تنفس الوحش خلفى يتردد أعلى وأعلى أكثر من ذى قبل . وكانت قدماه الثقيلتان بجانبى تقريبا . واذ ذاك ، انبعث فجأة صوت تكسر .. واذا بى أهوى فى الفضاء ، واذا كل شىء خلفى ظلام ، ورائحة !

وعندما عدت الى وعيى ، فطنت الى أفظع رائحة تغثى لها النفس . ومددت يدى فى الظلام ، فوقعت على شىء بدا من ملمسه أنه قطعة هائلة من اللحم ، بينما أطبقت يدى الاخرى على عظمة ضخمة . وفوق رأسى كانت ثمة دائرة من سماء تنيرها النجوم ، مما أطلعنى على أننى كنت مستلقيا فى قاع حفرة عميقة . ووقفت على قدمى ببطء ، وتحسست كل جسمى . كنت مضعضع الحواس ، ولكن ما من طرف من أطرافى كان يأبى أن يتحرك . على أنه لم يكن ثمة أثر للوحش الرهيب ، ولم أسمع أى صوت من فوقى . وشرعت أسير وئيدا حول المكان ، أتلمسه فى كل مكان لاعرف أى شىء يمكن أن يكون هذا المكان الغريب الذى وقعت فيه .. كان ــ كما قلت ــ حفرة عميقة أشبه بالبئر ، ذات جدران رأسية ، وقاع مسطح ، عرضه حوالى عشرين قدما . وكانت تنتشر على هذا القاع

قطع كبيرة من اللحم ، كانت معظمها فى أواخر حالات الفساد والتعفن . وكان الجو مسمما فظيعا . وفى وسط الحفرة ، كان ثمة قائم عمودى مثبتا تثبيتا راسخا فى الارض . وكان مرتفعا ، بحيث أننى لم أستطع أن أصل الى قمته بيدى ، ولاح أنه كان مكسوا بمادة لزجة سميكة !

وفجأة ، تذكرت أن فى جيبى علبة من ثقاب شـــمعى ، فأشعلت أحد أعوادها ، واستطعت ـ أخيرا ـ أن ألم بفكرة عن هذا المكان الذى وقعت فيه . ولم يكن ثمة مجال للتساؤل عن طبيعته . كان مصيدة .. شركا صنعته يد انسان . وكان القائم الذى يتوسطه يبلغ حوالى تسع أقدام ، وقد دبب طرفه الاعلى وارهف ، واسود لونه بالدم المتعفن الذى انساب من المخلوقات التى قتلت فوقه .. وكانت البقايا المبعثرة هى قطع من الحيوانات التى قطعت لاخلاء الشرك للصيد التالى الذى قد يقع . وتذكرت أن تشالينجر أعلن أن ليس بوسع الانسان أن « يوجد » على الهضبة ، اذ أنه لم يكن ليستطيع أن يصمد بأسلحته الضعيفة أمام الوحوش التى كانت تهيم فى الهضبة .. **أما الآن فقد بدا بوضوح كيف كان بوسعه أن يصمد . ففى الكهوف الضيقة ، كان أهل المكان ـ أيا كانوا ـ يجدون مأوى ليس بوسع الوحوش الضخمة أن تلجها ، فى حين استطاعوا ـ بعقولهم النامية ـ أن ينصبوا شراكا ، مغطاة بالاغصان ، فى الدروب التى تبين مسالك الحيوانات، وأن يقضوا على هذه ، بالرغم من كل قواها . وهكذا كان الانسان دائما قاهرا ، غلابا !**

وقررت أن أتسلق جانب الهوة ، ولكن .. كيف كان لى أن أعلم أن الوحش الرهيب لم يكن فى انتظارى فى أقرب دغل ؟.. ومع ذلك فاننى استجمعت شجاعتى ، وتذكرت حديثا بين تشالينجر وسمرلى عن عادات الدينوصاورات الكبيرة . فقد اتفق كلاهما على أن هذه الوحوش كانت بلهاء ، وأن لا مجال

للعقل فى رؤوسها الصغيرة ، وانها اذا كانت قد اختفت من بقية الدنيا ، فانما كان ذلك بسبب غبائها الذى جعل من المستحيل عليها أن تفكر وأن تتبع الظروف المتطورة . ولهذا فمن المؤكد أن الحيوان ما كان ليفكر فى اسطارى ، ولا بد أنه انطلق هائما ، بحثا عن فريسة أخرى ، بعد أن ذهل لاختفائى .. فتسلقت الى حافة الهوة وتطلعت فوقها ، فاذا النجوم تخبو ، والبياض يشيع فى السماء ، وريح الصباح الباردة تهب مستعذبة على وجهى . **ولم أر أو أسمع شيئا ينم عن غريمى ، فصعدت الى الخارج فى بطء ، وجلست برهة على الارض ، متأهبا لان أقفز عائدا الى جوف الهوة ، اذا قدر لاى خطر أن يلوح لى .** وبعد بضع دقائق ، تأكدت من أن عدوى قد اختفى ، ومن ثم استجمعت جرأتى ، وتسللت عائدا من حيث أتيت . وعلى مسافة من المكان ، عثرت على بندقيتى ، ثم بلغت ــ بعد قليل ــ المجرى الذى كان دليلى ، فانطلقت الى المعسكر .

وانبعثت فى هواء الصباح الصافى ، الهادىء ، طلقة حادة على البعد ، لرصاصة وحيدة . فوقفت وارهفت السمع ، ولكن .. لم يعقبها شىء !

ترى ما سر هذه الطلقة ؟.. وماذا جرى لمالون ورفاقه ؟
هذا ما ستقرأه ــ مع مزيد من المغامرات الرهيبة ــ فى الحلقة القادمة من هذه القصة الرائعة المشوقة



.. ظننت أن محنتي هي أقسى محن الحياة ، فاذا الكاتب الشاب الاعمى فى محنة أشد .. وذاب قلبى أسى له ، وأحببته ، ولكنى كنت قد تقدمت اليه على اننى ((فتى)) .. وكان يكره مجرد ذكر النساء ..
من قصة ((تحت ظلال الليلا)) ، التى تقدمهـا الك ((مطبوعات كتابى)) .. بعد أيام . فترقبها